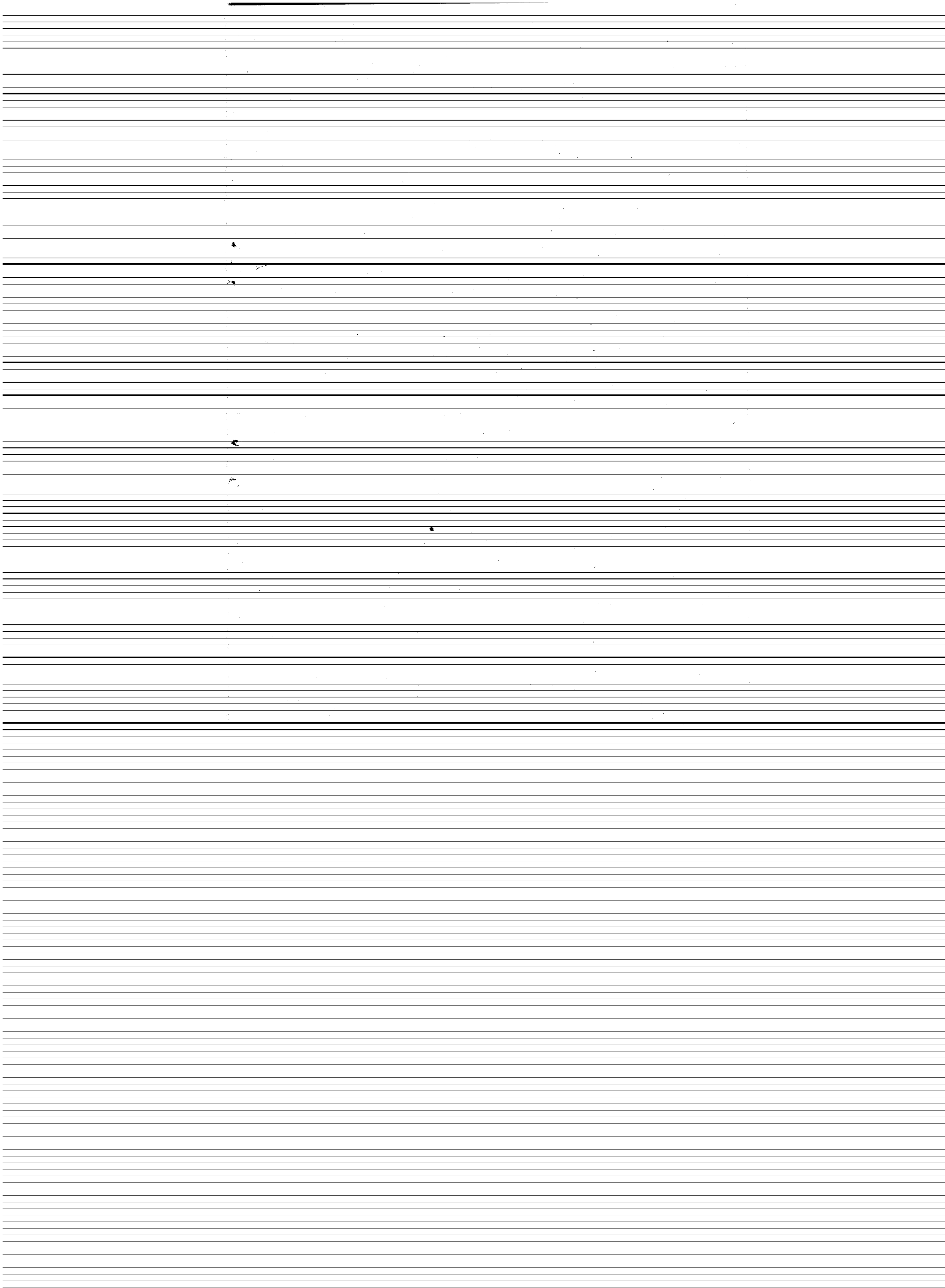
دراسات في الفرق الإسلامية

الأستاذ الدكتور
محمد مصطفى الشناوي
أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

الدكتور
نظير محمد محمد عياد
مدرس العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين والدعوة
جامعة الأزهر

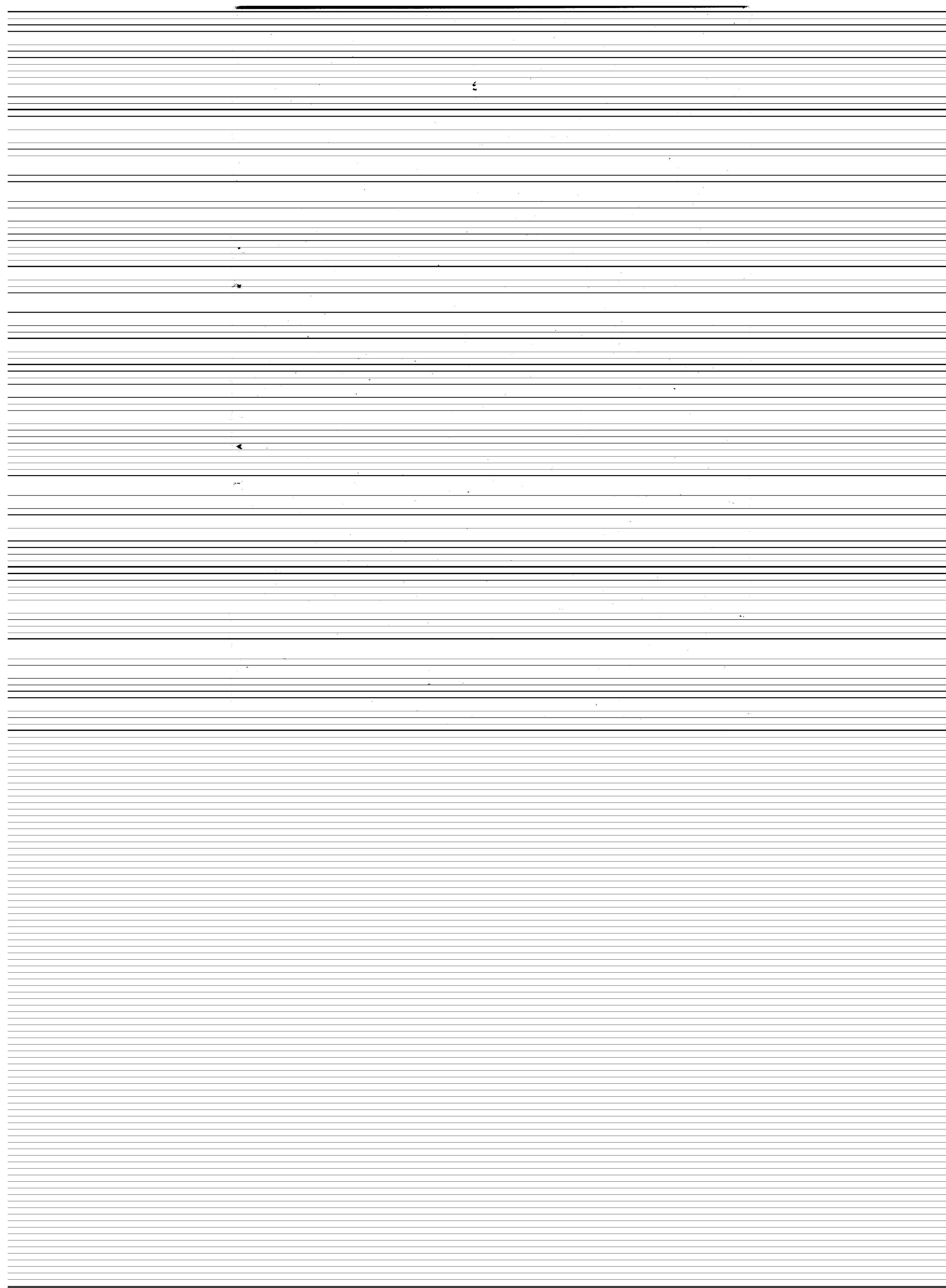
الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م





﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمـــد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونشكره ولا نكفره ، ونعادي من يكفره ، .ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنـــه من يهديه الله فلا مضل لـــه ، وأشهد أن لا أله إلا الله خصنا بخير كتاب أنزل ، وشرفنا بخير نبي أرسل ، وجعلنا بالإسلام خير أمة أخرجت للـــناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله ، وأشهد أن محمداً عـــبده ورســـوله . اللهم أحينا على سنته وأمتنا على ملته واحشرنا في زمرته ، وألحقنا بصحبته اللهم أمين .

أما بعد ...

فالعقيدة الإسلامية في عهد الرسول (ﷺ) كانت تستمد من مصدرين اثنين لا ثالث لهما كتاب الله تعالى وسنة نبيه (ﷺ) .

وسنة النبي (ﷺ) تفصيل لما أجمله القرآن ، وتوضيح لما أبهمه ووجود الرسول (ﷺ) بين المسلمين ، فيه حل لجميع مشكلاتهم ، فكانوا يرجعون إليه في أمـــور ديـــنهم ودنياهم فيفتيهم مما كان سببًا في عدم إبراز أي خلاف بين المسلمين في حياة الرسول لكنه لما ألحق الرسول بربه ، برزت أول مشكلة بين المسلمين وأعنى بها مشكلة الخلافة الإسلامية ، لكن أبا بكر استطاع أن يجنب المســـلمين في ذلك الوقت ويلات الخلاف وحسم الأمر ، لكن بذرة الخلاف كانت قد ذرعت وظلت تنمو في غفلة المسلمين حتى كان مقتل عثمان (ﷺ) فعـــادت للظهـــور مـــن جديد ولكنها عادت هذه المرة شجرة ذات جذور

وفـــروع ، فاختلف المسلمون اختلافًا فكريًا في بدء الأمر من أحق بالخلافة . وما حكم معصية الخليفة ؟ وهل يجوز إلحاق الكفر به أم لا إلى غير ذلك .

ثم مـــا لـــبث أن تطور الاختلاف الفكري المصبوغ بصبغة دينية إلى اخـــتلاف سياسي قوامه الحرب والنـــزال وإزهاق الأرواح ومن ثم تعددت الفرق وتباينت لكل منها معتقداته الخاصة ورأيه في خصومه ، لذا قمنا بحول الله تعـــالى بدراسة مفصلة عن نشأة هذه الفرق والعوامل التي أدت إلى نشأتها ثم تطرق بنا الحديث إلى دراسة تحليلية لكل فرقة على حدة مبرزين أهم رجال هذه الفرقة وأهم معتقداتها وأماكن وجودها .

والله أســـأل أن يكون هذا العمل مقبولاً عنده تعالى ، وأن يجعله في ميزان حسناتنا وشفيعًا لنا عنده يوم لقائه .

الفصل الأول

مدخل لدراسة الفرق الإسلامية

تمهيد

نشـأة الفـرق لـيس خاصًا بالأمة الإسلامية فحسب بل إن الأمم السـابقة حدث بها تفرق واختلاف ، فعلى سبيل المثال تفرقت اليهود على إحـدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وليس بدعا أن تفترق الأمة الإسلامية ، فكما قال رسول الله (ﷺ) في حديث أبي هريرة(ﷺ) قـال : قـال رسول الله (ﷺ) : " تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافتـرقت والنصـارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة " [١] .

وعـن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله (ﷺ) : " ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل ، حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان فيهم من أتى أمـه علانـية لكان من أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنـتين وسـبعين ملـة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملـة واحـدة ، قالـوا مـن هـي يـا رسـول الله ؟ قال من أنا عليه وأصحابي " [٢] .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٥/٥) عن أبي هريرة ، وقال الترمذي حديث صحيح .

(٢) نفس المصدر (٢٦/٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وهو ضعيف .

قـال الإمام عبد القاهر البغدادي [1] : " للحديث الوارد في افتراق الأمـة أسـانيد كـثيرة " [2] إلا أنها ضعيفة . وقد رواه عن النبي جماعة من الصـحابة كـأنس بـن مالـك وأبي هريرة وأبي الدرداء وجابر وأبي سعيد الخـدري ، وقد روي عن الخلفاء الراشدين أنهم ذكروا افتراق الأمة بعدهم فـرقاء ، وذكروا أن الفرقة الناجية منها فرقة واحدة وسائرها على الضلال والحديث بطرقه وألفاظه يدل على افتراق أمة محمد (ﷺ) كما افترقت الأمم السابقة .

ونـرى من هذه الآثار أن النبي (ﷺ) تنبأ بهذا الافتراق قبل وقوعه ، وأخبر عن حدوث الفتن قبل أن تنبت في الرؤوس ، وتلك خصائص النبوة ، ومـزايا الرسـالة ، وقـد أخبر بها لتنتبه الأذهان وتعتصم بالحق ، وتتجنب الشـطط ، والفتن ، في كل حال أمر واقع ، وقد قال الإمام ابن تيمية تعليقاً علـى الأحاديث السابقة : " وهذا المعنى محفوظ عن النبي (ﷺ) من غير وجه يشـير إلى أن الفـرق والاختلاف لابد من وقوعها في الأمة وكان يحذر أمته لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة ، كما روي النزال بن سبُرة عن عـبد الله بـن مسـعود قال : " سمعت رجلاً قرأ آية سمعت النبي (ﷺ) يقرأ خلافهـا ، فأخـذت بيده فانطلقت به إلى النبي فذكرت ذلك له فعرفت في وجهـه الكـراهية وقال : كلاكما محسن ، ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا " [3] .

---

(١) هو أبو منصور عبد القادر بن طاهر التميمي البغدادي من أئمة الأصول وأعيان فقهاء الشافعية ت : ٤٢٩هـ .

(٢) الفرق بين الفرق . ص : ٥ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم . ص : ٣٥، والحديث رواه مسلم .

لكن السؤال لماذا اختلف المسلمون وبين أيديهم كتاب الله لا يضلون ما إن تمسكوا به ، وأمامهم سنة رسول الله (ﷺ) من أخذ بها اعتصم من الشر بسور شديد لا يأتيه الباطل ولا يصل إليه زيغ الشيطان ؟ [1]. وللإجابة على هـذا السـؤال ينبغـي الوقـوف علـى الظروف والملابسات التي تدعو للاخـتلاف – لأنـه سـنة كونية في البشرية بوجه عام وفي المسلمين بوجه خاص . وقبل الوقوف عليها لابد من الإشارة إلى عدة نقاط مهمة تتصل بهذا الموضوع :–

(١) الشيخ محمد أبو زهرة . تاريخ الجدل . ص : ٧٦ .

المبحث الأول مقدمات عامه

أولاً : تعريف الفرقة

لغـة : لهـا عـدة معان فتارة تكون بمعنى الفصل كما جاء في قوله تعـالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ (١) ، وتارة بمعنى الفلق : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ (٢) ، وتكون بمعنى الفرق :﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴾ (٣)

وما تكون من الفرقة والافتراق الذي هو ضد الوحدة والتجمع كما في قوله تعـالى : ﴿ ... فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (٤) ، ومنه قوله تعـــالى :﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٥)، وقـال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ ﴾ (٦) ، وقـال تعـالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة الدخان الآية (٤) .
(٢) سورة البقرة الآية (٥٠) .
(٣) سورة المرسلات الآية (٤).
(٤) سورة المائدة الآية (٢٥) .
(٥) سورة آل عمران الآية (١٠٥) .
(٦) سورة الأنعام الآية (١٥٩) .
(٧) سورة البينة الآية (٤) .

وقد دلت هذه الآيات على أمرين جامعين :

أولهما : أن الاختلاف في الأمم السابقة كان مع وجود العلم بينهم وليس في حالة فقده كما في قوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ ﴾[٢].

ولا يكون ذلك إلا عن طريقين إما التأويل أو التبديل .

ثانيهما : هو تحذير الله سبحانه وتعالى للمسلمين من عدم التفرق مثلماً تفرق الذين من قبلهم وذلك بالتصريح تارة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ ﴾ أو بالتلميح أخرى كما في قوله تعالى :﴿ لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾ فإن ذلك كالنص على عدم التفرق والتشتت إذ أنه من يتبرأ منه رسول الله (ﷺ) يكون عمله منهيا عنه بطريق اللزوم .

ثانياً : بين الفرقة والاختلاف

بين الفرقة والاختلاف عموم وخصوص ، فالعموم يكون بمعناها ومرادف لها ، وقد استعمل القرآن كلمة اختلاف بهذا المعنى لأنه لما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يفضي إلى التنازع استعير ذلك للمنازعة

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٥) .

(٢) سورة الشورى من الآية (١٤) .

والمجادلة في مثل قوله تعالى :﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴾[1] . وأما الخصوص الـذي بيـنهما أن الفرقة لا تكون بمعنى الخلاف أيضاً ومعناه : أن ينهج كل شخص طريقاً مغايراً للآخر في حاله وأقواله . والخلاف أعم من الضد ، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين .. ولذلك فالخلاف منه المحمود والمذموم .

والاختلاف نوعان :

علمي ونظري وكلاهما لا يؤدي إلى تفرق الجماعة ، ولا يمزق وحده المسلمين ، لأن الاختلاف يتعلق بالفروع ، ولا يكون في الأصول الأساسية ، ويكـون في المسـائل الاجتهادية التي لا نص فيها ، مثل وجهات النظر بين الـناس ، وهـذا التنوع من الاختلاف جائز لأنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، ولكنه إذا أدي إلى تفرق فإنه يدخل ضمن الاختلاف المذموم .

بدء الخلاف بين البشر

ما من مجتمع في هذه الحياة إلا ويحدث فيه خلاف لأنه سنة من سنن الله الكونـية وهـذا شأن الحياة ، ولو نظرنا إلى أول خلاف على الأرض ، هـو خـلاف بني آدم (قابيل وهابيل) وقد ترتب عليه سفك الدماء ، وقد قـص علينا القرآن هذا الخلاف في قوله تعالى :﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ

---

(١) سورة مريم الآية (٣٧) .

ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١) وقد أخبرنا القرآن بالاختلافات التي كانت تقع بين الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم وذلك مثلما وقع بين سيدنا نوح (عليه السلام) وابنه كما في قوله تعالى :﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾(٢) .وكثيراً ما وقع الخلاف بين الأنبياء وأقوامهم وقد ضربنا مثلاً واحدا ليتضح لنا أن الخلاف قائم في الأرض .

ولما أشرق نور الإسلام على الوجود يحمل إلى البشرية التوحيد ليرشدهم إلى طريق الهداية ، ويدعوهم إلى الخير واتسعت رقعة الإسلام على يد النبي (ﷺ) فكان الصحابة يرجعون إلى كتاب الله ، وإلى النبي (ﷺ) فيما

---

(١) سورة المائدة الآيتان (٢٧، ٢٨) .

(٢) سورة هود الآيتان (٤٢، ٤٣) .

يشكل عليهم من أمور تتعلق بالدنيا والآخرة ، فكان رسول الله مرجعاً لهم في الحيرة ، وكانوا على رأي واحد حتى قبض رسول الله .

يقـــول الإمــــام الأشعري : " وكان الصحابة رضوان الله عليهم عند وفـــاة الـــنبي (ﷺ) على عقيدة واحدة ، ولم يكن أحدهم ليختلف مع الآخر إلا في فهـــم أوتيه في كتاب الله وسنة رسوله ، يعرضه على أخيه فإن لم يكن عـــنده ما يدفعه من سنة أو فهم في كتاب أو سنة ، رجع فيها إلى قول أخيه وتقبله أحسن القبول " (١) إذن ما وجد من خلاف بين الصحابة كان في أمور اجتهادية لا نص فيها وهذا لا يوجب الخلاف فيما يتعلق بالعقيدة الدينية (٢).

ثالثاً : الهدف من دراسة الفرق

دراســـتنا للفرق ليس إقراراً أو فرحاً بها ، أو شماتة على الآخرين ، وإنمـــا ندرسها مع أسفنا الشديد للتفرق الحاصل بين المسلمين ، والذي نرجو مـــن وراء هذه الدراسة أن نحقق أهدافاً طيبة في خدمة الإسلامي ، وفي كسر حدة الخلافات التي مزقت المسلمين وفرقتهم إلى فرق وأحزاب .

والـــتي تهـــدف كذلك إلى جمع كلمتهم ، ولفت أنظارهم إلى مواقع الخـــلاف فـــيما بينهم ؛ ليبعدوا عما وقع فيه من سبق من هذه الأمة ، فإن الـــرجوع إلى الحق أولى من التمادي في الباطل ، فهي نوع من أنواع العلاج

---

(١) مقالات الإسلاميين جـــ١ ص: ٣٤ تحقيق/محمد محيي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية .

(٢) انظر : الفرق الإسلامية بين الاعتدال والانحراف أ.د. محمد العزيري صـــ ٧ : ١٦ ط١ ١٤٢٥هـــ - ٢٠٠٤م .

لتلك المآسي الحالة بالمسلمين ، وسبب من الأسباب التي تبذل لينفع الله بها إن شاء ؛ لأن معرفة الدواء النافع يتوقف على معرفة الداء .

ولا يحتاج المسلمون لجمع كلمتهم ، وإعادة مجدهم وعزهم وانتصارهم على جحافل الكفر والطيغان إلا إلى العودة الصادقة والنية الخالصة ، فإن الأسس التي قام عليها عز الإسلام والمسلمين فيما سبق لا تزال كما هي قائمة قوية جديدة على مر الأيام والليالي – كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها [1].

وتلك الأهداف التي نتطلع إلى تحقيقها كثيرة نذكر أهمها فيما يأتي :

أولاً : تذكير المسلمين بما كان عليه أسلافهم من العزة والكرامة والمنعة حينما كانوا يداً واحدة ، وقلباً واحداً .

ثانياً : لفت أنظارهم إلى الحال الذي يعيشونه ، ومدى ما لحقهم من الخسارة بسبب تفرقهم .

ثالثاً : توجيه الأمة الإسلامية إلى الوحدة فيما بينهم ، وذلك بالتركيز على ذم التفرق وبيان مساوئه ، وبيان محاسن اتحاد المسلمين ، وجمعهم على طريق واحد .

رابعاً : تبصير المسلمين بأسباب الخلافات التي مزقتهم فيما سبق من الزمان ليجتنبوها بعد أن يتدارسوها فيما بينهم بعزم قوي وصدق نية .

(١) فرق معاصرة د. غالب بن علي عواجي . جـ١ صـ ٣٣ . دار لينه للنشر والتوزيع . ط٣ ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

خامساً : معرفة ما يطرأ على العقيدة الإسلامية الصحيحة من أفكار وآراء هدامة مخالفة لحقيقة الإسلام بعيدة عن طريقه الواضح .

سادساً : رصد تلك الحركات والأفكار التي يقوم بها أولئك الخارجون عن الخط السوي والصراط المستقيم ؛ لتعرية دورهم الخطر في تفريق وحدة الأمة الإسلامية بتعريف الناس بأمرهم ، وجلاء حقيقتهم للتحذير منهم ، وبيان ما يقومون به من خدمة تلك الأفكار وترويجها ، ذلك أنه ما من بلاء فيما سبق من الزمان إلا وهو موجود اليوم في وضوح تام ؛ فلكل قوم وارث [(١)] .

سابعاً : حتى تبقي الفرق الناجية علماً يهتدي به بعيدة عن تلك الشوائب الطارئة على العقيدة .

ثامناً : وصل حاضر هذه الأمة بماضيها ، وبيان منشأ جذور الخلافات بينهم والتي أدت إلى تفرقهم فيما مضى من الزمان للتحذير منها ، وللرد على أولئك الذين يحاولون دعوة المسلمين إلى قطع صلتهم بماضيهم ، والبناء من جديد كما يزعمون .

تاسعاً : ثم إن دراستنا للفرق وإن كان يبدو عليها أنها بمثابة جمع لتراث الماضين – فإنه يراد من وراء ذلك دعوة علماء المسلمين إلى القيام بدراسته وفحصه واستخراج الحق من ذلك واستبعاد كل ما من شأنه أن يخرج بالمسلمين عن عقيدتهم الصحيحة أو يفرق كلمتهم .

---

(١) المصدر السابق جـ١ صـ ٣٣- ٣٤ .

عاشراً : وهذا فيما أري هو أنجح الطرق وأقربها إلى إشعار المخالفين بالإنصاف وطلب الحق للاستدلال على خلافهم وخروجهم عن الصواب من كتبهم ومن كلام علمائهم لقطع كل حجة مخالفة بعد ذلك [١].

رابعًا : أهمية دراسة الفرق ورد شبهة من يريد عدم دراستها

تبينا فيما مضى بعض الأهداف التي ندرس الفرق من أجلها ، ونجيب هـــنا عن شبهة لكثير من الناس – ربما – يرددها بعضهم منخدعاً بحسن نية ، والبعض الآخر يرددها بنية سيئة .

وهي : لماذا نشغل أنفسنا بدراسة فرق انتهت ، لم يعد لها ذكر على الألسنة .. وقد رد العلماء عليها قديماً وحديثاً وانتهي الأمر ؟

والجـــواب : إن هذا التساؤل قد انطوى على مغالطات خفية ونية سيئة ، أو جهل شنيع ، وذلك لأسباب تالية :

أولاً : إن هـــذه الفــــرق وإن كانت قديمة فليست العبرة بأشخاص مؤسسي تلك الفرق ولا بزمنهم ؛ ولكن العبرة بوجود أفكار تلك الفرق في وقتنا الحاضر .

فإنـــنا إذا نظـــرنا إلى فرقة من تلك الفرق الماضية نجد أن لها امتداداً يسرى في الأمة سريان الوباء [٢].

---

(١) المصدر السابق صـــ ٣٤- ٣٥ .
(٢) نفس المصدر صـــ ٣٦ .

ثانـــياً : مما هو معلوم أن كل الأفكار والآراء التي سبقت لها أتباع يـــنادون بتطبـــيقها فالنزعـــة الخارجية (الخوارج) وتنطع أهلها في الدين ، واســـتحلال دمـــاء المسلمين لأقل شبهة ، وتكفيرهم الشخص بأدنى ذنب – قائمـــة الآن في كـــثير من المجتمعات الإسلامية على أشدها ، موهمين الشباب ومن قلت معرفته بالدين أن الدين هو هذا المسلك فقط .

كـــذلك نـــرى أدعـــياء الصوفية وقد اقتطعت من المسلمين أعداداً كـــثيرة ، مثقفين وغير مثقفين ، جرفهم تيار التصوف الخرافي فراحوا ينادون بالجهـــل والخرافات ، واتباع المنامات ، وتحضير الأرواح ، ومعرفة المغيبات ، وتعظـــيم الأشخاص والغلو فيهم ، وعلى هذا ، فدراستنا هذه وإن كانت في ظاهـــرها دراسة للماضي ، ومراجعة لتاريخ لفرق المبتدعة الذين جنوا على ماضي المسلمين ، إلا أنها دراسة حاضرة كذلك من حيث إنها تكشف جذور البلاء الذي شتت قوي المسلمين وفرقهم شيعاً ، وجعل بأسهم بينهم شديداً ، بـــل هي نور يضئ لشبابنا طريقه وسط هذا الظلام الفكري المفتعل ، الذي لا يخـــدم إلا أعداء الإسلام وشانئيه بتوجيه الأنظار إلى تلك الفرق التي تعمل في الظلام لنشر أفكارها ، وفرض مخططاتها المعادية للإسلام [1].

ثالثاً : إن دراسة الفرق والدعوة إلى الاجتماع واتحاد كلمة المسلمين فيه تكثير لعدد الفرقة الناجية بانضمام أولئك الخارجين عن الحق ووقوفهم إلى جانـــب إخوانهم أهل الفرقة الناجية ؛ فيكثر عددهم فيصح فيهم ما أخبر به

---

(١) المصدر السابق صـــ ٣٧– ٣٨ .

الرســول (ﷺ) من قيام فرقة من المسلمين : ((ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمر الله)) وتركنا لدراسة الفرق يفوت علينا هذا الخير العظيم .

رابعــاً : أضــف إلى ذلك أن ترك الناس دون دعوة إلى التمسك بالــدين الصــحيح ، ودون بيان أضرار الفرق المخالفة ، فيه إبطال لما فرضه الشرع من القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن الفرق التي ظهــرت ، ما من فرقة منها إلا وقد قامت مبادئها على كثير من المنكرات ، وهــي تّدعى أنها هي المحقة وما عداها على الضلال ، فألبسوا الحق بالباطل ، وأظهروا مروقهم وخروجهم وفجورهم عن المنهج الكتاب والسنة في أثواب براقة لترويج بدعهم ، والدعوة لها .

خامساً : إن عدم دراسة الفرق والرد عليها وإبطال الأفكار المخالفة للحــق ، فيه إفساح المجال للفرق المبتدعة أن تفعل ما تريد ، وأن تدعوا إلى كل ما تريد من بدع وخرافات دون أن تجد من يتصدى لها بالدراسة والنقد كمــا هو الواقع ؛ فإن كثير من طلاب العلم – فضلاً عن عوام المسلمين – يجهلــون أفكــار فرق يموج بها العالم ، وهي تعمل ليلاً ونهاراً لنشر باطلهم ، ولعل هذه الغفلة من المسلمين عن التوجه لكشف هذه الفرق المارقة لعله من تخطــيط أولئك المارقين الذين نجحوا في حجب الأنظار عنهم وعن مخططاتهم الإجرامية [1].

---

(١) فرق معاصرة جـ١ صـ ٣٨- ٣٩ .

ولا أدل على ذلك من أنك تجد بعض الأفكار وبعض العبارات يرددها كثير من المسلمين دون أن يعرفوا أن مصدرها إما من المعتزلة ، أو من الصوفية ، أو البهائية أو القاديانية ، أو الخوارج ،أو الشيعة، إلى غير ذلك .

ومن المعلوم أن ذلك إنما يعود إلى الجهل بأفكار هذه الطوائف [1] .

(١) المصدر السابق جـ١ صـ ٣٩- ٤٠ .

المبحث الثاني

حال العقيدة في عهد النبي (ﷺ) والخلفاء الراشدين

أولاً : العقائد الدينية في عهد النبي (ﷺ)

في البداية نود أن نشير إلى أنه كان من رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسانية أنه لم يكلهم إلى عقولهم في شئون العقيدة ، حتى لا يختلفوا وتتفرق بهم السبل ، بل بعث إليهم الأنبياء والرسل ، وأوحى إليهم الدين الحق ، الذي هو عبارة عن الأصول – العقائد – التي لا تتبدل ولا تتغير ، بل هي ثابتة حتى مع اختلاف الرسل ، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ...﴾ (1) ، ويقول :﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (2) ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ

---

(1) سورة الشورى الآية (١٣) .

(2) سورة الأنبياء الآية (٢٥) .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ... ﴾ (١) ، وهذه الآيات – وغيرها – توضح بجلاء أن المسائل العقائدية التي أوحى الله تعالى بها إلى جميع أنبياءه ورسله واحدة لا تتغير ولا تتبدل ، بل هي هدى أبداً ، أما المسائل الشرعية العملية فهي مختلفة ومتغيرة ومتبدلة من رسول إلى رسول ، ومن نبي إلى نبي ، حسب الظروف والأحداث وما تحتاجه كل أمة ، فهي هدى ما لم تنسخ بغيرها .

هذا ، وقد بعث الله تعالى محمداً عليه السلام بعقيدة وشريعة ، أما العقيدة فقد استوفاها الله تعالى في كتابه الكريم ووحيه إلى الرسول الأمين ، ولم يكل الناس إلى عقولهم في شيء منها ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ، ثم ترك للناس النظر الاجتهادي في تفصيلها ، وكان رسول الله (ﷺ) يدعو إلى الوحدة التي جاء بها الإسلام ، وينهى عن التفرق والاختلاف (٢) ، وصدق الله العظيم إذا يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) ، وكان على القرآن أن يجادل مخالفيه من أرباب الأديان والملل في العرب ، رداً للشبهات التي كانوا يثيرونها حول الإسلام ، ولكنه كان لا يمد في حبل الجدل حرصاً على الألفة ، ومن هنا كانت دعوته دائماً هي المجادلة بالتي هي

---

(١) سورة النحل الآية (٣٦) .
(٢) انظر:الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية .د/ محمد السيد نعيم،د/عوض الله حجازي صـ٣٤٦ .
(٣) سورة الأنعام من الآية (١٥٩) .

أحسن ، والنهى عن الجدال والمراء بغير حق ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[١] ، ولا يفهم من دعوة القرآن الكريم إلى الجدل برفق عند الحاجة ، أنه كتاب جدلي ، فإن هذا الفهم سقيم ، إذ القرآن ليس كتاباً جدلياً ، ولم تقم دعوته إلى الإيمان على جدال [٢] ، ولكنه – كما يقول الإمام محمد عبده – أقام الدعوى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها ، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ، ولم تكن دعوة الدين الإسلامي إلى الفكر في المخلوقات محدودة بحد ، ولا مشروطة بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على وصفه بلا غلو في التجريد – الذي هو مذهب المعطلة منكري الصفات – ولا دنو من التحديد – الذي هو مذهب المشبهة [٣] .

وعلى كل حال ، فإنه كان لتوجيهات القرآن الكريم وتعاليمه أثرها في نفوس المسلمين ، إذ وجهتهم إلى الاتحاد والألفة ، وكرهت إليهم الجدال

---

(١) سورة النحل من الآية (١٢٥) .

(٢) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية – د/ مصطفى عبد الرازق صـ ٢٧٠ : ٢٧٢ .

(٣) انظر : رسالة التوحيد – للإمام محمد عبده صـ ٩ ، ١٠ .

في أصول الدين حتى لا تتفرق كلمتهم ، ويذهب ريحهم ، وعلى ذلك مضى رسـول الله (ﷺ) والمسلمون على عقيدة واحدة لم يقع بينهم خلاف حولها ، لأنهـم أدركـوا زمـان الوحي ، وشرف صحبة النبي (ﷺ) ، وأزال نور الصـحبة عـنهم الشكوك والأوهام [1] ، حيث كان القرآن الكريم ، وكان الرسـول عليه السلام يلبيان حاجات الأمة ، اعتقاديه كانت أو تشريعية أو خلقـية ، وكانـت الأسئلة تترى موجهة إلى الرسول (ﷺ) فيجيب عنها الوحـي القـرآني تارة ، وتجيب عنها أحاديث الرسول تارة أخرى ، وأسئلة المجتمع إذ ذاك لم تكن تنته عند حد ، وكانوا يسألونه في كل صغيرة وكبيرة ، فقـد سـألوه عـن الله تعالى ، وعن الأزل ، وعن الإيمان والإسلام ، وعن القدر ، والروح ، والساعة ، والخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام ... ، إلى غـير ذلـك من الأسئلة التي كانت تجول في أذهانهم ، وبذلك كان رسول الله (ﷺ) هـو المرجع في إزالة الحيرة من نفس الحائر ، حيث كان المسلمون يسألونه مستفسرين ، والمخالفون لدينه يسألونه معارضين ومتعنتين ومجادلين ، وكـان الرسـول (ﷺ) يجـيب علـى حسـب ما يقتضيه المقام ، ولكن الرسـول (ﷺ) كان يكره المراء في الدين ، والجدل بين المسلمين ، وفي هذا المعـنى رويـت أحاديث كثيرة ، بعضها صحيح ، وبعضها حسن ، وبعضها ضـعيف ، ولكنها في جملتها تثبت هذا المعنى ، بحيث لا تدع للشك مجالاً في موقف الرسول بالنسبة للجدل بين المسلمين في مسائل الدين [2] .

---

(١) انظر : في الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية صـ ٣٤٧ .

(٢) انظر : التفكير الفلسفي في الإسلام د/ عبد الحليم محمود صـ ٦٩، ٨٧ .

ومـــن ذلـــك ما رواه أبو هريرة (ﷺ) قال : خرج علينا رسول الله ونحـــن نتنازع في القدر ، فغضب حتى أحمر وجهه ، ثم قال : " أبهذا أمرتم أم بهـــذا أرسلت إليكم ، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم أن لا تنازعوا " [١] .

ومنها ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله (ﷺ) علـــى أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضباً حـــتى وقف عليهم ، فقال : " يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبـــيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن لصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتهم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به " [٢] .

ومـــن هـــذه النصـــوص وغيرهـــا ، بالإضافة إلى ما ذكره الدكتور عـــبد الحلـــيم محمـــود مـــن قبل ، نستخلص أنه كانت هناك مجادلات بين الرســـول (ﷺ) وبـــين من لم يتبعه سواء أكانوا مشركين أم أهل كتاب ، وكانـــت هـــذه المجادلات تدور في صميم الأمور الخاصة بالعقيدة ، كما أن التساؤل والجدل كان يلح على بعض المسلمين في عصر الرسالة ، وكان يبذر بـــذوره في البيئة الإسلامية منذ فجرها الأول ، إلا أن دواعي الجدل لم تكن متوفرة لديهم في فترة حياقم مع الرسول (ﷺ) ، إذ كانوا في مرحلة النقاء والصفاء ومصدر الوحي قائم بين ظهرانيهم يرجعون إليه متى يشاءون ، فإذا لجـــئوا إلى التنازع والجدل لغير حاجة كان ينهاهم الرسول (ﷺ) ، لذا فإنه لم

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه – كتاب القدر – باب ما جاء في التشدد في الخوض في القدر – جـــ ٣ / صـــ ٣٠٠ رقم ٢٢١٦/١ .

(٢) ذكره ابن عدى في الكامل ١٣٨٠/٤ .

يكـن ليعرض عن الأسئلة التي كانت توجه إليه ، بل كان يجيب عليها إذا لم تظهـر عليها سمة الجدل والمراء والعناد ، وهذا يعني أن الرسول (ﷺ) لم يكن يمنع البحث في الأمور العقائدية مطلقاً ، وإنما كان يمنعها إذا جدت في صورة الجـدال والمـراء ، وفي هذا – كما يقول ابن القيم – رد على من زعم أن الصـحابة لم يكونوا يخوضون في دقائق المسائل ، ولم يكونوا يفهمون حقائق الإيمـان ، بـل كانوا مشغولين بالعمليات ، وفيه – أيضاً – دليل على أنهم كانـوا يـوردون علـى رسـول الله (ﷺ) مـا يشكل عليهم من الأسئلة والشـبهات ، فيجيـبهم عـنها بما يثلج صدورهم ، وقد أورد عليه الصلاة والسـلام الأسئلة أعداءه وأصحابه ، أما أعداءه فكانوا يوردونها على سبيل التعـنت والمغالـبة ، وأمـا أصحابه فكانوا يوردونها للفهم والبيان وزيادة الإيمـان ، وهو (ﷺ) يجيب كلاً عن سؤاله ، إلا ما لا جواب عنه ، كسؤال عن وقت الساعة [1] .

ولا شك في أن نهي النبي (ﷺ) عن الجدال والمراء في الدين لم يكن يقصـد بـه التحكم والمحاجزة عن أمر يمكن أن يدرك الحق فيه ، وإنما كان يقصد به المحافظة على العقل ، والخوف عليه أن يقع في الهلاك ، إذ أنه يبحث في أمـور هي أعلى من طوره ، ومهما سما فلن يستطيع بحكم طبيعته المحدودة أن يصـل إلى اليقين في مثل هذه المسائل ، وقد فهم المسلمون الأوائل ذلك جـيداً ، ورأوا أن التناظـر والـتجادل في الاعتقاد يؤدي إلى الانسلاخ من الـدين ، فقـرروا عقائد الدين كما هي في القرآن والسنة المقطوع بهما في

---

(١) انظر : زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم جـ ٣ / صـ ٥٧ مطبعة الحلبي – بدون ذكر رقم الطبعة وتاريخها .

الجملـــة والتفصـــيل ، وفي هذا يقول الدكتور محمد السيد نعيم ، والدكتور عـــوض الله حجازي : (فهم الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – ما جاء في القـــرآن الكـــريم عـــن الله تعالى فهماً ثلجت به نفوسهم ، واطمأنت إليه أفـــئدهم ، لذا فقد سكتوا عن الكلام في الصفات ، ولم يفرق أحداً منهم بين كـــونها صـــفة ذات أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا لله تعالى الصفات التي جاء بها القرآن الكريم من العلم والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والجلال والإكرام ... ، إلى غير ذلك من صفات الكمال ، وكذا أثبـــتوا ما أطلقه الله تعالى على نفسه الكريم من الوجه واليدين والجنب ونحو ذلـــك مـــع نفي مماثلة المخلوقين ، فأثبتوا ذلك بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطـــيل ، ولم يتعـــرض أحـــد منهم إلى تأويل شيء ، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت)[1].

وهذا النص يفيد أنه لم يكن بين الصحابة على عهد رسول الله (ﷺ) خـــلاف ظاهـــر يتصـــل بأمـــور العقـــيدة ، وأمـــا ما روي عنهم في مدة مرضه[2] (عليه السلام) ، فهو خلاف في أمور اجتهادية ، كان الغرض منها – كما

---

(١) في الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية صـ ٣٤٧ .

(٢) حصر العلماء هذه الخلافات في أمرين : الأول : هو ما رواه البخاري عن ابن عباس قال : لما اشتد بالنبي (ﷺ) مرضه الذي مات فيه ، قال : " ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي " فقال عمر : إن رسول الله قد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله ، وكثر اللغط ، فقال رسول الله : " قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع " ، والثاني هو الخلاف في تجهيز جيش أسامة / حيث قال (عليه السلام) : " لعن الله من تخلف عنه " ، فقال قوم يجب علينا امتثال أمره ، وقال قوم : قد اشتد مرض النبي (ﷺ) فلا تسع قلوبنا مفارقته والحالة هذه ، فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره .

يقول الشهر ستاني – إقامة مراسم الشرع في حال تزلزل القلوب ، وتسكين ثائرة الفتنة المؤثرة عند تقلب الأمور [١] .

وهكذا كان المسلمون على عهد رسول الله (ﷺ) في غني عن تدوين الأحكام وترتيبها ، وتكثير المسائل وتبويبها أصولاً وفصولاً ، لصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبي (ﷺ) وسماع الأخبار منه ، وقلة الوقائع والخلافات ، وسهولة مراجعته فيما يجد من أحداث ، حيث كانوا يجدون الحلول لكل أسئلتهم وشبهاتهم ومشاكلهم ، فكانت تطمئن نفوسهم ، وتسكن حيرتهم ، لأنهم وجدوا ما يروي ظمأهم ، ومن كان هذا شأنه ، فهو ليس في حاجة – بحق – إلى الجدال العقلي حول مسائل العقيدة ، كما أنه ليس في حاجة إلى تدوينها ، ومهما يكن من أمر ، فإن الذي ظهر لنا ولا يختلف عليه اثنان هو أن البيئة الإسلامية على عهد رسول الله (ﷺ) كانت تحتوى على بذور التفكير في مسائل العقيدة ، وأن الممتنعين عن هذا النوع من التفكير ، إنما كان امتناعهم راجعاً إلى رهبة الموقف الذي يجدون أنفسهم فيه ، لذا كان من الخطأ الفادح القول بأن بوادر التفكير العقدي لم تظهر إلا في العصور التالية لعصر الرسول (ﷺ) ، والله تعالى أعلم .

ثانياً : العقائد الدينية في عهد الخلفاء الراشدين

يذكر كثير من مؤرخي الفرق والباحثين أن أمر العقائد في عهد الخلفاء الراشدين كان على ما كان عليه في عهد الرسول (ﷺ) ، وفي هذا

---

(١) انظر : الملل والنحل للشهر ستاني جـ ١/ صـ ٢٣ .

يقول البغدادي : (كان المسلمون عند وفاة رسول الله (ﷺ) على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه ، غير من أظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً) [١] .

ويوضح الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ذلك ، فيقول : (أعلم أن أصحاب الرسول (عليه السلام) كانوا كلهم أجمعون عند وفاة النبي (ﷺ) وبعدها على عقيدة واحدة ، وطريق واحد ، ولم يكن أحدهم ليختلف مع آخر إلا في فهم أوتيه في كتاب الله أو سنة رسوله ، يعرضه على أخيه ، فإن لم يكن عنده ما يدفعه من سنة أفهم في كتاب أو سنة رجع إلى قول أخيه وتقبله أحسن القبول ، إلا قوماً كانوا يبطنون النفاق ويظهرون الوفاق ، كان منهم المعروف في عصر النبي (عليه السلام)[٢] .

وهاهو الدكتور عبد الحليم محمود يؤيد ذلك ، وهو يتحدث عن التفكير في مسائل العقيدة على عهد الصحابة ، حيث يقول : كان الوحي ينزل على الرسول (ﷺ) تباعاً مبيناً أمر الدين ، ولكنه سكت عن بعض المسائل ، فلم يبينها ، وهذه المسائل التي سكت عنها تنقسم إلى قسمين :

أ- ما يتصل منها بذات الله تعالى وكنهه .

ب- بعض المسائل الجزئية التي تتصل بالفروع ، حيث بين القرآن الأصول العامة للتشريع ، وبين كثيراً من الجزئيات ، وسكت عن الباقي تاركاً أمرها إلى اجتهاد الفقهاء .

---

(١) الفرق بين الفرق صـ ٣٢ .
(٢) مقالات الإسلاميين جـ١ صـ ٣٤ .

ونعود إلى بيت القصيد وهو القسم الأول ، حيث نجد الدكتور عبد الحليم محمود يقول : هذا القسم الذي يتصل بذات الله تعالى وكنهه ، وحقيقة صفاته ، ومدى ارتباطها بذاته ، وأسراره في القدر ، وغير ذلك من المسائل المشتبهة التي لا مجال للعقل الإنساني فيها ، غربياً كان أو شرقياً ، قديماً كان أو حديثاً ، كان الاتجاه العام في القرآن الكريم ، وفي تصرفات الرسول (ﷺ) النفور من البحث فيها ، ثم كان الخلفاء الراشدون من بعده ينفرون مما نفر منه (ﷺ) ثم يستشهد لذلك بما حدث في عهد عمر بن الخطاب (ﷺ) من أن رجلاً يسمى صبيغ بن عسل كان يسأل عن المتشابه ، فطلبه عمر وأخذ يضربه بعراجين النخل حتى دمي رأسه ، فقال الرجل : حسبك يا أمير المؤمنين ، قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي ، يريد بذلك أنه قد تاب ، وأن نزعاته قد ذهبت بها عراجين النخل ، ولكن " الفاروق " لم يكتف بما فعله ، بل نفاه إلى البصرة ، حتى استيقن من صلاح حاله [1] .

ومن الخطأ السبين أن يظن ظان أنه لم يحدث مطلقاً اختلاف بين الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – فقد اختلفوا في كثير من مسائل الفقه ، وفي هذا يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : (وقد حدث في عهد الخلفاء الراشدين خلاف في أمور اجتهادية ، إن تكن متصلة بالأحكام العملية ، فإن لها من الخطر ما جعلها أساساً لاختلافات مستمرة بين

---

(١) انظر : التفكير الفلسفي في الإسلام – د/ عبد الحليم محمود صـ ١٠٨، ١٠٩ .

المسـلمين ، ورفع من شأنها حتى وصلها بأمور العقائد ، وعلى قواعدها قام كثير من الفرق الإسلامية) [١] .

ويقـول الأستاذ / محمد محيى الدين عبد الحميد : وأنت إذا نظرت فيما اختلفوا فيه وجدتهم قد اختلفوا في أمور اجتهادية لا يوجب الخلاف في أحـدها إيمانـاً ولا كفـراً ، بـل لا يوجب الخلاف فيها كلها مجتمعة إيماناً ولا كفراً ، ووجدت أنه قد كان غرض كل من المختلفين في كل مسألة منها إقامـة مراسـم الدين وإدامة مناهج الشرع القويم ، ثم جاء من بعدهم قوم استغلوا أحياناً اختلاف الصحابة في بعض المسائل ، واتخذوا من هذا الخلاف سبيلاً يسلكونه إلى تفريق كلمة هذه الأمة ، وراحوا يلتمسون لبعض وجهات النظر أدلة لم يقتنع بها الذين خالفوا هذا الاتجاه في العصر السابق [٢] .

وقـد أورد مؤرخـوا الفـرق اختلافات عدة وقعت في عهدهم ، نتـناولها فـيما يلـى بشيء من الإيجاز ، كما نتناول أثر بعضها على مسائل العقيدة :

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية صـ ٢٨٣ .
(٢) انظر : مقالات الإسلاميين جـ ١/ صـ ٣٤ هامش .

المبحث الثالث

الاختلافات الواقعة في حال مرضه (ﷺ) وبعد وفاته بين الصحابة

الخلاف الأول أثناء مرضه (ﷺ) :

روي الإمـــام البخاري بإسناده عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) أنه قال : " لمــا اشــتد بالــنبي (ﷺ) مرضـــه الذي مات فيه ، قال : " ائتوني بدواة وقــرطاس ، اكــتب لكــم كتابا لا تضلوا بعدى " فاختلف من حوله : هل يجيــئون بقرطاس ليملي عليهم الرسول (ﷺ) أم يكتفون بما علموه من كتاب الله وســنة رســوله ؟ فقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : " إن رسول الله (ﷺ) : قــد غلــبه الوجــع ، حسبنا كتاب الله ، وكثر اللُغط في ذلك ، حتى قال الــنبي (ﷺ) : " قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع " قال ابن عباس – راوي الحديث – :الرزية كل الرزية ، ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله (ﷺ)[1] .

الخلاف الثاني :

كــان النبي (ﷺ) قبيل مرضه الذي عقبه انتقاله للرفيق الأعلى – قد جهـــز جيشا وجعل على رأسه " أسامه بن زيد " ، ولما أخذه المرض ، توقف الجيش عن المسير ، وقال النبي في آخر حياته " جهزوا جيش أسامة ، لعن الله مـــن تخلف عنه " ومع هذا اختلفوا : أيتمون بعث { أسامة } إيذانا للعرب ولغيرهم بأن وجع النبي (ﷺ) ووفاته لم تثن عزائم أصحابه عن إتمام ما شرع

---

(١) الملل والنحل ، ٢٢/١ . الحديث رواه البخاري بسنده في صحيحة عن عبد الله ابن عباس.

فـيه ، أم يبقون { أسامة } ومن معه يترقبون ما يكون من العرب ، فقد كان بعضهم يخشى انتفاض العرب ، اختلفوا في ذلك ، قبيل وفاة النبي وبعد وفاته (ﷺ) ، ولكـن أبا بكر (ﷺ) أصر على اتباع الأمر ، ثقة منه بأن البركة في اتباع أمره (ﷺ) وأن في بعثه إرهابا لمن تحدثه نفسه من العرب بالانتقاض [١].

وقـد علـق الشهر ستاني على هذين الخلافين بقوله : وإنما أوردت هـذين التنازعين ، لأن المخالفين ربما عدوا ذلك من الخلافات المؤثرة في أمر الدين ، وليس كذلك ، وإنما كان الغرض كله : إقامة مراسم الشرع في حال تزلزل القلوب ، وتسكين ثائرة الفتنة المؤثرة عند تقلب الأمور [٢].

الخلاف الثالث في موت النبي (ﷺ) :

لمـا أذيـع نـبأ وفاتـه (ﷺ) هال الخبر بعض أصحابه ، حتى غيب عقولهم ، وأذهلهم عن هذا المصير المحتوم ، الذي ينتظر البشرية قاطبة ، بما في ذلك الرسل والأنبياء ، فزعم قوم أنه لم يمت ، وإنما رفع إليه كما رفع عيسى بـن مـريم ، (عليه السلام) وقـال قـوم : إنـه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ابـن عمـران (عليه السلام) وليرجعـن رسول الله ، فليقطعن أيدي وأرجل رجال زعمـوا أنه قد مات . وقد قال الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو من هو في هذا الصدد : من قال إن رسول الله (ﷺ) قد مات ضربته بالسيف .

---

(١) مقالات الإسلاميين ، ٣٥/١ .

(٢) الملل ٢٣/١ .

حدث هذا عندما كان أبو بكر الصديق (ﷺ) بعيدا عن المدينة ، في زيارة أهله ، فلما حضر الصديق ، دخل على رسول الله (ﷺ) ، وهو مسجى فكشـف عن وجهه وقبله ، وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، طبت حيا وميـتا ، أمـا الموتة التي قد كتبها الله عليك فقد ذقتها ، وتلي قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ وقف أبو بكر ، يعلن أن النبي (ﷺ) قد لحق بـربه ، وأن شأنه في هذا الأمر شأن غيره من الناس وتلى على الذين هالتهم المصـيبة قـول الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [1]. ويسمع (عمـر) (ﷺ) المضطرب القوي الضعيف عن احتمال الفاجعة ، هذه الآية الكـريمة ، فيثوب إليه الرشد ويعلم أن وعد الله حق ، فيخضع لقضاء الله ، ويؤمن بأن الله تعالى قد اختار لرسوله ما عنده ، بعد أن أكمل به الدين الذي رضـيه لهـم ، ويقـول عمر : " والله لكأني لم أسمع هذه الآية من قبل "[2].

وحينئذ هدأت النفوس ، واطمأنت القلوب، واعترف جميع الصحابة بما ظهر مـن الحق ،من أن رسول الله (ﷺ)قد فارق الحياة ، وأنها سنة الله في خلقه ، " ولن تجد لسنة الله تبديلا " وبذلك زال الخلاف .

---

(١) سورة آل عمران آية (١٤٤) .

(٢) التبصير في الدين ، للاسفراييني صـ ١٩ ، ط : القاهرة : ١٩٥٥ . وقارن : الفرق بين الفرق ، للإمام عبد القاهرة البغدادي ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، صـ ١٤- ١٥ ، ط : دار التراث . وأيضاً : الملل والنحل ، صـ ٢٣ ومقالات الإسلاميين ، صـ ٣٥- ٣٦ .

الخلاف الرابع : في موضع دفنه ، (ﷺ) :

اختلف الصحابة في موضع دفنه (ﷺ) فأراد أهل مكة من المهاجرين رده إلى مكــة ، لأنها مسقط رأسه ، ومأنس نفسه ، وموطئ قدمه ، وموطن أهلــه ، وموقع رحله . وأراد أهل المدينة من الأنصار دفنه بالمدينة ، لأنها دار هجرته ، ومدار نصرته ، وأرادت جماعة ، نقله إلى بيت المقدس ، لأنها موضع دفن الأنبياء ،ومنه معراجه إلى السماء، وفيه قبر جده إبراهيم الخليل(عليه السلام) .

وهــنا يقــف أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) في هذه المسألة موقف الحكيم الـــرزين ، فـــيروي لهم أنه سمع النبي (ﷺ) يقرر : " أن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون "[1] ، فتجتمع كلمتهم على أن يدفن في حجرة السيدة (عائشة) الـــتي مـــات فـــيها بالمدينة المنورة ، وهي في داره (ﷺ) الملاصقة لمسجده ، والشارعة أبوابها فيه [2].

الخلاف الخامس : في الإمامة بعده (ﷺ) :

واعظـــم خلاف بين الأمة كما يقول الشهر ستاني ، خلاف الإمامة ، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان [3].ذلك أن النبي (ﷺ) لم يقرر نظاما معينا لمن يكون إماما أو خليفة من بعـــده ، فمنذ اللحظة الأولى من انتقال رسول الله (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى ،

---

(١) الحديث أخرجه ، الإمام الترمذي في سننه ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في قتلي أحد ٣٢٩/٣ ، ورواه الإمام مالك في مسنده ، باب جامع الصلاة على الجنائز رقم ٥٤٥ .

(٢) الملل ، صـــ ٢٣- ٢٤ . الفرق بين الفرق ، صـــ ١٥، مقالات الإسلاميين ، صـــ ٣٦ .

(٣) الملل والنحل ، ص ٢٤ . ومقالات الإسلاميين ، ص ٣٩.

اختلف المسلمون فيمن يخلفه [1]. وكانت هذه أول مسألة اشتد فيها الخلاف بـين المسلمين ، وتشعبت فيها وجهات نظرهم ، شعر المسلمون منذ اللحظة الأولى لوفاة النبي (ﷺ) بضرورة التفكير في من يلي أمرهم ، وأسرع الأنصار – قـبل دفن النبي – إلى سقيفة بني ساعدة ، للتشاور في الأمر والبت فيه ، وأدركهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح (ﷺ) من المهاجرين .

وفي السـقيفة انقسـم المجـتمعون إلى فريقين ، فريق يرى – وهم الأنصـار – أن يكون الخليفة منهم ، لأنهم هم الذين نصروا رسول الله (ﷺ) عـندما هاجـر إليهم من مكة إلى المدينة ، وآمنوا به وعززوا دينه ، ومنعوه وصـحبه ممـن أرادوا بـه سوء ، وكانوا معه على عدوه ، حتى خضعت له الجزيـرة العـربية ، فهـم أولى الناس ، أن يخلفوه ، وعلى أساس هذا قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير ، واتفقوا على سعد بن عبادة الأنصاري .

وفـريق آخر وهم المهاجرون : يرون أن تكون الخلافة فيهم ، لأنهم قـوم الـنبي (ﷺ) وعشيرته ، وهم أول من آمن به وصبر معه على الأذى ، وهـم من قريش ، والعرب لا تدين إلا لهم ، ولا تعتز بعزة غير عزتهم ، فهم أولى الـناس بالخلافـة من غيرهم ، والواجب على الأنصار أن يجتمعوا على ذلك ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن

---

(١) انظر : قضية الإمامة نشأتها وتطورها بين الفرق الإسلامية ، د. محمد حسن مهدي صـ ١٧٤ ، ط : الصفا والمروة ١٩٩٩م .

دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ (١).

ولقد قال أبو بكر تعليقا على هذه الآية : فسمانا الله الصادقين وأمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (٢) ، فقد آمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم ، وعندئذ قال أبو بكر لعمر ابسط يدك نبايع لك ، قال عمر : أنت أفضل مني ، قال أبو بكر : أنت أقوى مني . قال عمر : إن قوتي لك مع فضلك ، لا ينبغي لأحد بعد رسول الله (ﷺ) أن يكون فوقك يا أبا بكر ، أنت صاحب الغار مع رسول الله ، ثاني اثنين ، وأمرك رسول الله (ﷺ) حين اشتكى فصليت بالناس ، فأنت أحق بهذا الأمر (٣).

قال عمر (رضي الله عنه) : فمددت يدي إلى أبي بكر فبايعته ، وانثال الجميع من الصحابة يبتدرونه بالبيعة ، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر ، وتكلم عمر بين يديه ، يقول للناس : إن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله (ﷺ) وثان اثنين إذ هما في الغار ، وأولى الناس بأمركم فبايعوه ، فبايع الناس ، وسكنت الفتنة ، إلا أن بيعة أبي بكر كانت فلتة ،

---

(١) سورة الحشر آية (٨) .
(٢) سورة التوبة آية (١١٩) .
(٣) عبقرية عمر ، للأستاذ محمود عباس العقاد ، صـ ٢٥ ، ط : الخانجي القاهرة .

وقي الله المسلمين شرها ، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه ، فأيما رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين ، فإنهما تعرة ، يجب أن يقتلاً ، وإنما سكتت الأنصار عن دعواهم لما رواه أبو بكر عن النبي (ﷺ) حيث قال : " الأئمة من قريش "[1].

وقد تمت هذه البيعة في سقيفة بني ساعدة ، وعندما ذهب أبو بكر إلى المسجد أقبل الناس عليه فأخذوا يبايعونه عن رغبة منهم ، غير جماعة من بني هاشم ،وأبي سفيان من بني أمية ،وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ﷺ) ، الذي كان مشغولا بتجهيز رسول الله (ﷺ) ودفنه ، ثم إن هذه البيعة وإن كانت قد تمت للصديق ، إلا أن ذلك لم يمنع من تكوين رأي ثالث يرى أن تكون الخلافة في بيت النبي (ﷺ) وأقرب الناس إليه عمه العباس بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، لكن العباس لم يكن من السابقين إلى الإسلام ، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين ، فأولى الناس من قرابة النبي (ﷺ) ابن عمه علي بن أبي طالب ، فهو أول الناس إسلاماً ، وزوج السيدة فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) وفضله وجهاده وعمله لا ينكر ، وحجة هذا الفريق أن أقرب الناس إلى النبي أولى أن يخلفوه ، وإذا كان المهاجرون

(١) هذا الحديث أخرجه البيهقي في سننه ، ١٢١/٣ ، والبخاري في صحيحة ، ١٠٥/٨ . ومسلم في صحيحة ٣/ حديث رقم ١ .

احـــتجوا على الأنصار ، بأهم قوم النبي (ﷺ) وعشيرته ، فأهل النبي وأقربهم إليه أولى [١] ، ولقد تطور هذا الرأي ، وأصبح يعتنقه الشيعة فيما بعد .

والـــذي يستفاد من اجتماع الصحابة في سقيفة بني ساعدة للتشاور فيمن يلي أمر المسلمين بعد رسول الله (ﷺ) أنه على أساسه قام نظام الخلافة " الذي بقي منذ ذلك الوقت في شكل أو آخر إلى القرن العشرين . كما أن أهـــم النظريات التي عرضت في اجتماع السقيفة ، نظرية الدفاع عن دعوى الأنصـــار في اســـتحقاقهم للخلافة ، على أساس أهم هم الذين دافعوا عن الإسلام ، وحموه بأنفسهم وأموالهم ، ولنا أن نقول : إن هذه هي أول نظرية ظهرت في تاريخ الفكر السياسي في الإسلام .

ونظـــرية ثانية ، انبرت لمقاومتها ، هي " الدفاع عن حق المهاجرين ، وإثـــبات أولويتهم في استحقاق الخلاف على غيرهم ، على اعتبار سبقهم في الإسلام ، وهم أولياء الرسول وعشيرته ، وقد جاء في ثنايا هذا الدفاع لأول مرة فكرة التنويه بفضل قريش : " الأئمة من قريش : وستكون أساساً لنظرية أحقية القرشيين بالخلافة ، أو انحصار هذا الحق فيهم .

وهناك نظرية أخرى هي التي دعا إليها " الحباب بن المنذر بن الجموح " وهـــي إمكـــان اقتســـام السيادة ، أو تعدد الإمرة ، أي بأن يكون هناك خليفتان ، وذلك حين قال : " منا أمير ومنكم أمير " .

---

(١) أضواء على أهم الفرق الإسلامية ، صـــ ٣٢– ٣٣ . والملل صـــ ٢٤– ٢٥ . والفرق بين الفرق ، صـــ ١٥ .

كمـــا أن المجتمعين ، على اختلاف وجهات نظرهم ، قد اقروا مبدأ خطــيرا هـــو : أن اختيار رئيس الجماعة أو الدولة ، إنما هو بالبيعة ، – أي بالانـــتخاب – ونـــبذوا جميعاً بسلوكهم الفعلي مبدأ الوراثة ، واستقر الرأي علـــى انتخاب " أبي بكر " (ﷺ) ليس متابعة للتقاليد المألوفة عند العرب منذ القدم ، من النظر إلى السن والنفوذ ، ولكن لما كان يتمتع به بين الصحابة من مكانة دينية عالية يقر بها الجميع ، ثم إلى صفاته العقلية والخلقية النادرة ، التي جعلـــت من شخصيته المثل الكامل للمسلم . ولو جرت الأمور وفق تقاليد العـــرب ، لآثـــروا انتخاب " ابن عبادة " زعيم الخزرج ، أو " أبا سفيان " " رأس شيوخ بني أمية ، أو " العباس " عميد الهاشمين ، وقد كان فيهم من هو أســـن من أبي بكر ، ولما عدل المنتخبون عن هذه الأسر القوية إلى فرع " تيم " البعيد الذي كان أقل نفوذا " [1].

الخلاف السادس : في قتال مانعي الزكاة : وقع هذا الخلاف بين الصـــحابة في قتال مانعي الزكاة حيث استحل جماعة من العرب منع الزكاة بعد موت رسول الله (ﷺ) فاختلف الصحابة في شأنهم : أيقاتلونهم كما كان الـــنبي يقاتـــل الكفار ؟ أم يتركونهم مخافة ألا يقووا على قتالهم فتضيع هيبة العـــرب إياهم فقال بعضهم لا نقاتلهم قتال الكفرة وكان على رأس القائلين بهـــذا الـــرأي الفاروق عمر بين الخطاب . وقال آخرون : بل نقاتلهم قتال

---

(١) انظر : قضية الإمامة نشأتها وتطورها بين الفرق الإسلامية د. محمد حسن مهدي صـــ١٧-٢٠ . وقارن : النظريات السياسية الإسلامية ، د/ محمد ضياء الدين الريس ، صـــ ٤٠ ، ٢٠٨ ، ط : القاهرة دار التراث ١٩٧٩م .

الكفــرة ، وكان أبو بكر الصديق ، على رأس القائلين بهذا الرأي ، حتى أنه قال :"والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله (ﷺ) لقاتلهم عليه" . ويشــتد عمــر (ﷺ)في خلاف أبي بكر ، ويستدل لما ذهب إليه من الرأي ، ويقــول لأبي بكر : كيف نقاتلهم قتال الكفرة ، وقد قال رسول الله (ﷺ) : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دمــاءهم : غلا بحقها وحسابهم على الله " [١]. وهنا يجد أبو بكر مساغا للرد على عمر ويقول له : إن الزكاة حق المال وفيها نقاتل بالحق ، ومضى بنفسه إلى قتالهم ، ووافقه جماعة الصحابة بأسرهم ، وعلى رأسهم سيدنا عمر (ﷺ) فقــد أثاب إلى رشده ، ورجع عن مراجعة أبي بكر ، وعرف أن الحق في قتال مانعي الزكاة ، وقد زال الخلاف [٢].

الخلاف السابع : في أمر فدك

وقــع هــذا الخلاف في شأن (فدك) ، وهي قرية تقع شمال المدينة كانــت ملكــاً لليهود ، ولما انهزم يهود خيبر ، خشي يهود هذه القرية على أنفســهم ، فسلموها للنبي (ﷺ) دون قتال ، فكانت في يده خالصة له مدة حياته ، ينفق منها على نفسه وعلى بعض المحتاجين من بني هاشم ، فلما انتقل النبي (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى ، طالبت السيدة فاطمة – رضي الله عنها بوارثة هذه القرية تارة ، وبتملكها تارة أخرى ، وقد استندت السيدة فاطمة إلى ما

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحة ، باب الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ٢٠٦/١ . والبخاري في كتاب استتابة المرتدين ، ١٩/٩– ٢٠ .

(٢) مقالات الإسلاميين ، صــ ٣٦، والملل والنحل ، ص ٢٥ . والفرق بين الفرق ، صــ ١٦ .

روي عـــن علي (ﷺ) في هذا الشأن ، أنه قال : إن النبي (ﷺ) كان قد جعل هذه القرية في حياته لفاطمة – رضي الله عنها – وولدها وقضي أبو بكر بأنها لا تورث ، واستدل على ذلك بتلك الرواية المشهورة عن النبي (ﷺ) : " نحن معاشـــر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة " [١].واستمر الوضع على ذلك ، حـــتى توفي الصديق (ﷺ) ، ثم بعد ذلك سلمها الفاروق عمر (ﷺ) للعباس وعلي بن أبي طالب (ﷺ) ، يليانها ولا يملكانها [٢]. وانتهي النزاع حول هذه القرية .

الخلاف الثامن :

في تنصيص أبي بكر على عمر بالخلافة وقت الوفاة ، فمن الناس من اعتـــرض على أبي بكر ، وقال : قد وليت علينا فظا غليظا ، وارتفع الخلاف بقـــول أبي بكر : " لو سألني ربي يوم القيامة لقلت :" و ليت عليهم خيرهم لهم " [٣].

وبعـــد هذا العرض لهذه الخلافات ، اتضح لنا أنها خلافات اجتهادية لا عقدية ، وأنها لا تعدو أن تكون مجرد رأي أو وجهات نظر تهدف إلى غاية واحـــدة ، هـــي الوصول إلى الحق ، فهم ناشدوه حتى يدركوه ، فمتى بلغوه تلاقت الآراء عند كلمة سواء .

---

(١) الحديث رواه البخاري ، كتاب فرض الخمس ، ٢٩٧/٦ ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، ١٣٦٧/٣ .
(٢) الملل ، ص٢٥ . الفرق بين الفرق ، صـــ ١٥– ١٦ .
(٣) الملل ، صـــ ٢٥ وأيضاً اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، للرازي ، صـــ ١٨، ط : الكليات الأزهرية ١٩٧٨م .

فقـــد اخـــتلفت الصحابة ، في هذه المسائل وأشباهها ، وانتقاد بعض المخـــالفين لـــبعض ، ولم يتذرع بهذا الاختلاف قوم من أرباب النحل الذين جـــاءوا بعـــد عصر الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – ولم يورث هذا الاخـــتلاف تفـــرقة بيـــنهم ، ولا جعلـــه بعضهم سبباً لتضليل بعض ، ولا لتفســـيقه ، ولم نجـــد أحداً من بعدهم جعل اختلاف قوم منهم في بعض هذه المســـائل ذريعة ، لأن يتولى فريقاً معيناً من المخالفين ، ولا وسيلة للتشنيع به علـــى فـــريق معين منهم ، فأما أن بعضهم لم يجعل الاختلاف في هذه المسائل سبباً في تضليل بعض ، ولا تفسيقه ، فلأنها مسائل لا تمس العقيدة من قريب أو بعـــيد ، وإنما هي مسائل فرعية ، ثم هي مما لم يرد فيها نص صريح عن الله – سبحانه وتعالى – أو عن رسول (ﷺ) أو جاءت في بعضها نصوص مختلفة ، بعضـــها يعـــارض بعضها في ظاهر الأمر فلم يكن بد لأحدهم من أن يجتهد بـــرأيه ، فيستنبط من نصوص الشريعة العامة حكم بعض المسائل ، أو يقيس شيئاً على شيء ، ولم يكن بد لأحدهم – إذا جاءته نصوص مختلفة – من أن يـــوازن بـــين هذه النصوص ، فيلغي بعضها ، أو يخصص كل نص بحالة تغاير حالة النص الآخر ، أو غير ذلك من وجوه التخريج [1].

أمـــا اختلافهم في الخلافة عن الرسول (ﷺ) فقد بقي بعد عصرهم ، وبقـــي مصدر اضطراب في الأمة الإسلامية ، ولم يخل عصر من عصور الدولة الإســـلامية ، بعـــد انقضاء عصر أبي بكر وعمر ، من قوم يتخذون من هذا

---

(١) انظر : الإباضية نشأتها وعقائدها . د . محمد حسن مهدي صـ ٢٨ ، ٢٩ المطبعة العربية الحديثة ط ١ ١٤٢١هـ – ١٩٩٩م .

الخـــلاف وسيلة للخروج على سلطان الدولة ، وصارت مسألة الإمامة ، مع أنهـــا في ذاتها من مسائل الفروع ، مسألة من مسائل العقيدة ، فتولى الشيخين أبي بكـــر وعمـــر – رضي الله عنهما – وحب السبطين " الحسن والحسين " ابـــني فاطمة الزهراء (ﷺ) ، واعتقاد جواز المسح على الخفين ، هذه الأمور الثلاثة مجتمعة شعار قوم من أهل النحل ، ويحترزون بحب السبطين عن عقيدة الغـــلاة من النواصب ، ويحترزون باعتقاد جواز المسح على الخفين عما يراه بعض الخوارج ، وهكذا [١].

ومهمـــا يكـــن من أمر ، فإنه بعد أن اجتمعت كلمة المؤمنين على " أبي بكـــر " (ﷺ) ، عاد المجتمع إلى استئناف حياته على النحو الذي كانت تســـير عليه في عهد الرسول (ﷺ) وعلى هذه الوتيرة استمرت حياتهم طوال عهـــد عمـــر ، ثم طوال النصف الأول من خلافة " عثمان " (ﷺ) . إلا أن الحال لم يدم على ذلك طويلاً فقد جد من الأحداث والفتن بعد ذلك ما جعل المسلمين يختلفون فيما بينهم [٢].

" فقـــد ظهر الخلاف حول الإمام مرة ثانية في آخر عهد " عثمان بن عفـــان " حيث وقعت منه عن اجتهاد وحسن نية تصرفات أنكرت عليه [٣].

---

(١) مقالات الإسلاميين صـــ ٣٧– ٣٨ .

(٢) انظر : الإباضية نشأتها وعقائدها . د . محمد حسن مهدي صـــ ٢٩.

(٣) الأحداث التي أخذت على عثمان كما يقول الشهر ستاني : رده الحكم بن أمية إلى المدينة ، بعد أن طرده رسول الله (ﷺ) وكان يسمى طريد رسول الله ، وبعد أن تشفع إلى أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – أيام خلافتهما ، فما أجاباه إلى ذلك ، ونفاه عمر من مقامه باليمن أربعين فرسخا . ومنها : نفيه أباذر إلى الربذة – من قرى المدينة – وتزويجه مروان ابن الحكم بنته ، وتسليمه خمس غنائم أفريقية له ، وقد بلغت مائتي ألف دينار ومنها إيواؤه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان رضيعه ، بعد أن أهدر النبي (ﷺ) دمه =

وتـبرم بها المسلمون ، ووجد أعداء الإسلام الفرصة سانحة لأحداث فتنة بين المسلمين ، فجدوا في تحريض الناس على " عثمان " ، وتولى كبر هذا العمل "عبد الله بن سبأ " الذي أشعل نيران الثورة على عثمان ، وكانت ثورة ظالمة ، انـتهت بهـذه الخاتمـة الأسـيفية ، ألا وهـي محاصـرة الشهيد في داره واغتـياله ، – دون حكـم شرعي – وهو يقرأ القرآن سنة ٣٥هـ " [1].

وبقـتله حـدثت الفتـنة التي صدعت وحده المسلمين ، وفرقت كلمتهم ، وجعلتهم فرقا وأحزاباً ، يكفر بعضهم بعضاً ، ولم يسلم من تكفيرهم أحد من كبار الصحابة ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم) .

ولقد أحدث مقتل " عثمان " (رضي الله عنه) شرا مستطيرا لم ينطفئ لهبه حتى الـيوم ، فقد بدأ الشقاق يدب في صفوف المسلمين ، فحمل كلاهما السيف لقتال أخيه في مأساة دامية ، بين مطالب بدم عثمان ، وبين ثائر عليه .

وفي هـذا المعتـرك بويـع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ليكون خليفة للمسـلمين ، وبعـد مبايعته تجدد الخلاف حول الإمامة مرة ثالثة ، ذلك أن الـناس كانوا عند مقتل " عثمان " (رضي الله عنه) متفرقين في الأمصار ، فلم يشهدوا

= وتوليته أياه مصر بأعمالها ، وتوليته عبد الله بن عامر البصرة ، حتى أحدث فيها ما أحدث إلى غير ذلك مما نقموا عليه ، وكان أمراء جنوده : معاوية بن أبي سفيان ، عامل الشام ؛ وسعد بن أبي وقاص ، عامل الكوفة ، وبعده الوليد بن عقبة ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، عامل البصر ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل مصر ، وكلهم خذلوه ورفضوه ، حتى أتي قدره عليه . وقتل مظلوما في داره انظر : الملل ، ص ٢٦ وأيضاً : تاريخ المذاهب الإسلامية صـ ٢٧- ٣١ . والإباضية نشأتها وعقائدها . د . محمد حسن مهدي هامش صـ ٣٠ .

(١) دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ، د/ محمد الأنور السنهوتي صـ ١٠ ، ط : القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٠م .

جميعاً بيعة " علي " بالمدينة والذين شهدوا بيعته ، منهم من بايعه بالإمامة ، ومنهم من توقف عن البيعة ، حتى يجتمع الناس ، ويتفقوا على إمام ، ومن هؤلاء كما يذكر " ابن خلدون " عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن سلام ، وأبو سعيد الخدري ، وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، وحسان بن ثابت ، ومسلمة بن مخلد ، وفضالة ابن عبيد ، وأمثالهم من أكابر الصحابة ، والذين كانوا في الأمصار عدلوا عن بيعة (علي) أيضاً إلى المطالبة بدم (عثمان) ، وظنوا بعلي هوادة في السكوت عن نصرة عثمان من قاتليه ، لا في الممالأة عليه ، فحاشا لله من ذلك ، ولقد كان " معاوية " إذا صرح بملامته لعلي ، إنما يوجهها إليه في سكوته فحسب ، وعدم اقتصاصه من قتله عثمان (ﷺ)[1].

ثم اختلفوا بعد ذلك ، فرأي " علي " أن بيعته قد انعقدت ، ولزمت من تأخر عنها ، باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة ، دار النبي (ﷺ) وموطن الصحابة ، وأرجأ الأمر في المطالبة بدم " عثمان " إلى اجتماع الناس ، واتفاق الكلمة ، فيتمكن حينئذ من ذلك . ورأي الآخرون أن بيعته لم تنعقد ، لتفرق " أهل الحل والعقد " ومن الصحابة في الأمصار ، ولم يحضر إلا قليل ، ولا تكون البيعة إلا باتفاق : أهل الحل والعقد " ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم ، أو من القليل منهم ، وأن المسلمين حينئذ فوضى ، فيطالبون أولا بدم " عثمان " ، ثم يجتمعون على إمام ، وذهب إلى هذا : معاوية بن أبي

---

(١) انظر : الإباضية نشأتها وعقائدها . د. محمد حسن مهدي صـ ٣١- ٣٢ .

سفيان وعمرو بن العاص ، وأم المؤمنين عائشة ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وابنه محمد وسعد وسعيد ، ومعاوية بن خديج ، ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة " على " بالمدينة ، إلا أن أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة على ، ولزومها للمسلمين أجمعين ، وتصويت رأيه فيما ذهب إليه ، وتعين الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه [١].

ولم تضع مبايعة الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ) – حدا للفتنة ، بل انقسمت الجماعة الإسلامية على إثرها إلى معسكرين كبيرين ، أحدهما : شايع (عليا) والثاني شايع (معاوية) – رضي الله عنهما – وهذه بداية ظهور الأحزاب داخل الجماعة ، حيث أطل الشيطان على المشاهد الدامية التي بدأت تأخذ مكانها ، لبث الفرقة في مجتمع كان قد التف حول راية رسول الله (ﷺ) وعلى الخلفاء من بعده ، لنشر الدين ، وإعلاء كلمة الحق ، وتوطيد دعائم الإسلام [٢].

حينئذ ظهر الاختلاف على أشده ، وكان كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : أول نزاع ظهر على الإمامة ، إذا اعتبر ما جري من قبل لم يكن نزاعا بالمعنى الحقيقي ، إلا ما جرى في اجتماع السقيفة وما اتصلوا حتى اتفقوا ، ومثل هذا لا يسمى نزاعا [٣].

---

(١) المقدمة ، لابن خلدون ، صـ ١٨٧– ١٨٨ ، ط : عبد السلام شقرون القاهرة .

(٢) انظر : الإباضية د. محمد حسن صـ ٣٢– ٣٣ .

(٣) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، لابن تيمية، ١/٢٦ط :القاهرة ١٩٣٠م .

وقـــد شق الخلاف طريقه ، تاركا آثاره العميقة زمنا طويلاً ، وفرق المســـلمين شـيعاً وأحـــزاباً ، وصبغ الخلافات بلون الدماء ، وانبعثت آراء ومعـــتقدات جديدة لم تكن معروفة من قبل ، حيث اصطبغ الدين بالسياسة ، كما تلونت المطالب السياسية ، واستندت في بعض المواقف على الدين .

وخـــرج معاويـــة بن أبي سفيان ، وطلحة بين عبيد الله ، والزبير ابن العـــوام ، علـــى (على) ووافقتهم السيدة عائشة – رضي الله عنهما جميعا – واضـــطر الإمام (على) إلى قتال طلحة والزبير ، حين خرجا إلى مكة ، وحملا معهمـــا الســـيدة عائشـــة إلى البصرة ، ونصبوا القتال معه ، وانتهي أمرهم بانهزامهم جميعا أمام الإمام على في وقعة " الجمل " [1].

والحق –كما يقول الشهر ستاني – أنهما رجعاً وتابا عن قتال (على) إذ ذكـــرهما أمـــرا فتذكراه فأما " الزبير " فقتله " ابن جرموز " بقوس وقت الانصـــراف ، وهـــو في النار ، لقول الرسول (ﷺ) : " بشر قاتل ابن صفية بالـــنار " [2]. وأمـــا " طلحـــة " فـــرماه " مروان بن الحكم " بسهم وقت الأعـــراض ، فخـــر ميتا ، وأما (عائشة) – رضي الله عنها – فكانت محمولة على ما فعلت ، ثم تابت بعد ذلك ورجعت [3].

---

(١) انظر : قضية الإمامة نشأتها وتطورها بين الفرق الإسلامية صـ ٢٤ * سميت بمعركة الجمل لأن عائشة كانت في هودج على جمل وعقر الجمل ذلك اليوم .

(٢) الحديث ذكره القرطبي في تفسيره ، ٣٢١/٦ ، ط : الشعب . وابن كثير في البداية والنهاية ، ١٥٠/٧ ، ط : دار الفكر .

(٣) الملل والنحل ، ٢٧/١ .

ولا شـــك في أن الظروف قد هيأت لهذا النزاع ، وأن من الطوائف مـــن ســـعت ســـعيا حثيثاً إلى وقوعه للنيل من المسلمين ، وإضعاف الدين الجديد ، الذي بدأ ينتشر وينمو على نطاق واسع ، ويقف على رأس الراغبين في اســـتمرار وقـــوع الفتـــنة حـــزب (السبئيين) [1] ومن مالأهم من قتلة عثمان (ﷺ) .

ولهذا فإن " القاضي بن العربي " يضع وزر نشوب هذه الحرب على عاتق قتلة عثمان ، استنادا على ما روي عن الحافظ ابن كثير والطبري ، من أن الفريقين كانا يرغبان في الصلح ، فبعث (على) عبد الله بن عباس ، وبعض

---

(١) تنسب هذه الفرقة إلى زعميها عبد الله بن وهب بن سبأ ، وهو يهودي من أهل صنعاء ، أسلم في عصر عثمان ، أو بالأحرى اصطنع الإسلام ليكيد للمسلمين فهو من اليهود الذين دخلوا الإسلام وهم ناقمون عليه ، فأعلنوا الإسلام ظاهرا ، واضمروا الكفر باطنا ، وقد لقب هذا الرجل بابن السوداء وقد اتخذ هذا الحاقد من التشيع لآل البيت منهجا لبث سمومه ، وأفكاره بين المسلمين ، وأخذ يتنقل في بلدان المسلمين يحاول اضلالهم ، وقد أحدث ابن سبأ في الإسلام أمورا كل منها له أثر بالغ في تفريق كلمة الأمة ، وتمزيق وحدتها ، ومن هذه الأمور : (١) كان هو أول من أحدث القول بوصية رسول الله (ﷺ) لعلي بن أبي طالب بالإمامة ، فعلي (ﷺ) وصي الرسول (ﷺ) وخليفته على أمته من بعده بالنص (٢) كان هو أول من أحدث القول برجعة علي (ﷺ) إلى الدنيا بعد موته ، وبرجعة رسول الله (ﷺ) أيضاً . (٣) كان هو أول من أحدث القول بأن عليا لم يقتل ، وأنه لا يزال حيا ، وأنه يسكن السحاب ، وأن الرعد صوته ، وأن البرق سوطه ، وأن فيه جزءا إليها ، وأنه لا بد أن يترل إلى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جورا . وأكثر هذه القضايا مأخوذ عن اليهودية التي كانت يتعارفها قومه يومئذ ، بل إنه كان يستدل لمن يخدعهم على صحة هذه القضايا ببعض ما عرف من أحوال موسى (ﷺ) مع شيء من التمويه والتحريف . وابن سبأ هذا هو الذي آثار فتنة أمير المؤمنين عثمان (ﷺ) ، وما زال يذكي لهبها ، ويجمع لها أو شاب الناس ، حتى قتل الخليفة المظلوم عثمان بن عفان . انظر : مقالات الإسلاميين ، ١/١١- ١٢ وأيضاً : تاريخ المذاهب الإسلامية ، صـــ ٣١ .

أصـــحاب الجمل ، بمحمد بن طلحة هادفين جميعاً الصلح ، ولكن قتلة عثمان لم يـــتفق وما بيتوه من فتن لكي يختفوا وسط هذه المعمعة ، فاجتمعوا في السر على انشاب الحرب ، فلما أنشبوها ظن كل فريق من الفريقين أن الآخر غدر به فنشب القتال بينهما (١).

وممـــا يـــبرهن أيضـــاً على أن طلحة والزبير والسيدة عائشة (ﷺ) لم ينهضـــوا في معارضـــة " على " بغرض الحرب منذ البداية أنهم لم يطعنوا في إمامة " على " أو جرحوها ، كما أنه لم يبايعوا شخصاً آخر غيره ، يؤيد هذا ما يقوله ابن حزم الظاهري : " لم يمضوا إلى البصرة لحرب " على " ولا خلافاً عليه ، ولا نقضا لبيعته ، ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته " (٢).

ومهمـــا يكـــن من أمر ، فقد انتهت موقعة " الجمل " ولم تسفر عن الانشـــقاق الذي حدث في أعقاب موقعة " صفين " ولم يكن لها شأن في ايجاد معـــتقدات جديدة ، أو تحزب ومواقف ذات منهج خاص ، ونظرة مختلفة ، وبذلك لم تترك موقعة " الجمل " إلا آثار بصماقا على الفرق الإسلامية ، التي تناولت أصحابها بالبحث والنظر ، فصوبت البعض ، وخطأت البعض الآخر . فقـــد صـــوب أهل السنة " عليا " في حروبه الثلاثة – أي الجمل وصفين والنهـــروان – واعتـــرفوا بإمامـــته أبان خلافته ، وأنه صاحب الحق فيها ، واعتقـــدوا بـــتوبة كـــل من " طلحة " و " الزبير " ، لأنهما رجعاً عن قتال (علـــى) ، ... وأن السيدة عائشة – رضي الله عنها – قصدت الإصلاح بين

(١) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي د/ مصطفى حلمي ،ص ١٣٢،ط : دار البيان مصر ١٩٧٧م .
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم الأندلسي ، ١٥٨/١، ط : القاهرة ١٩٠٢م .

المسريقين فغلبها " بنوضبة والأزد " على رأيها ، وقاتلوا (عليا) دون إذنها ، حتى كان من الأمر ما كان (١).

ولما حسم (علي) (ﷺ) النزاع مع أصحاب (الجمل) حمل (معاوية) قميص (عثمان) على منبر دمشق ، مطالبا بدمه ، وجند أهل الشام لقتاله ، واعتبرهم الإمام على خارجين بغاه ، خرجوا على حكم الإمام المبايع بيعة صحيحة ، فخرج لقتالهم ، فكانت معركة " صفين " عام ٣٧هـ ، وكانت أشبه بانفجار ذي دوي شديد (ويحق وصفها ، بأنها كانت حربا ضروسا أوشكت أن تفني المسلمين ، وتذهب بمجدهم وتمحو آثارهم ، ... ولو لا أن تداركتهم عناية الله بصلح حقن من دماء الفريقين ، وحفظ عليهم بقية من أبطالهم وأمجادهم ، لتغير وجه التاريخ الإسلامي (٢).وقد كان معاوية ممن رأي أن بيعة " على " لم تنعقد لا فتراق الصحابة " أهل الحل والعقد " بالآفاق ، وأنه يجب المطالبة بدم " عثمان " أولا ، ثم يجتمعون على إمام . وكانت حجة الإمام " على " أن البيعة قد تمت له حيث عقدها نفس القوم المبايعون أبا بكر وعمر وعثمان (ﷺ) قبله ، وتمت عن شوري المهاجرين والأنصار ، فلا معنى لخروج أحد عن هذه البيعة التي أجمع عليها هؤلاء وأولئك ، وإلا حق على الخارج عن الجماعة أن يقاتل ، أما عن قتلة (عثمان) فإنه طلب من (معاوية)

(١) الفرق بين الفرق ، صـ ٣٥٠ .

(٢) وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم ، مقدمه الكتاب للأستاذ عبد السلام محمد هارون ، محقق الكتاب ط القاهرة .

أن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ثم تأتي الخطوة التالية ، وهي القصاص من القتلة [(١)].

وبعــد أن يئس الإمام " على " من مبايعة " معاوية " اياه التقى به في موقعة " صفين " ، فلما أحس " معاوية " أن الدائرة كادت تدور عليه أو عز إلى جـنده بأن يرفعوا المصاحف على رؤوس الرماح ، ويطلبوا الاحتكام إلى كـتاب الله تعالى ، وأدرك " علي " بثاقب نظرته أن هذه مكيدة يراد بها درء الهـزيمة الوشيكة ، فنصح لقومه بمؤاصلة القتال لتحقيق النصر الذي بدت له بشائره ، لكنهم اختلفوا عليه ، وتعارضت آراؤهم ، فمن محبذ للتحكيم داع إلـيه ، ومـن سـاخط عليه راغب في القتال ، وتغلّب جانب الأولين حيث هـددوا بالخـروج على إمامهم إذا هو واصل القتال ، فاضطر " على " إلى التنازل عن رأيه وقبل التحكيم [(٢)].

وقـد ذكر الإمام الشوكاني " أن الذين تركوا قتال معاوية ، ودفعوا علـيا إلى قبول التحكيم كانوا جمعا كثيرا ، منهم عدد من القراء توقفوا عن القتال تأثما وتدينا ، واحتجوا لموقفهم بقول الله تعالى : " ألم تر إلى الذين أوتوا نصـيبا مـن الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون " [(٣)].

(١) الخوارج الأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم ، مصطفى حلمي ، صـ ٩- ١٠ ط : دار الأنصار القاهرة ١٩٧٧م .

(٢) قضية الإمامة نشأتها وتطورها ، صـ ٢٧- ٢٨ .

(٣) نيل الاوطار ، للإمام الشوكاني ٣٣٩/٧ ، ط : دار الفكر بيروت ١٤٠٢هـ والآية رقم ٢٣ من سورة آل عمران .

فالذين والوا " عليا " انقسموا إلى فريقين متميزين كبيرين بعد حادثة " التحكيم " فانقلب أحدهما مناوئا له ، وتحول إلى حزب معاد ، بالغ في الحملة عليه ومقاتلته ، كما بالغ من قبل في إخلاصه له وغيرته ، وهؤلاء هم الذين سيقال عنهم " الخوارج " وثبت الثاني على الولاء ، وضاعف إخلاصه لقائده ، ثم استمر هذا الولاء في التاريخ ، وورثه الجيل الراهن للأعقاب ، وأخذ يتطور تبعا لتجدد الحوادث ، وتتفرع عنه نظريات ، وهؤلاء هم الذين نسميهم جذر " الشيعة " أو أصلها (١).

وبعد مفاوضة بين الجانبين ، رضي أهل الشام " عمرو ابن العاص " نائباً عنهم ، ورضي أهل العراق " أبا موسى الأشعري " ممثلا لهم ، ثم كتب عقد التحكيم ، وأعلنت الهدنة ستة أشهر إلى أن يجتمع الحكمان ، ولكن هذا الإجراء لم يرفع الخلاف ، بل زاده عنفا وتمكنا من النفوس . وقد نشأ حزب " الخوارج " عقب إعلان نتيجة التحكيم بين أبي موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص ، إذ تعالت الهتافات من معسكر " على " : كفر الحكمين " لا حكم إلا الله " وانقلب المؤيدون اعداء ، وأصبحوا أكثر خطرا على " على " من جيش معاوية (٢).

وهذا أول حزب سياسي يتكون في تاريخ الإسلام ، وتبرز شخصيته على مسرح الحوادث ، ويوجد له نظام ، ويكون من خواص حياته

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية صـ ٦٠ .
(٢) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، صـ ١٥٤ .

الاستمرار ، ومن هذه اللحظة يمكن تتبع حياته في أدوار مختلفة ، وأطوار متعاقبة .

ولما تم ذلك نهض من ثبتوا مع " على " ، ووافقوه على خططه فقالوا : " في أعناقنا بيعة ثانية ، نحن أولياء من واليت ، وأعداء من عاديت ، وبذا تكون من الطرف الآخر حزب جديد واضح الشخصية ، هو حزب الشيعة [1].

وهكذا : تمخضت هذه الحوادث عن نشأة ثلاث فرق إسلامية هي : الخوارج ، وهم الذين خرجوا على الأمام " على " و " معاوية " وحكموا بكفرهما ، وزعموا أن التحكيم مخالف للدين . والشيعة : وهم الذين شايعوا عليا ، وقالوا بإمامته وخلافته ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده . والمرجئة : وهم من آثروا العزلة ، وارجئوا الحكم على المتنازعين إلى الله تعالى [2].

وهذه الفرق الأولى قد نشأت بسبب أحداث سياسية ، فكان ينبغي أن تظل أحزابا سياسية ، ولكن القوم تجاوزوا ذلك إلى البحث في أمور تتعلق بأصل الإيمان والاعتقاد ، وآثاروا مسائل دينية مهمة ، انتقلت إلى علم الكلام ، وأصبحت من صميم موضوعاته ، ولذا صارت هذه الفرق بعد

---

(١) النظريات السياسية ، صـ ٦٠ .

(٢) دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية صـ ١٤- ١٥ . وقارن : فجر الإسلام ، أ/ أحمد أمين ١/ ٣٠٠، ٣٠٢، ط : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٦م وأيضاً الأشعري ، د/ حمودة غرابة ، صـ ٢٥- ٢٦، ط : الخانجي القاهرة .

ذلك فرقا دينية كلامية ، بعد أن كانت سياسية . ثم ظهرت بعد ذلك ، ومن خلاف عقدي بحت ثلاث فرق دينية ، هي المعتزلة ، والجهمية وأهل السنة ، الأشاعرة والماتريدية .

وإذا كانـت مشـكلة " الإمامة " تعد أول مشكلة جوهرية اختلف المسـلمون بشـأنها وأدي الخـلاف حـولها إلى نشوء الفرق والأحزاب في الإسلام ، فليس ذلك أنها هي السبب الوحيد في تفرق الأمة بل يوجد بجانبها أسباب أخرى وسوف نعرض لها في الفصل الثاني على النحو التالي :

الفصل الثاني

الاختلاف دوافعه وتمحيص القول فيه

المبحث الأول : أسباب اختلاف المسلمين

يمكـــن القـــول أن المســـلمين قـــد اختلفوا إلى مذاهب في الاعتقاد والسياســـة والفقـــه ، وقيل أن نخوض في بيان أسباب الخلاف يجب أن نقرر أمرين :-

أولهما :- أن هذا الخلاف لم يتناول لب الدين : فلم يكن الاختلاف في وحدانية الله تعالى ، وشهادة أن محمدا رسول الله (ﷺ) ، ولا في أن القرآن نـــزل من عند الله العلي القدير وأنه معجزة النبي الكبرى ، ولا في أنه يروي بطـــريق متواتر نقلته الأجيال الإسلامية كلها جيلا بعد جيل ، ولا في أصول الفـــرائض كالصـــلوات الخمس والزكاة والحج والصوم ، ولا في طريق أداء هـــذه التكليفات ، وبعبارة عامة لم يكن الخلاف في ركن من أركان الإسلام ولا في أمـــر علـــم من الدين بالضرورة كتحريم الخمر والخنزير وأكل الميتة والقـــواعد العامـــة للمـــيراث ، وإنمـــا الاختلاف في أمور لا تمس لأركان ولا الأصول العامة.

والأمـــر الثاني :- أن هذا الاختلاف بلا ريب شر بالنسبة للاختلاف حـــول بعض العقائد وحول السياسة ولذلك روي البخاري عن زينب بنت جحـــش أنها قالت استيقظ النبي (ﷺ) محمداً وجهه يقول " لا إله إلا الله ويل

للعرب من شر قد اقترب " ويشير النبي (ﷺ) إلى ما يجري بين المسلمين من خلاف من بعده .

ويـــروي أن الـــنبي (ﷺ) قال " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فـــرقه ، وافتـــرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقه ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقه " .

وقـــد تكلـــم علمـــاء السنة في صحة هذا الحديث الذي روي بعده روايـــات مختلفة ، ولقد قال المقبلي في كتابه ، " العلم الشامخ " " وحديث افتـــراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقه رواياته كثيرة يشد بعضها بعضا بحيث لا تبقي ريبة في حاصل معناه ... " [1].

وإذا كـــان الافتراق حول العقائد في جملته شرا فإنه يجب أن نقرر أن الاخـــتلاف الفقهي في غير ما جاء به مسمى من الكتاب والسنة لم يكن شرا بـــل كان دراسة عميقة لمعاني الكتاب والسنة وما يستنبط منهما من أقيسه ، ولم يكن افتراقاً بل كان خلاف في النظر ، وكان يستعين كل فقيه بأحسن ما وصـــل إليه الفقيه الآخر ويوافقه أو يخالفه . وكان عمر ابن عبد العزيز يسره اختلاف الصحابة في الفروع .

ويقـــول " ما أحب أن أصحاب رسول الله (ﷺ) لا يختلفون لأنه لو كان قولا واحدا لكان للناس ضيق وأنهم أئمة يقتدي بهم فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة [2].

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ صـ ١١ .

(٢) الاعتصام للشاطبي جـ ٣صـ ١١ .

وهـــنا يسأل سائل : لماذا اختلاف المسلمون بعد النبي (ﷺ) وقد تركهم على الحجة الواضحة ليلها كنهارها ؟؟ وترك فيهم ما أن أخذوا به لن يضلوا أبدا فقد ترك فيهم كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)؟ ...

والجـــواب : عـــن ذلـــك أن أسباب الاختلاف كانت كثيرة ، والاختلاف قسمان : اختلاف لم يفرق الأمة ولم يجعل بأسها بينها ، واختلاف قد فرق الأمة وأذهب وحدها وهو الخلاف في السياسة وشئون الحكم [١].

ولنذكر بعض أسباب الخلاف بنوعيه :-

أولاً : العصبية العربية :

وهي من أسباب الخلاف بل هي جوهر الخلاف الذي فرق الأمة فإن الإســـلام قد حارب العصبية في نصوص القرآن الكريم والسنة الشريف من مـــثل قـــوله تعـــالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [٢].

وقـــول الـــنبي (ﷺ) : ليس منا من دعا إلى عصبية " وقوله " كلكم لآدم و آدم من تراب لا فضل لعربي ولا أعجمي ألا بالتقوى .

وقـــد اخـــتفت العصبية في عصر النبي (ﷺ) بهذه البينات الواضحة واستمر اختفاؤها إلى عصر الخليفة الشهيد عثمان بن عفان ثم انبعث في آخر عهده قويه عنيفة وكان انبعاثها له أثره في الاختلاف بين الأمويين والهاشمين :

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية صـــ ١٢ .

(٢) سورة الحجرات من آية (١٣) .

أولا ... ثم الاختلاف بين الخوارج وغيرهم .. فقد كانت القبائل التي انتشر فـيها مذهب الخوارج من القبائل الربعية لا من القبائل المصرية ، والتزاع بين الــربعيين والعضــويين معروف في العصر الجاهلي . فلما جاء الإسلام أخفاه حتى ظهر في الخوارج .

ثانياً : التنازع على الخلافة :

وهــذا أحدث اختلافاً سياسياً واسع المدى حول تحديد من هو أولى الناس بالخلافة على المسلمين بعد رسول الله (ﷺ) في حكم الأمة .

فقد قال الأنصار : نحن الذين أوينا ونصرنا فنحن أحق بالخلافة وقال المهاجرون : نحن أسبق فنحن أحق ولكن قوه أيمان الأنصار حسمت الخلاف يظهــر له أي أثر وقد اشتدت – الخلافات بعد ذلك حول الخلافة من يكون أحــق بها ؟ أيكون من قريش جمعاً ، أم يكون من أولاد علي خاصة أم يكون مــن المسلمين أجمعين ، لا فرق بين قبيل وقبيل وبيت وبيت ؟ ، فالجميع أمام الله ســواء والله يقول " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " ، والنبي صلى الله عليه وســلم يقــول " لا فضــل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى " وهكذا انقسم المسلمون إلى خوارج وشيعه ، وجماعات أخرى [1].

(١) انظر : المدخل في دراسة الفرق الإسلامية . د . محمد الشناوي صــ ٢٣ ، ٢٤ . ١٤١٤هــ – ١٩٩٣م بدون .

ثالـــثاً : مجـــاوره المسلمين الكثيرين من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم في الإسلام :-

دخل كثيرون من أهل الديانات القديمة في الإسلام فدخل في الإسلام يهود ونصارى ومجوس ، وكل هؤلاء في رءوسهم أفكارهم الدينية الباقية من ديانـــتهم القديمـــة وقد استولت على مشاعرهم فكانوا يفكرون في الحقائق الإسلامية على ضوء اعتقاداتهم القديمة ، وقد أثاروا بين المسلمين ما كان يثار في ديانـــتهم من الكلام في الجبر والاختيار وصفات الله تعالى : أهي شيء غير الذات أم هي والذات في شيء واحد .

وأنـــه يجـــب أن نقرر أنه كان بجوار هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام مخلصـــين ولكن ما زالت في رءوسهم بقايا ديانتهم القديمة آخرون دخلوا في الإســـلام ظاهراً وأبطنوا غيرة ، وما كان دخولهم إلا ليفسدوا على المسلمين أمـــور دينهم ويبثوا فيه الأفكار المنحرفة ولذا وجد من نشروا بين المسلمين أهـــواء مـــرديه كما كان يفعل الزنادقة وغيرهم من المنحرفين وفي هذا المقام يقول ابن حزم " والأصل في خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفـــرس كانـــوا من سعة الملك وعلوا اليد على جميع الأمم وجلالة النظر في أنفســـهم حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والنبلاء ، وكانوا يعدون جمـــيع الـــناس عبـــيدا لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على يد العرب وكانـــت العرب أقل الأمم عند الفرس ،خطرا تعاظمت الأمور ، وتضاعفت لـــديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات كثيرة ففي كل ذلك كـــان يظهر الله الحق فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار

محبه آل البيت واستشناع ظلم علي (رضي الله عنه) حتى أخرجوهم عن الإسلام ...[1].

وهذا الكلام وإن كان قد اقتصر في المثال على التشيع المنحرف كالذي كان يفعله السبئية اتباع عبد الله بن سبأ فإنه أيضا ينطبق على كثير من الطوائف الأخرى .

رابعاً : ترجمة الفلسفة :

ومن الأسباب تلك الترجمة ، فقد كان لترجمة الكتب الفلسفية أثر واضح في الخلاف ، إذا عزا الفكر الإسلامي كثير من المنازع الفلسفية والمذاهب القديمة في الكون والمادة ، وما وراء الطبيعة المحسوسة ، وظهر من علماء المسلمين من نزعوا منزع الفلاسفة الأقدمين وأخذوا بطريقتهم ، وظهر في العصر العباسي أقوام شكيون ، ينزعون في الشك منزع السوفسطائين الذين ظهروا في اليونان والرومان .

انبثق حول هذا المذهب أفكار مختلفة وكان لذلك أثره في التفكير الديني نفسه فقد وجدنا مفكرين يفكرون في العقائد الإسلامية تفكيراً فلسفياً ، كما نرى في المعتزلة الذين نهجوا منهج الفلاسفة في إثبات العقائد الإسلامية ، وأن علم الكلام على منهاج المعتزلة ومن يردون عليهم من علماء السنة هو مجموعة من الأقسمة المنطقية والتعديلات الفلسفية والدراسات العقلية المجردة .

---

(١) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية جـ١ صـ ١٤ .

خامساً : التعرض لبحث كثير من المسائل الغامضة :

فإن شيوع التفكير الفلسفي بين علماء المسلمين في إثبات العقائد قد جرهم إلى دراسة مسائل ليس في استطاعة العقل البشري أن يصل إلى نتائج مقرره ثابتة فيها ، كمسألة إثبات صفات الله تعالى ونفيها ومسألة قدره العبد بجوار قدرة الرب وغير ذلك من المسائل ، فإن البحث في هذه المسائل يفتح باباً واسعاً من أبواب الاختلاف إذا تختلف الأنظار وتتباين المسالك ويتجه كل اتجاها يخالف الآخر وربما كان أكثر المسائل التي وقع الاختلاف فيها بين علماء الكلام من هذا القبيل .

سادسا : القصص :

ظهر القصص في عهد عثمان (ﷺ) ، وكرهه الإمام علي (ﷺ) حتى أخرج القصاص من المساجد ، لما كانوا يضعونه في أذهان الناس من خرافات وأساطير ، بعضها مأخوذ من الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف وعراها التغيير ، وقد كثر القصص في العصر الأموي وكان بعضه صالحاً ، وكثير منه غير صالح ، وربما كان هذا القصص هو السبب في دخول كثير من الإسرائيليات في كتب التفسير ، وكتب التاريخ الإسلامي ، وأن القصص في كل صورة التي ظهرت في ذلك العصر كانت أفكاراً غير ناضجة تلقي في المجالس المختلفة ، وأن كان من الطبيعي أن يكون الخلاف بسببها ، وخصوصاً إذا تابع القصاص أصحاب مذهب أو زعيم فكرة أو سلطان وتابع الآخر

غـــيره ، فإن ذلك الخلاف يسرى إلى العامة وتسوء العقبى ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك في العصور الإسلامية المختلفة .. [١].

سابعاً : ورود المتشابه في القرآن الكريم :

قـــال تعـــالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[٢].

بهذه الآية ثبت ورود المتشابه في القرآن الكريم ، ليختبر الله سبحانه وتعـــالى قوة الإيمان في المؤمنين ، وقد كان وروده سبباً في اختلاف العلماء في مواضـــع المتشـــابهات من القرآن الكريم ، وحاول كثيرون من ذوي الإمام تأويلـــه والوصول إلى أدارك حقيقة معناه ، فاختلفوا في التأويل اختلافاً بيناً ومـــن العلمـــاء من أرادوا أن يجعلوا بينها وبينهم حجابا مستوراً ، فما كانوا يؤولـــون ، بـــل كانـــوا يتوقفون ويقولون : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [٣].

---

(١) انظر : المدخل في دراسة الفرق الإسلامية . د . محمد الشناوي صـــ ٢٦ ، ٢٩ .

(٢) سورة آل عمران من آية (٧) .

(٣) سورة آل عمران من الآية (٨) .

ثامناً : استنباط الأحكام الشرعية :

اليـنـبوع الصافي لهذه الشريعة هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ﷺ) وإن النصــوص تتناهــى ولكن الحوادث لا تتناهى ، فكان لابد من استنباط حكم شرعي لكل حادثه من الحوادث والنصوص وإن شملت الأحكام الكلية لا تجــيء فــيها الأحكــام الجزئية بالنص ، فكان لا بد من التعرف بالنظر والفحــص ، وقد تشعبت بين أيدي – الدارسين طرق تعرف الأحكام وكل أخــذ بمــا استقام في منطقة ونظره وبما وصل إليه من حديث أو أثر لصحابي صح عنده .

ويجــب أن يلاحــظ أن الخلاف الذي نتج عن هذا الاستنباط ليس خطيرا بل أنه محمود العاقبة حسن النتيجة ، إذ نتج من مجموع الآراء المختلفة مــا يمكــن أن يســتخلص منه قانون محكمة ، يعادل أحكم القوانين وضعاً وأعللــها منهجاً ، وأقواها على مسايره الزمن مع مساوقة الفطرة الإنسانية السليمة [١].

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية صـ ١٥٦ .

المبحث الثاني

تمحيص القول في حديث الافتراق

اختلف الباحثون المسلمون حول هذا التساؤل :

هـــل تنبأ الرسول (ﷺ) بهذا الافتراق ، أم أن هذه الأحاديث المروية في افتـــراق الأمـــة ، والتي لم يرد ذكرها في الصحيحين البخاري ومسلم غير صحيحة النسبة إلى رسول الله (ﷺ) ؟

رأيان :

الأول :

يـــرفض نســـبة هذه الأحاديث إلى رسول الله (ﷺ) وعلى رأس هذا الفريق الإمام ابن حزم الأندلس الذي يقول [١]:

" ذكروا حديثاً عن رسول الله (ﷺ) أن القدرية والمرجئة مجوس بهذه الأمـــة ، وحديثاً آخر تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشاً واحدة فهي في الجنة "

قـــال : " أبـــو محمـــد " هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإســـناد ، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد فكيف من لا يقول به " [٢].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ ٣ صـ ٢٤٧ ، صـ ٢٤٨ وكان ذكر ابن حزم لهذين الحديثين الذين رواهما بالمعنى عند حديثه عمن يكفر ولا يكفر من كتاب الإيمان .

(٢) انظر : تأملات في التراث العقدي للفرق الكلامية . د . عبد السلام عبده صـ ٥٤ . نشر دار الكتاب الجامعي .

كما يقول الدكتور / عبد الرحمن بدوي [(١)] – بعد أن يذكر روايات الحديث المتعددة :

" ولهـذا الحـديث بهذه الصورة أو بالصورة الأخرى أسانيد كثيرة استوفي ذكـرها الحافظ الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف الذي تعددت رواتـه عـن رسـول الله (ﷺ) كأنس بن مالك ، وأبي الدرداء ، وجابر ، وأبي سـعيد الخـدري ، وأبي بـن كعب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبي أمامة ، ووائلة بن الأسقع .

ومع ذلك فلا يمكن أن يكون الحديث صحيحاً للأسباب الآتية :

أولاً : أن ذكر هذه الأعداد المحددة المتولية : ٧١– ٧٢– ٧٣ أمر لا يمكن تصديقه فضلاً عن أن يصدر مثله عن النبي .

ثانـياً : أنـه لـيس في وسع النبي أن يتنبأ مقدما بعدد الفرق للتي سيفترق إليها المسلمون .

ثالثاً : لا نجد لهذا الحديث ذكرا فيما ورد لنا من مؤلفات من القرن الثاني بل ولا الثالث الهجري ، ولو كان صحيحاً لورد في عهد متقدم [(٢)].

رابعـاً : أعطت كل فرقة بختام الحديث الرواية التي تناسبها ، فأهله السـنة جعلوا الفرقة الناجية هي أهل السنة ، والمعتزلة جعلوا المعتزلة وهكذا

---

(١) مذاهب الإسلاميين جـ١ صـ ٣٣ . انظر : تأملات في التراث العقدي للفرق الكلامية .
د . عبد السلام عبده صـ ٥٥ .

(٢) انظر : تأملات في التراث العقدي للفرق الكلامية . د . عبد السلام عبده صـ ٥٥ .

وقـد ظهـر التعسف المبالغ لدي مؤرخي الفرق في وضعهم فروقا وأصنافا داخل التيارات الرئيسية حتى يستطيعوا الوصول إلى (٧٣) وفاقم أن افتراق المسـلمين لم ينته عند عصرهم وأنه لابد ستنشأ فرق جديد باستمرار مما جعل حصـرهم هذا خطأ تماماً ، إذ لا يحسب حساباً لما سينشأ بعد ذلك من فرق إسلامية جديدة .

الثاني :

يثبت صحة هذا الحديث الذي تتعد روايته ويختلف متنه من رواية لأخرى .

فعلـى الرغم من أن هذا الحديث لم يرد في واحد من الصحيحين : البخاري ومسلم فقد رواه أبو داود والترمذي والحاكم وابن حبان .

ومـن روايـات هـذا الحديث المتعددة رواية لم يختلف العلماء على صـحتها ، فقد اتفقت عليها كتب السنة – التي روت هذا الحديث – وهي والـتي رواها أبو هريرة (ﷺ) والتي لم تذكر الزيادة التي تحدد الفرق الناجية ونصها : في رواية أبي داود في أول كتاب السنة [1].

" حدثـنا وهـب بن بقية عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة (ﷺ) قال : قال رسول الله (ﷺ) (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فـرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة [2].

---

(١) انظر : تأملات في التراث العقدي للفرق الكلامية . د . عبد السلام عبده صـ ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سبق تخريجه .

فقد ذكر الشيخ ناصر الألباني [1] أن هذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حيان في صحيحه والأجري في الشريعة والحاكم وأحمد وأبو يعلى في مسنده من طرق عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

هناك روايات متعددة لهذا الحديث أتت بالزيادة التي نصت على أن كل الفرق في النار ألا واحدة منها : نذكر منها ما يلي :

(١) ما رواه الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله (ﷺ) : " ليأتين على أمتي ما أتى علي بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى أن كان منهم من أتى أمة علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك ، وأن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار ألا ملة واحدة " قال : من هي يا رسول الله ؟ قال : (ما أنا عليه وأصحابي [2]) .

(٢) ما رواه ابن ماجة بسنده عن عوف بن مالك قال : " قال رسول الله (ﷺ) : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار ، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحد في الجنة وثنتان وسبعون في النار قيل يا رسول الله من هم ؟ قال : (الجماعة) [3] " .

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ١٤/١٠ رقم ٣٠٤ الفتن وأشراط الساعة .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سنن ابن ماجة ، كتاب الفتن رقم / ٣٩٩٢ .

٣- مـــا رواه ابن ماجة بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ﷺ) : " إن بـــني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحد وهي الجماعة [١] " .

هذا وللعلماء الباحثين في هذا الحديث أقوال نذكرها توضيحا المقام.

(١) - ابن تيمية :

يقول ابن تيمية في هذا الحديث [٢] :

" الحـــديث صـــحيح مشـــهور في السنن والمسانيد كسنن أبي داود والتـــرمذي والنســـائي وغيرهم ولفظه " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فـــرقة كلها في النار ألا واحدة ، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلـــها في النار ألا واحدة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الـــنار إلا واحـــدة وفي لفظ " على ثلاث وسبعين ملة ، وفي رواية قالوا : يا رسول الله من الفرقة الناجية ؟ قال : (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) وفي رواية قال : (هي الجماعة يد الله على الجماعة) .

ولهـــذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة وهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم " [٣] .

(١) سنن ابن ماجة ، كتاب الفتن رقم / ٢٩٩٣ .

(٢) الفتاوى جـ٣ صـ ٣٤٥ .

(٣) يضاف إلى هذه الأسانيد الذي ذكر ابن تيمية كل من أبي الدرداء وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي بن كعب وأبي أمامة ووائل بن الأسقع وهكذا يوجد لهذا الحديث مع تعدد رواياته أسانيد كثيرة عن الصحابة (رضوان الله عليهم) . وكذلك روي عن الخلفاء الراشدين أنهم ذكروا الافتراق : افتراق الأمة بعدهم فرقاً ، وذكروا أن الفرقة الناجية منها فرقة واحدة وسائرها على الضلال في الدنيا والبوار في الآخرة ومن أجل تعدد روايات هذا الحديث ذهب البعض إلى صحته " انظر الأصول الفكرية لمذهب أهل السنة " عبد اللطيف محمد السعيد صـ ٢١ . نقلاً عن تأملات في التراث العقدي هامش صـ ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) عبد القاهر البغدادي :

يذكر الإمام " عبد القاهر البغدادي " في كتابه " الفرق بين الفرق "[١] للحديث ثلاث روايات مختلفة السند والمتن ثم يقول :

" للحديث الوارد على افتراق الأمة أسانيد كثيرة ، وقد رواه عن النبي (ﷺ) جماع من الصحابة كأنس بن مالك ، وأبي هريرة ، وأبي الدرداء ، وجابر ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأبي أمامة ، ووائلة بن الأسقع وغيرهم .

وقد روي عن الخلفاء الراشدين أنهم ذكروا افتراق الأمة بعدهم فرقاً ، وذكروا أن الفرقة الناجية منها فرقة واحدة وسائرها على الضلال في الدنيا والبوار في الآخر .

وروي عن النبي (ﷺ) ذم القدرية وأنهم مجوس هذه الأمة ، وروي عنه ذم المرجئة مع القدرية ، وروي عنه ذم المارقين وهم الخوارج .

وروي عن أعلام الصحابة ذم القدرية والمرجئة والخوارج المارقة ، وقد ذكرهم علي (ﷺ) في خطبته المعروفة بالزهراء وبرئ فيها من أهل النهروان .

وقد علم كل ذي عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبي (ﷺ) لم يرد بالفرقة المذمومة التي (هي من) أهل النار فرق الفقهاء

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص٧ - ١١ .

الـذين اختلفوا في فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين ، لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه من فروع الحلال والحرام على قولين :

أحـدهما : قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم في فروع الفقه ، وفرق الفقه كلها عندهم مصيبون .

والثاني : قول من يرى في كل فرع تصويب واحد من المختلفين فيه وتخطئة الباقين من غير تضليل منه للمخطئ فيه (١).

وإنمـا فصل النبي (ﷺ) بذكر الفرق المذمومة فرق أصحاب الأهواء الضـالة الذين خالفوا الفرقة الناجية في أبواب العدل والتوحيد أو في الوعد والوعـيد أو في باب القدر والاستطاعة أو في تقدير الخير والشر أو في باب الهداية والضلال أو في باب الإرادة والمشيئة أو في باب الرؤية والإدراك أو في بـاب صفات الله (عز وجل) وأسمائه وأوصافه أو في باب من أبواب التعديل والتجويـر ، أو في باب من أبواب النبوة وشروطها ونحوها من الأبواب التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة من فريقي الرأي والحديث على أصل واحد خـالفهم فيه أهل الأهواء الضالة من القدرية والخوارج والروافض والنجارية والجهمـية والمجسـمة والمشـبهة ومن جري مجراهم من فرق الضلال ، فإن المخـتلفين في العـدل والتوحـيد والقدر والاستطاعة وفي الرؤية والصفات والـتعديل والتجوير وفي شروط النبوة والإمامة يكفر بعضهم بعضا ، فصح تأويـل الحديث المروى في افتراق الأمة ثلاث وسبعين فرقة إلى هذا النوع من

(١) انظر : تأملات في التراث العقدي للفرق الكلامية . د . عبد السلام عبده صـ ٦٠ ، ٦١ .

الاخــتلاف دون الأنواع التي اختلف فيها أئمة الفقه من فروع الأحكام في أبــواب الحلال والحرام وليس فيما بينهم تكفير ولا تضليل فيما اختلفوا فيه من أحكام الفروع [١].

(٣) أبو الفتح الشهر ستاني :

... يــتحدث الإمام الشهر ستاني عن تقاسيم أهل العالم فيقول [٢] :

"... افتــرقت المجــوس على سبعين فرقة واليهود على إحدى وسبعين فرقة والنصــاري على ثنتين وسبعين فرقة ، والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة ، والناجية أبداً من الفرق واحدة ، إذ الحق من القضيتين المتقابلتين في واحدة ، ولا يجــوز أن تكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرائع التقابل ألا وأن تقتســما الصــدق والكذب ، فيكون الحق في إحداهما دون الأخرى ، ومن المحــال الحكــم على المتخاصمين المتضادين في أصول المعقولات بأنهما محقان صادقان .

وإذا كــان الحــق في كل مسألة عقلية واحداً فالحق في جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة .

وإنما عرفنا هذا بالسمع وعنه أخبر التتريل في قوله (عز وجل) :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [٣].

---

(١) انظر : تأملات في التراث العقدي للفرق الكلامية .د . عبد السلام عبده صـــ ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) الملل والنحل للشهر ستاني ص ١١ . انظر : تأملات في التراث العقدي للفرق الكلامية . د . عبد السلام عبده صـــ ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) الأعراف من الآية (١٨١) .

وأخبر النبي (ﷺ) : (ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة والباقون هلكى) قيل : ومن الناجية ؟ قال : (أهل السنة والجماعة) قيل : وما السنة والجماعة ؟ قال : (ما أنا عليه اليوم وأصحابي) .

وقال (ﷺ) :(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة) .

وقال (ﷺ) : (لا تجتمع أمتي على ضلالة) " .

ومـــن هذا الذي ذكرنا نقلاً عن العلماء يتضح لنا أن الباحثين لهم في هذا الحديث قولان :

قـــول : يرفضه من جهة الإسناد فما إسناد روي به ألا وفيه ضعيف وكل حديث هكذا شأنه فإنه لا يجوز الاستدلال به .

كمـــا يرفضـــه كذلك من جهة المتن لتحديد العدد به اليهود إحدى وســبعون والنصـــارى ثنتان وسبعون والمسلمون ثلاث وسبعون وهم الأمة الوسط الذين جعلهم الله (تعالى) شهداء على الناس .

فيرفض المتن من جهة العقل .

وهذا الرأي – في تقديري – مرجوح فتعدد الطرق وتعدد الصحابة الذين رووا هذا الحديث يجبر الضعف في السند ، كما أن حدوث الافتراض فعـــلاً ووقوعه مع أن العدد ليس مقصود المفهوم فالمراد الكثرة والتحذير من مغبة التفرق وليس قصد العدد لذاته يدفع شبهة هذا القول عن المتن .

القـــول الـــثاني – يـــرى صحة هذا الحديث ، ويبين أن الاختلاف المقصود إنما هو الاختلاف في أصول العقيدة ، لأن الاختلاف حولها هو سبب والخسران ، أما الاختلاف في الأحكام الفقهية فليس مرادا هنا .

والافتـــراق – في العقيدة – قد حدث فعلاً بظهور الفرق الكلامية. وقد بين الرسول (ﷺ) الميزان الصحيح للنجاة من هوجاء هذا الاختلاف وهو التمسك بكتاب الله (تعالى)وسنة ورسوله (ﷺ) .

هــــذا وقـــد حـــاول مصنفو كتب الفرق تقسيم الفرق التي ظهرت منتســـبة للإســـلام إلى ثلاث وسبعين فرقة ليتفق قولهم مع العدد الذي ذكر رسول الله (ﷺ) فكلفوا أنفسهم وحملوا قارئهم عناءا كانوا في غنى عنه ، ومن هنا فقد قام عدد من الأئمة يرد هذا التكلف في ذكر العدد وحصره [1].

---

(١) انظر : تأملات في التراث العقدي للفرق الكلامية . د . عبد السلام عبده صـ ٦٢ ، ٦٤ . نشر دار الكتاب الجامعي .

{ الخوارج }

نشـــأتهم : أنه بعد اندلاع الفتنة وقتل عثمان ﷺ ، والتقاء علي ومعاويـــة فـــي حرب صفين وبعد أن كادت الدائرة تدور على معاوية وجيشه اتجه معاوية بن أبي سفيان ﷺ إلى عمرو بن العاص وقال له : يـــا عمـــرو ألم تزعم أنك لم تقع في أمر قَطُّ فأردت الخروج منه إلا خرجت ؟ فقال عمرو بن العاص : بلى ، قال معاوية : فما المخرج مما نـــزل ؟ قال عمرو : لي عليك ألا تخرج مصر من يدي ما بقيت . قال معاويـــة : لك ذلك ، ولك به عهد الله وميثاقه . قال عمرو : فأمر برفع المصـــاحف على أسنة الرماح ، ثم يقول أهل الشام جيش معاوية لأهل العـــراق جـــيش علي : يا أهل العراق : كتاب الله بيننا وبينكم ، البقية البقـــية ، فإنه إن أجابك إلى ما تريده خالفه أصحابه ، وإن خالفك خالفه أصحابه ، وكان عمرو بن العاص في رأيه الذي أشار به كأنه ينظر إلى الغيب من وراء حجاب رقيق .(١)

وما كان من معاوية إلا أن نفذ وصية عمرو هذه ، فأمر أصحابه بـــرفع المصاحف ففعلوا ذلك ، وطلبوا إلى أهل العراق تحكيم كتاب الله عـــز وجل ، وقد كان علي ﷺ من الفطنة بحيث لم يخف عليه غرض معاويـــة وعمرو من هذا الطلب – تحكيم كتاب الله – وكان يقول حين سمع ذلك من قبل أهل الشام : كلمة حق يراد بها باطل .(٢)

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري (ج ١ ص ٦٢ – ٦٣) .
(٢) محاضرات في الفرق الإسلامية : د / محمود عبد المعطي بركات (ص ٦٧) .

ولكن فطنة علي كرم الله وجهه وإدراكه لغرض خصمه لم يحل دون تنفيذ المخطط الذي أحكمه عمرو بن العاص ، وخالف علي في ذلك أصـحابه تماما كما تنبأ عمرو بن العاص ، فقام علي إلى جماعة من أصـحابه ممـن كانوا معه في حرب صفين ، وهم : الأشعث بن قيس ومسعود بـن فدكـي التميمي وزيد بن حصين الطائي ، وقالوا القوم يدعونـنا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف فقال لهم علي أنا أعلم بما في كتاب الله انفروا إلى بقية الأحزاب انفروا إلى من يقول كذب الله ورسوله وأنتم تقولون صدق الله ورسوله ، ولكن لما لم يستجب لهم علي ﷺ قـالوا : لترجعـن الأشتر عن قتال المسلمين : وإلا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان فاضطر علي إلى رد الأشتر بعد أن هزمت الجمع وولوا مدبرين فامتثل الأشتر لأمر علي ﷺ . (١)

ولم يقتصر هؤلاء على ذلك بل أن علي بعد أن اضطر إلى قبول التحكـيم كان يريد اختيار عبد الله بن عباس ممثلا له في التحكيم ، فلم يقبل هؤلاء ذلك بحجة قرابته من علي ﷺ ، ثم حملوه على اختيار أبي موسى الأشعري على أن يحكم بكتاب الله ، فجرى الأمر على خلاف ما رضي به ، فلما لم يرض بذلك خرجت الخوارج عليه وقالوا لم حكمت الرجال ، لا حكم إلا لله . (٢)

وكـان ممـا قالوه – أن الله تعالى يقول : ﴿ **فقاتلوا التي تبغي**

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (جـ ١ ص ١٢٣) بهامش الفصل لابن حزم .

(٢) المصدر السابق (ص ١٢٣ – ١٢٤) .

حـتى تفـيء إلى أمر الله ... ﴾[١] ولم يقل حكموهم ، وهم البغاة ، وطالـبوا عليا بالعودة إلى قتال أهل الشام ، وليس هذا فقط ، بل طالبوه أن يحكم على نفسه بالكفر ، لأنه قبل التحكيم أولا ، فيجب أن يتوب كما تابوا ، فقال لهم عليّ لقد أبيت عليكم في أول الأمر ، فأبيتم إلا إجابتهم مـا سـألوا فأجبـناهم وأعطينا لهم العهود والمواثيق وليس يصوغ لنا الغدر ، فأبوا إلا خلع عليّ وإكفاره بالتحكيم وخرجوا عليه .[٢]

ويقـول الشيخ أبو زهرة : " ومن غريب أن هذه الخارجة التي حملـت عليا التحكيم ، وحملته على محكم بعينه أن جاءت من بعد ذلك واعتبرت التحكيم جريمة كبيرة ، وطلبتْ من علي أن يتوب عما ارتكب لأنـه كفـر بتحكـيمه كما كفروا هم وتابوا وتبعهم غيرهم من أعراب البادية ، وصار شعارهم " لا حكم إلا لله " ، وأخذوا يقاتلون عليا بعد أن كانوا يجادلونه ، ويقطعون عليه القول " .[٣]

وهـنا يـبرز سؤال : هو لماذا غير هؤلاء رأيهم في التحكيم ؟ إنهم قبلوه أولا ، لأنهم اعتبروه دعوى إلى تحكيم كتاب الله عز وجل ، واقتنعوا أن الخصم صادق النية في هذه الدعوة ، رغم تحذير عليّ لهم بـأن الأمـر لا يعدوا أن يكون خدعة أو مؤامرة ، ولكن نتيجة التحكيم جاءت غير متسقة تمام الاتساق مع كتاب الله عز وجل .

---

(١) سورة الحجرات (آية / ٩) .
(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري (ج ١ ص ٦٤)
(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبي زهرة (ص ٥٦) دار الفكر العربي .

وقد يكون من المقبول أن من رفض التحكيم بعد وقوعه ، وقالوا لعلـيّ : لقـد حكمت الرجال ، لم يكونوا هم بعينهم الذين أجبروه على قبول التحكيم على الرغم مما يشعر به خطاب عليّ ﷺ فيما مر من أنهم رفضوا ما قبلوه .

ومما يساعد علـى هذا الترجيح أن الذين خرجوا على بحروراء بحروراء من ناصية الكوفة تزعمهم أناس غير أولئك الذين طالبوا عليا بالانصـياع لطلـب تحكـيم كتاب الله عز وجل ، وأولئك هم كما تقدم الأشعث بن قيس الكندي ، ومسعود بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي ، أما هؤلاء الذين تزعموا الحرورية فهم عند الله من الكواء .

وعتاب بن الأعور وعبد الله بن وهب الراسبي وعروة بن جرير ويـزيد بـن أبي عاصم المحاربي وحرقوص بن زهير البجلي فهؤلاء غير أولئك . (١)

مناقشة علي لهم :

لم يشأ الإمام علي ﷺ أن يبدأ بقتال الخوارج قبل مناقشتهم حول آرائهم التي خرجوا من أجلها ، فقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، مـاذا نقمتم فيّ ؟ فقالوا له : أول ما نقمنا منك أن قاتلنا بين يديك يوم الجمل فلما ، انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ما جدنا في عسكرهم من المـال ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم . فكيف استحللت مالهم دون

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (جـ ١ ص ١٢٤) . ومحاضرات في الفرق الإسلامية : د / محمود بركات (ص ٦٩) .

النساء والذرية ؟ فقال لهم الإمام علي ﷺ : إنما أبحت لكم أموالهم بدلاً مما أغاروا عليه من بيت مال الديوان بالبصرة قبل قدومي عليهم ، والنساء والذرية لم يقاتلونا ، وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر ، وبعد لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة في سهمه ؟ فخجل القوم من هذا ، ثم قالوا له : نقمنا عليك محو أمرة أمير المؤمنين على اسمك في الكتاب بينك وبين معاوية لما نازعك معاوية في ذلك ، فقال فعلت مثل ما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين قال له سهيل بن عمرو . لو علمت أنك رسول الله لما نازعتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فكتب . " هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو " ، وأخبرني رسول الله ﷺ أن لي منهم يوما مثل ذلك فكانت قصتي في هذا مع الأبناء قصة رسول الله ﷺ مع الأباء ، فقالوا له : فلم قلت للحكمين إن كنت أهلا للخلافة فاثبتاني ، فإن كنت في شك من خلافتك فغيرك بالشك فيك أولى ، فقال : إنما أردت بذلك النصفة لمعاوية ، ولو قلت للحكمين احكما لي بالخلافة ، لم يرض بذلك معاوية ، وقد دعا رسول الله ﷺ نصارى نجران إلى المباهلة ، وقال لهم : **﴿ تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾** (١)

فأنصفهم بذلك من نفسه ، ولو قال ابتهل فاجعل لعنة الله عليكم

---

(١) سورة آل عمران (آية ٦١) .

لم يرض النصارى بذلك ، لذلك أنصفت أنا معاوية من نفسي ولم أدر غدر عمرو بن العاص .

قالوا : حكمت الحكمين في حق كان لك ؟ فقال وجدت رسول الله ﷺ قد حكم سعد بن معاذ في بني قريظة ولو شاء لم يفعل وأخذت أنا أيضا حكما لكن حكم رسول الله ﷺ قد حكم بالعدل ، وحكمي خدع حتى كان من الأمر ما كان ، فهل عندكم شيء سوى هذا ؟

فسكت القوم ، وقال أكثرهم صدق والله ، وقالوا التوبة ، واستأمن إليه منهم يومئذ ثمانية آلاف ، وانفرد منهم أربعة آلاف بقتاله مع عبد الله بن وهب الراسبي ، وحرقوص بن زهيل البجلي .[1]

وهذا الحوار يبين لنا نموذجا من أفكار هؤلاء وطريقتهم في التفكير كما يعبر عن جملة من آرائهم كما يلقي صنوعا على تعليلاتهم في خروجهم على عليّ ﷺ .

ألقابهم :

يطلق اسم الخوارج على من خرجوا على الإمام " عليّ " ﷺ عند قبوله التحكيم في موقعة صفين " ومن خروجهم أطلق عليهم ذلك الاسم ، على أن بعض الخوارج يرون أنهم إنما سموا بذلك لأنهم خرجوا من بيوتهم ابتغاء وجه الله تعالى والجهاد في سبيله .

﴿ ومن

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٤٧ ـ ٤٨) .

يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ (١)

وقد أطلق عليهم عدة ألقاب أخرى عدا الخوارج ، منها : " الشراه ، والحرورية ، والنتاصية ، والمارقة ، والمحكمة " ، أما تسميتهم بـ " الشراه " فلأن هذا الاسم جمع " شار " ، ومعنى شرى في القرآن الكريم " باع " وعليه فمعنى " شار " أي بائع ، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى وهم يقولون شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة . (٢) والله يقول : **﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ﴾** (٣) ، ويقول **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾** (٤) ، وأما تسميتهم بـ " بالحرورية " : فذلك لنزولهم أول خروجهم بحروراء وهي قرية قريبة من الكوفة ، وسموا بـ " المحكمة " : لإنكارهم حكم الحكمين وقولهم لا حكم إلا لله حتى صارت هذه العبارة سمة وشعارا لهم ، وهم يرضون بهذه الألقاب كلها إلا بـ " المارقة " ، فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين كما يمرق أسهم من الرمية . (٥)

---

(١) سورة النساء (آية / ١٠٠) .
(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري (جـ ١ ص ٢٠٧) .
(٣) سورة التوبة (آية / ١١١) .
(٤) مقالات الإسلاميين (جـ ١ ص ٢٠٧) .
(٥) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ / محمد أبي زهرة (جـ ١ ص ٦١) .

{ المبادئ العامة للخوارج }

علـــى الرغم من انقسام الخوارج فيما بينهم ، واختلاف وجهات الـــنظر حـــول بعض المسائل التي تناولوها بالبحث وافتراقهم إلى فرق بلغت عشرين فرقة ، إلاّ أن هناك بعض المبادئ أجمعوا عليها رغم ذلك الخلاف .

١ – فـــأول هـــذه المبادئ يتعلق بجانب سياسي ، يتصل بشأن شخصية الخليفة ، وما يجب أن يتوفر فيه ، فيرون ما يلي :

أ – أن الخلـــيفة لا يكـــون إلاّ بانـــتخاب حـــر صحيح ، يقوم به عامة المســـلمين ، لا فرق بينهم ، ويَستمر خلافته ما دام قائماً بالعدل ، مقيماً للشرع مبتعداً عن الخطأ والزيغ ، فإن حاد وجب عزله أو قتله .

ب – وثانـــي هذه الآراء أن بيتا من بيوت العرب لا يختص بأن يكون الخليفة فيه ، فليست الخلافة في قريش كما يقول غيرهم ، وليست لعربي دون أعجمي ، والجميع فيها سواء ، بل يفضلون أن يكون الخليفة غير قرشـــي ليســـهل عزله أو قتله إن خالف الشرع وحاد عن الحق ، إذ لا تكـــون له عصـــبية تحمـــيه ، ولا عشيرة تؤويه ، وعلى هذا الأساس اخـــتاروا منهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وأمروه عليهم وسموه أمير المؤمنين وليس بقرشي . [١]

جـ – وأن الـــنجدات من الخوارج يرون أنه لا حاجة إلى إمام إذا أمكن

---

[١] تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبي زهرة (جـ ١ ص ٦١) .

للـــناس أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن رأوا أن التناصف لا يتم إلاّ بإمام يحملهم على الحق فأقاموه جاز ، فإقامة الإمام في نظرهم ليست واجبة بإيجـــاب الشـــرع ، بل جائزة ، وإذا وجبت فإنما تجب بحكم المصلحة والحاجة .

د – ويـــرى الخوارج تكفير أهل الذنوب ولم يفرقوا بين ذنب وذنب بل اعتـــبروا الخطـــأ في الرأي ذنبا إذا أدى إلى مخالفة وجه الصواب في نظـــرهم ، ولذا كفروا عليا ﷺ بالتحكيم ، مع أنه لم يقدم عليه مختارا ، ولو سلم أنه اختاره ، فالأمر لا يعدوا أنه اجتهاد قد أخطأ فيه ، إن كان التحكيم جانب الصواب ، فلجاجتهم في تكفيره ﷺ دليل على أنهم يرون الخطأ في الاجتهاد يخرج من الدين ، كذلك كان شأن طلحة والزبير ﷺ وغيرهم من علية الصحابة الذين خالفوهم في جزئية من جزئيات كانت نتيجة لاجتهادهم . (١)

{ أهم فرق الخوارج }

يطـــول الكلام ولا يتسع المقام لو أردنا أن نتناول فرق الخوارج بالتفصيل وكل آراءهم بالتحليل فذلك جدير بإفراد بحث مستقل ، ولكننا سنتناول بإيجاز أهم فرقهم الأصلية .

ومن أهم هذه الفرق عندهم :

المحكمـــة الأولى : وهم الذين خرجوا على عليّ ﷺ حين جرى

---

(١) تاريخ الفرق الإسلامية (ج ١ ص ٦١ – ٦٢) .

أثر التحكيم وهم الذين اجتمعوا بحروراء بناحية الكوفة وزعماؤهم جماعة رأسهم عبد الله بن الكواء، وعتاب بن الأعور، وعبد الله بن وهب الراسبي، وعروة بن جرير، ويزيد ابن أبي عاصم المحاربي، وحرقوص بن زهير البجلي.

وقد ذكر الشهرستاني أن هؤلاء هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ تحقرون صلاة أحدكم في جنب صلاتهم وصوم أحدكم في جنب صيامهم، ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم. (١)

ويمكن إجمالا رأي هذه الفرقة في عدة أمور منها:

أولا: أنهم خطأوا عليا ﷺ في قبوله التحكيم بينه وبين معاوية، ولو أنهم وقفوا عند هذا الحد لهان الأمر بعض الشيء، ولكن الأخطر أنهم جعلوا هذا الخطأ كفرا منه ﷺ لأن من أخطأ فهو كافر في زعمهم.

وزادوا في الأمر سوءا عندما طلبوا من عليّ ﷺ أن يقر على نفسه بالكفر وأن يتوب من كفره، ولكن عليا ﷺ أبى أن يقر على نفسه بالكفر – ومن الطبيعي أن يرفض على هذا المطلب، وهو الذي لم تتدنس جبهته بالسجود لغير الله وعلى فرض أنه أخطأ فهو في هذا الخطأ في حكم المجتهد.

وهذه الطائفة طعنت عليا وكذلك طعنت على عثمان، وطعنوا

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (جـ ١ ص ١٢٤).

فـــي أصـــحاب الجمـــل وأصحاب صفين ، وقد كان الخوارج في ذلك التفكـــير متعلقين بظواهر بعض النصوص ولذلك كان عليّ يجادلهم معـــتمداً على فعل الرسول ﷺ ، لأن ذلك يعلي استشهاد بوقائع ومن هـــذا قولـــه فـــي محاجتهم "فإن أبيتم إلاّ أن تزعموا أني أخطأت وضـــللت فلم تضلون عامة أمة محمد ﷺ ، وتأخذونهم بخطأ وتكفرونهم بذنوبـــي ، ســـيوفكم على عواتقكم ، تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون ، من أذنب بمن لم يذنب ، وقد علمتم أن رسول الله ﷺ رجم الزانـــي المحصـــن ثم صلى عليه ثم ورثه أهله ، وقتل القاتل ، وورث مـــيراثه أهلـــه ، وقطع يد السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسم علـــيهما الفيء ، ونكحا المسلمات ، فأخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله ". (١)

ونـــرى فـــي هذا الكلام القيم رداً مفحماً لهم ، فلم يستطيعوا أن يماروا فيه ، ولقد عدل عن الاحتجاج بالنصوص إلى الاحتجاج بالعمل الذي كان عليه النبي ﷺ ، ولأن العمل لا يقبل تأويلاً ، ولا يفهم إلاّ على وجهـــه الصـــحيح ، فلا يكون فيه مجال لنظراتهم المحيطة ، وتكفيرهم الـــذي لا يصـــيب إلا جانـــباً واحداً إلا إلى اتجاه جزئي ، وفي الاتجاه الجزئـــي فـــي فهم العبارات والأساليب بعد عن مرماها ونقضها وفي النظرة الكلية الشاملة الصواب وإدراك الحق من كل نواحيه .

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية : الشيخ محمد أبو زهرة (جـ ١ ص ٦٣) .

ثانيا : هذه الفرقة جوزت أن يكن الخليفة من غير قريش ما دام يحقق العدل في الناس ويجتنب الجور وهذا الإمام بهذه الصفة إذا خرج عليه أحد ، فإنه يجب قتاله ، ولكن الإمام إذا غير سيرته وجب عزله أو قتله ، على أن الإمامة ليست في حد ذاتها ضرورية بحيث أنه يجوز أن يخلو العالم عن إمام إذا أمكن الناس أن تسير أمورهم على الحق والعدل .

ولا مانع أن يكون الإمام حرا أو عبدا قرشيا أو غير قرشي مادام يحقق العدل بين الناس وحقيقة فإنهم فيما يتعلق بالإمام قد أساءوا فهم قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واخترعوا لها بذلك من الوسائل ما لم ينزل الله به من سلطان . (١)

الأزارقة :

وهم أتباع نافع بن الأزرق الذي كان من بني حنيفة ، وكان أقوى الخوارج شكيمة ، وأكثرهم عددا وأعزهم نفرا ، وهم الذين تلقوا الصدمات الأولى من ابن الزبير والأمويين ، وقد قاتل الخوارج بقيادة نافع قواد عبد الله بن الزبير ، وقواد الأمويين تسع عشرة سنة ، وقد قتل نافع في ميدان القتال ، ثم تولى بعده نافع بن عبيد الله ثم قطري بن الفجاءة .

وفي عهد قطري كان الذي يحارب الخوارج من الأمويين داهية

(١) محاضرات في الفرق الإسلامية : د / محمود بركات (ص ٧٤) .

قوادهم المهلب بن أبي صفرة فكان قبل الواقعة التي يتقدم بها يثير خلافهم فتحتدم المناقشة بينهم احتداما شديدا ، ثم يلقاهم وهم على هذا الخلاف ، ولذا أخذ شأن الخوارج يضعف في عهد قطري هذا لاختلافهم فرقا من جهة ولأثر هذا الاختلاف في مواقفهم في ميدان القتال من جهة ثانية وتألب المسلمين عليهم من جهة ثالثة ، وغلظتهم في معاملة مخالفيهم من جهة رابعة .

وقد توالت هزائمهم على يد المهلب ومن جاء بعده من قواد الأمويين حتى انتهى أمرهم .

مبادئ الأزارقة :

أ - أنهم لا يرون مخالفيهم غير مؤمنين فقط بل يرون أنهم مشركون مخلدون في النار ويحل قتالهم وقتلهم .

ب - وأن دار أولئك المخالفين دار حرفي يستباح فيها ما يستباح في قتال الكفار من نهب أموالهم وسبي الأولاد والنساء وبالتالي يباح استرقاق مخالفيهم ويباح قتل من قعدوا عن القتال .

جـ - ومن آراءهم أيضا أنهم يقولون أن أطفال مخالفيهم مخلدون في النار أي أن الذنب الذي أوجب كفر مخالفيهم يسري إلى أولادهم مع أن أولادهم لم يرتكبوه ، ولكنه انحراف فكري من أصحابهم .

د - ومن آرائهم الفقهية أنهم لا يقرون هذا الرجم ويقولون ليس في القرآن الأخذ الجلد للزاني والزانية فحد الرجم لم يجيء في القرآن ، ولم

يثبت في نظرهم من السنة .

هـ – ويرون أن حد القذف لا يثبت إلا لمن يقذف محصنة بالزنى ، ولا يثبت على من يقذف المحصنين من الرجال لأنهم أخذوا بظاهر النص ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون** ﴾ (١) ، فلم يذكر حد القذف المحصنين من الرجال .

و – ويرون أنه يجوز على الأنبياء أن يرتكبوا الكبائر والصغائر ، وأن ذلك لا ريب من المتناقضات في أقوالهم ، إذ أنهم بينما يكفرون مرتكب الكبيرة يجوزونها على الأنبياء ، فالنبي قد يكفر ثم يتوب وذلك أخذوه من ظاهر قوله تعالى : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ (٢)

النجدات :

هي اتباع نجده بن عويمر من بني حذيفة ، وقد خالفوا الأزارقة في تكفير قعدة الخوارج واستحلال قتل الأطفال ، كما خالفوهم في حكم أهل الذمة الذين يكونون مع مخالفيهم ، فالأزارقة قالوا أنه لا تباح دماؤهم احتراما لذمتهم التي دخلوا بها في أمان أهل السلام ، وقال النجدات أنه تباح دماؤهم كما أبيحت دماء من يعيشون في كنفهم من المسلمين .

---

(١) سورة النور (آية / ٤) .
(٢) سورة الفتح (آية / ١ ، ٢) .

والـنجدات : يرون أن إقامة إمام ليست واجبة شرعيا بل هي واجـب وجوبـا مصلحيا ، بمعنى أنه إذا أمكن للمسلمين أن يتواصوا بالحق فيما بينهم وينفذوه ولم يكونوا في حاجة إلى إقامة إمام .

والـنجدات قـد أتوا بمبدأ عند الخوارج لم يسبقهم أحد إليه من الخوارج وهو مبدأ التقية بأن يظهر الخارجي بأنه جماعي حصنا لدمه ، ومـنعا للاعـتداء علـيه ، ويخفي عقيدته حتى يحين الوقت المناسب لإظهارها .

واتباع نجدة كانوا في الأصل باليمامة مع أبي طالوت الخارجي ولكنهم تركوه وبايعوا نجدة سنة ست وستين ، فعظم أمره وأمرهم حتى استولى على البحرين وحضرموت واليمن والطائف .

ثم كانوا كشأنهم يختلفون في أمور ثانوية ثم ينقسمون عقب ذلك الاختلاف لقد اختلفوا على نجدة أمرهم لأمور نقموها عليه : منها : أنه بعث جيشا في غزو البر ، وجيشا في غزو البحر ففضل الذين بعثهم في الـبر على الذين بعثهم في البحر في الرزق والعطاء ، ومنها أنه بعث جيشـا فأغـاروا على مدينة الرسول ﷺ وأصابوا منها جارية من بنات عـثمان بـن عفان ، فكتب إليه عبد الملك في شأنها فاشتراها من الذي كانـت فـي يديه وردها إلى عبد الملك بن مروان فقالوا له إنك رددت جارية لنا على عدونا .

ومـنها : أنـه عذر أهل الخطأ في الاجتهاد بالجهالات ، وكان السـبب في ذلك أنه بعث ابنه مع جند من عسكره إلى القطيف فأغاروا

عليه وسبوا منها النساء والذرية وقوموا النساء على أنفسهم ونكحوهن قبل إخراج الخمس من الغنيمة ، وقالوا : إن دخلت النساء في قسمنا فهو مرادنا ، وإن زادت قيمهن على نصيبنا من الغنية غرمنا الزيادة من أموالنا ، فلما رجعوا إلى نجده سألوه عما فعلوا من وطء النساء ومن أكل طعام الغنيمة قبل إخراج الخمس منها فقال لهم لم يكن لكم ذلك فقالوا لم نعلم أن ذلك لا يحل لنا فعذرهم بالجهالة ، ثم قال : إن الدين أمران :

أحدهما : معرفة الله تعالى ، ومعرفة رسله ، وتحريم دماء المسلمين ، وتحريم غصب أموال المسلمين ، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى ، جملة ، فهذا واجب معرفته على كل مكلف ، وما سواه فالناس معذورون بجهالته حتى يقيم عليه الحجة في الحلال والحرام ، فمن استحل باجتهاده شيئاً محرماً فهو معذور ، ومن خاف العذاب على المجتهد المخطئ قبل قيام الحجة ، عليه فهو كافر .

الثاني : ومن بدع نجدة أنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه ، وقال لعل الله يعذبهم في غير جهنم ثم يدخلهم الجنة ، وزعم أن النار يدخلها من خالفه في دينه .[١]

وقد تفاقم الاختلاف حول هذه الأمور واشتد وخرجت طوائف على نجده وأنكروا إمارته ، وقد انقسموا إلى ثلاث فرق :

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٥٢ – ٥٣) .

فــرقة ذهبت إلى سجستان مع عطية بن الأسود ، وهو من بني حنـيفة ، ساروا على المبادئ التي اعتقدوها حقا من مبادئ هذه الفرقة المجمع عليها منهم .

وفــرقة ثانـية ثارت على نجده وقتلته وأقامت منامه " أبا فديك وهي أقوى الفرق النجدية شكيمة وقد وضعت يدها على ما كان نجده قد اســتولى عليه ، واستمر أمرها على هذا القوة إلى أن أرسل إليها " عبد الملـك بن مروان " جيشا قد هزمهم ، وبعث برأس " أبي فديك " إلى " عبد الملك " ، وبذلك انتهى ما لهذه الفرق من سلطان .

والفــرقة الثالثة هي التي بقيت موالية لنجده وحذرته فيما نسب إلـيه ، وقــد بقيــت أمداً من غير سلطان ، ولكن انتهى أمرها وأزالها التاريخ كما أزال الأزارقة . [١]

الصفرية :

هــم أتــباع زيــاد بن الأصفر ، وهم في آرائهم أقل تطرفا من الأزارقــة وأشد من غيرهم ، وقد خالفوا الأزارقة في مرتكب الكبيرة ، فالأزارقة اعتبروه مشركا ولم يكتفوا بالحكم بتخليده في النار ، بل زادوا أنه يعد مشركاً ، وأما هؤلاء الصفرية فلم يتفقوا على إشراكه ، بل منهم من يرى أن الذنوب التي فيها حد مقرر لا يتجاوز بمرتكبها ما سماه الله من أنه زان أو سارق أو قاذف ، وما ليس فيه حد مرتكبه كافر ، ومنهم

---

(١) المصدر السابق (ص ٥٢) . وتاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبي زهرة (ج ١ ص ٧١)

من يقول إن مرتكب الذنب لا يعد كافراً حتى يحدّ الوالي .

ومن الصفرية : أبو بلال مرداس ، وكان رجلاً صالحاً ، خرج في أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة ولم يتعرض للناس ، وكان يأخذ مـن مال السلطان ما يكفيه إن ظفر به ، ولا يريد الحرب ، فأرسل إليه عبيد الله بن زياد من قتله .

ومن الصفرية أيضاً : عمران بن حطان ، وكان شاعراً زاهداً قد طـوف في الأقاليم الإسلامية فاراً بنحلته ، وقد انتخبه هؤلاء الخوارج إماماً لهم بعد أبي بلال .

ومن أخبار الذين تولوا أمر هذه الطائفة من الخوارج نتبين أنها لا ترى إباحة دماء المسلمين ، ولا ترى أن دار المخالفين دار حرب ، ولا ترى جواز سبي النساء والذرية ، بل لا ترى قتال أحد في معسكر السلطان . (١)

العجاردة :

هـم أتـباع عـبد الكريم بن عجرد أحد أتباع عطية بن الأسود الحنفي الذي خرج على نجده وذهب بطائفة من النجدات إلى سجستان ، وأنهـم لهـذا قريبون في منهاجهم من النجدات إذ هم انبعثوا من أصل نحلتهم ..

وجملـة آرائهـم أنهـم يتولـون القعدة من الخوارج أن عرفوا

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية (ج ١ ص ٧٢) . والفرق بين الفرق (ص ٥٤ – ٥٥)

بالـتقوى ، فهـم ليسوا كالأزارقة يرون وجود الجهاد باستمرار . ولا يسـيغون القعـود عن القتال لقاد رأيا كان بسبب القعود ولا يرون أن الهجـرة من دار المخالفين واجبة بل يرونها فضيلة ولا يرون استباحة الأموال ، ولا يباح مال مخالف إلا إذا قتل ولا يقتل من لا يقاتل .

وقـد افترق العجاردة فرقا كثيرة في أمور منها ما يتعلق بالقدر وقدره العبد ومنها ما يتعلق بأطفال المخالفين ، وكان ينتهي جدلهم إلى الخـلاف فينتهـي الأمر من الجدل في مسائل جزئية إلى الخلاف في قضايا كلية تصير بها فرقا مختلفة .

ومـن أمـثلة ذلك أن رجلا اسمه شعيب كان مدينا لآخر اسمه مـيمون فلمـا تقاضى هذا دينه ، قال شعيب : أعطيكه إن شاء الله فقال مـيمون : قـد شاء الله ذلك في هذه الساعة ، فقال شعيب : لو شاء لم أسـتطع إلا أن أعطيكه فقال ميمون قـد أمر بذلك وكل ما أمر به فقد شـاءه ، وما لم يشاء لم يأمر به ، فأرسل شعيب وميمون إلى رئيسهم وإمامهم عبد الكريم بن عجرد فأجابهم إجابة مبهمة ، وهي إنما نقول ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن لا نلحق بالله سوءا .. ولهذا الإبهام في الإجابـة ادعـى كل منهم أن الإجابة توافق رأيه وانقسم العجاردة إلى شعيبة وميمونة .

ويـروي أن عجرديا اسمه ثعلبة له بنت فخطبها عجردي آخر وأرسل إلى أمها يسألها ، ويقول في سؤاله : إن كانت قد بلغت ورضيت الإسـلام علـى الشـرط الذي يعتبره العجارد لم يبال كم كان مهرها .

فأجابت الأم أنها مسلمة في الولاية سواء أبلغت أم لم تبلغ ، فرفع الأمر إلى عبد الكريم ، فاختار البراءة من الأطفال ، وخالفه ثعلبة وانبعثت من الفــرقة فــرقة أخرى اسمها الثعلبية ، وهكذا نجد خلافا جزئيا ربما لا يكــون له صـــلة بالسياسة يترتب عليه الانقسام إلى فرقتين أو انشعاب طائفة منهم إلى فرقة قائمة بذاتها . (١)

الأباضية :

هــم أتباع عبد الله بن أباض وهم أكثر الخوارج اعتدالا وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيرا ، فهم أبعدهم عن الشطط والغلو ، ولذلك بقوا ولهم فقه جيد وفيهم علماء ممتازون ، ويقيم طوائف منهم في بعض واحـــات الصحراء الغربية ، وبعض آخر في بلاد الزنجبار ولهم آراء فقهــية ، وقــد اقتبست – القوانين المصرية في المواريث بعض آرائهم وذلك في الميراث ، بولاء العتاقة ، فإن القانون المصري أخره عن كل الورثة حتى عن الرد على أحد الزوجين ، مع أن المذاهب الأربعة كلها تجعلــه عقــب العصـــبة النســبية ويسبح الرد على أصحاب الفروض الأقارب . (٢)

جملة آراء الإباضية :

أ – أن مخالفــيهم مــن المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين ، ويســـمونهم كفارا ويقولون عنهم أنهم كفار نعمة لا كفار في الاعتقاد ،

(١) تاريخ المذاهب للشيخ أبي زهرة (جـ ١ ص ٧٢ – ٧٣) .
(٢) المصدر السابق (جـ ١ ص ٧٣) .

وذلك لأنهم لم يكفروا بالله ، ولكنهم قصروا في نجنب الله تعالى .

ب – دمـــاء مخالفـــيهم حـــرام ، ودارهم دار توحيد وإسلام إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي .

جـ – لا يحـــل مـــن غـــنائم المسلمين الذين يحاربون إلاّ الخيل والسلاح وكل ما فيه من قوة في الحروب ويردون الذهب والفضة .

د – تجـــوز شـــهادة المخالفين ومناكحتهم والتوارث بينهم وبين الخوارج ثابت ، ومن هذا كله يتبين اعتدالهم وإنصافهم لمخالفيهم .[١]

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (جـ ١ ص ١٤١) .

{ مناقشة بعض آراء الخوارج }

١ – مرتكب الكبيرة والأعيان :

مـــن الآراء الخطيرة التي قال بها الخوارج القول بكفر مرتكب الكبــيرة الــذي مات بدون توبة مع القول بخلوده في النار ، وإن كانت بعــض فــرقهم قد خففت الأمر فقالت إن مخالفيهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين ، وإنما هم كفار نعمة .

ومن هذا المنطق حكموا بكفر عليّ وعثمان والحكمين وأصحاب الجمــل وكــل من رضي بتحكيم الحكمين ، أما تكفير عليّ ﷺ فلقبوله التحكــيم – كمــا مر – وأما بالنسبة إلى عثمان ﷺ فقد حكموا بصحة خلافته أولا فلما غير وبدل ولم يسر سيرة الشيخين أبي بكر وعمر في زعمهم وجب عزله .

وأما تكفيرهم لأصحاب الجمل فلخروجهم على الإمام الشرعي ، يقول أحد مفسري الخوارج عند حديثه عن قول الله تعالى : **﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لمستخلفنهم في الأرض ﴾** (١)

قــال المخــالفون – أي الخوارج – عن الضحاك : " وإن الذين آمــنوا هــم أبــو بكر وعمر وعثمان وعليّ ، وأن استخلافهم إمامتهم العظمــى ، وسيأتي ما يدل على بطلان دخول عثمان وعليّ في ذلك ثم يقــول " وفــي أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وبعدهم كانت الفتوح

---

(١) سورة النور (آية / ٥٥) .

العظيمة وتمكن الدين لأهله " .

ولكــن لا دلــيل في ذلك على إصابة عثمان وعليّ فإنهما وإن كانت خلافتهما برضا الصحابة ، ولكن ما ماتا إلا وقد بدلا وغيرا فسقا كما جاء في أحاديث عنه ﷺ أنهما مفتونان .

ويقوم القول بتكفير مرتكب الكبيرة عند من قال به من الخوارج على نظرتهم في الإيمان ، فقد رأوا أن الإيمان أمر كلي لا يتجزأ وأنه عــبارة عــن قول وعمل فمن صفف الإيمان بجميع أقواله وأفعاله فهو مؤمن والإيمان يطلق على مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل .

وإن كــان هــناك اخــتلاف بين الخوارج بشأن انضمام العمل والإقرار إلى الاعتقاد هل ينضمان على أساس أن يكونا مكملين أم أنهما ركنان داخلان في ماهية الإيمان ؟

يقول أحد مفسري الخوارج في تفسير قوله تعالى ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [١]

فمــن أهل بالاعتقاد وحده أو به وبالعمل فهو مشرك من حيث الإنكار منافق أيضا من حيث أنه أظهر ما ليس في قلبه وكأنه يريد هنا إذا ما صاحب هذا الإخلال بالعمل والاعتقاد إقرار باللسان .

ثــم يقول " ومن أخل بالإقرار وحده فهو مسلم عند الله من أهل

---

[١] سورة البقرة (آية / ٢ ، ٣) .

الجنة ، وإن أخل به وبالعمل ففاسق كافر كفر نعمة ، وإن أخل بالعمل فقط فمنافق عندنا فاسق ضال كافر كفر دون شرك غير مؤمن الإيمان التام .

ثم يقرر أن مذهب محدثي الخوارج : أن انضمام العمل والإقرار إلى الاعتقاد على التكميل لا على أنه ركن .

ثـم يقـول ونحن نقول انضمامهما إليه ركن وهما جزء ماهيته ويسـتدلون بعطف العمل الصالح على الإيمان في معظم ما ورد بشأن الإيمـان فـي القرآن على كون العمل ركنا في الإيمان ، مثل قول الله تعـالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ (١)

يقولـون : " تـرى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة بقيد فيحمل سـائر كلامه المطلق على هذا التقييد ، فكيف يسوغ أن يلغي تقييد الله عز وجل الإيمان بالعمل الصالح مع أنه لا يكاد يذكر الفعل من الإيمان إلا مقـرونا بـالعمل الصـالح بل الإيمان نفسه مفروض لعبادة من يجب الإيمـان بـه وهـو الله تعالى إذ لا يخدم الإنسان مثلا سلطانا لا يعتقد بوجـوده وثـبوت سلطته ، فالعمل الصالح كالبناء النافع المظلل المانع للحر والبرد والمضرات والإيمان أسس ، ولا ينفع الأس بلا بناء عليه .

ولـو بنـي الإنسـان ألوفـا مـن الأسس ولم يبن عليها لهلك

---

(١) سورة البقرة (آية / ٢٥) .

بااللصوص والحر والبر وغير ذلك ، فإذا ذكر الإيمان مفردا قيد بالعمل الصالح وإذا ذكر العمل الصالح فما هو إلا فرع الإيمان إذ لا نعمل لمن لا نقر بوجوده . (١)

هــذه هي نظره الخوارج إلى الإيمان يدخل العمل في تكوينه ، وهو ركن فيه ومن هنا فإن من لم يتشوق العمل كان إيمانه كلا إيمان ، ومن هنا كفروا مقترف الكبيرة وحكموا بخلوده في النار استدلالا بقول الله تبارك وتعالي : ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ (٢)

فهــم يفســرون مثل هذه الآية على مقتضى مذهبهم ويدفعون ما يراه خصومهم فيفسرون السيئة في هذه الآية بالخطة القبيحة وهي الذنب الكبــير ســواء كــان نفاقا أو إشراكا ، ويرون أن من الذنوب الكبيرة الإصرار فهو في رأيهم كبيرة سواء كان على الصغيرة أو على الكبيرة.

والدلــيل على أن السيئة هي الكبيرة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ويدفع مفسرهم كون المراد بالسيئة في هذه الآية هو الشرك قائلا : " وإن قلت روى قومنا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن السيئة هنا الشرك قلت ما ذكرته أولى ، فإن لفــظ السيئة عام وحمله على العموم أولى ولا سيما وأن قومنا يعترفون بــأن الكبــيرة تدخــل فاعلها النار ولم يحصروا دخولها على الشرك ،

---

(١) اللآلئ الحسان في علوم القرآن ص ٤٢٢ - ٤٢٢

ويعـــترفون أيضا بأن لفظ الخلود يطلق على المكث الطويل سواء كان أبديـا أو غـير أبدي ، ثم يقررون هنا أن ادعاء الخلود في الموحدين بمعـــنى المكث الطويل وفي الشرك بمعنى المكث الدائم استعمال للكلمة في حقيقتها ومجازها وهو ضعيف .

ويفســـرون قولـــه تعالى : ﴿ **وأحاطت به خطيئته** ﴾ بقولهم أي ربطته ذنوبه وأوجبت له دخول النار فصار لا خلاص له ، منها كمن أحـــاط به العدو أو الحرق أو حائط السجن ، وبذلك بأن مات غير تائب ويندون بأهل السنة في قولهم : إن صاحب الكبيرة يعذب في النار على قدر معصيته . ثم يدخل الجنة بعد ذلك

ويـــرون فـــي ذلك مضاهاة كقول اليهود في قولهم ﴿ **وقالوا لن تمســـنا النار إلا أياما معدودة** ﴾ [١] قيل في قوله تعالى : ﴿ **ربما يود الذيـــن كفـــروا لـــو كانوا مسلمين** ﴾ إن ذلك يحدث منهم حين رؤيتهم المسلمين يخرجون من النار بعد استيفاء عقوبتهم على المعاصي .

وروى عـــن سـعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيروا حد من التابعيـــن فـــي تفســـير هـــذه الآية ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ إذا أخرج أهل التوحيد من النار وأدخلوا الجنة ودَّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين . [٢]

ويـــرى الخـــوارج فـــي قولـــه تعالى : ﴿ **إن الله يغفر الذنوب**

---

[١] **سورة الحجر (آية / ٢) ، وشرح السنة (جـ ١ ص ١٠٧)**

[٢] **شرح السنة (جـ ١ ص ١٠٧) .**

جمـيعاً ﴾ إن ذلك بشرط التوبة بدليل التقييد بها في مواضع من القرآن والسنة للغفران فذكرها فيما ذكرت ذكر لها وما لم تذكر وإنما تحذف لدليل والقرآن في حكم كلام واحد لا يتناقض حاشاه .

ومن ناحية أخرى : لا يليق أن يذكر أن الله تعالى يغفر الكبائر دون توبـة مع أنه تعالى نهي عن هذه الكبائر ، لأن ذلك يؤدي بالناس إلى الاجتراء عليها .

والمـراد بالآية التنبيه على أنه لا يجوز لمن عصى الله – أي عصـيان – أن يظن أن الله لا يغفر له ولا تقبل توبته ، ثم لا يرتضون قـول مـن قال إن غير الشرك يغفر بلا توبة وأن من مات غير تائب يرجى له إن شاء الله عذبه بقدر ذنبه وأدخله الجنة .

وواضـح مما تقدم من رأي الخوارج في مرتكب الكبيرة وكفره أن ذلك عندهم يرتكز على ما قرروه بشأن الإيمان والعمل كركن أساسي بحيث لا يعقد بدونه .

ثـم هم من ناحية أخرى يحاولون الاستناد إلى القرآن الكريم في اعتبار العمل جزءا من حقيقة الإيمان كما مر في استدلالاتهم من اقتران الإيمان غالبا بالعمل الصالح وحمل المطلق على المقيد كما سبق .

ومن هنا فإن من أتى بالكبيرة فقد أخل بجزء من جوهر الإيمان وهـو العمـل ، وهم يتعلقون في ذلك بالقرآن الكريم مع أنه لا يؤيدهم تأيـيداً مباشرا علاوة على مخالفتهم لما ورد بشأن الإيمان والتكفير عن رسول الله ﷺ .

" ورأيهم في خلود مرتكب الكبيرة الذي لم يتب متفرع على رأيهم في الإيمان والكفر ، ومسألة الإيمان والكفر كانت منطلق الخوارج إلى ما ارتكبوه في حق مخالفيهم من استباحة دمائهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم في حروبهم معهم كما تقدم .. "

ولذلك كله كانت مسألة الإيمان والكفر هي أهم ما جاء عن هذه الفرقة من آراء شاردة .

والخوارج كفرقة إسلامية ترى أن مما يدعم رأيها أن تحاول اجتذاب بعض النصوص الإسلامية للتدليل على هذه الآراء إلا أن طريقتهم في الاستدلال تتم بما اتسم به هؤلاء من السطحية وعدم التعمق ، وقد كانت لهم أدلة قرآنية تسندهم من وجهة نظرهم في إكفار مرتكبي الكبيرة وهذه الأدلة في الغالب محملة فوق ما تحتمل أو قل هم طوعوها لتطابق مذهبهم .

والخوارج يستدلون على مذهبهم هذا بكثير من الأدلة.

الدليل الأول : استدل الخوارج بقول الله تعالى **﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾**[1] ، فهذا دليل على كفر صاحب الكبيرة لأنه حاكم بغير ما أنزل الله ، ووجه استدلالهم بهذه الآية ، أن كلمة " من " عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله فيدخل فيه الفاسق المصدق ، وأيضاً فقد علل كفرهم بعدم الحكم ، فكل من لم يحكم بما

---

[1] سورة المائدة (آية / ٤٤) .

أنــزل الله كان كافرا والفاسق لم يحكم بما أنزل الله .. " [١] ، فيكون كافــرا ، ولكن خصوم الخوارج لم يسلموا بهذا الدليل وكان لهم عليه عدة اعتراضات :

أولا : أن الحكم هنا الوارد في الآية الكريمة بمعنى التصديق ، ولا شك أن من لم يصدق ببعض ما أنزل الله يكون كافرا .

ثانيا : أنه يحتمل أن يكون معنى الآية ، ومن لم يحكم بكل ما أنزل الله فهو كافر ، فيدخل فيه الحكم بحل ما حرم الله ، كشرب الخمر والزنا .

ثالــثا : أن هذه الآية نزلت في حق اليهود ، فيكون المراد بما أنزل الله هو التوراة وعليه تكون "من" الموصولة لليهود فقط ، ويقوي هذا أن سـياق الآية مع ما قبلها يدل على أنها نزلت في حق اليهود ، فيلزم أن يكونوا كافرين إذا لم يحكموا بالتوراة ، وشرعهم ليس شرعا لنا . [٢]

الدليل الثاني : قوله تعالى : ﴿ **وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ [٣] ، فإنــه يـدل علـى أن كل من يجازي فهو كافر وصاحب الكبيرة ممن يجازي لقوله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم** ﴾ [٤] ، فيكون كافرا . [٥]

---

(١) شرح المواقف (جـ ٨ ص ٣٣٤) .
(٢) المصدر السابق (جـ ٨ ص ٣٣٤) . وانظر قضية التكفير في الفكر الإسلامي : د / أمين راشد (ص ٧١) – طبعة : أولى – سنة ١٩٨٥م – دار الهدى للطباعة .
(٣) سورة سبأ (آية / ١٧) .
(٤) سورة النساء (آية / ٩٣) .
(٥) شرح المواقف (جـ ٨ ص ٣٣٤) .

ويجاب عن ذلك : بأن الظاهر من الآية وهو حصر الجزاء في الكفور متروك إذ يجازي غير الكفور وهو المثاب لأن الجزاء كما يطلق علــى الــثواب يطلق أيضا على العقاب ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخــرى : فإن الحصر فيها متروك أيضا لأن المجازاة تكون في الخير والشر وعليه فلا يصح حصرها في الكفور لقوله تعالى : ﴿ **اليوم تجزي كل نفس بما كسبت** ﴾ (١)

وحينئذ يكون المراد من الآية جزاء شديدا خاصا بالكفور ، يدل علــى ذلك سياق الآية الكريمة وهي : ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا** ﴾ ، والعاصــي صــاحب الكبيرة ليست له هذه المجازاة الشديدة، فجاز أن يجازي مجازاة مغايرة لما يختص به الكافر . (٢)

والدلــيل الثالث : قوله تعالى : ﴿ **ومن كفر فإن الله غني عن العالميــن** ﴾ (٣) فقد جعل ترك الحج كفرا ، لأن الله تعالى أطلق عليه الكفر .

ولكــن يجاب عن ذلك بأن المراد من جحد وجوب الحج ، وهذا لا شك في كفره .

الدليل الرابع : قوله تعالى حكاية عن موسى وهارون : ﴿ **إنا قد**

---

(١) سورة غافر (آية / ١٧) .
(٢) شرح المواقف (جـ ٨ ص ٣٣٥) .
(٣) سورة آل عمران (آية ٩٧) .

أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ [١]

فإنه يدل على انحصار العذاب في المكذب وهو كافر ، ولا شك أن الفاسق معذب لما ورد فيه من الوعيد .

ويجـــاب عــن ذلـــك : بـــأن الآية لا يراد منها ظاهرها فيكون المـــراد مـــن العذاب المقصور على المكذب هو العذاب الشديد الخاص بالمكذبين ، وقد استدل صاحب المواقف على أن المراد بالعذاب عذاب مخصـــوص بأن شارب الخمر والزاني معذبان مع أنهما غير مكذبين ، وإن كان يلزمهما التكذيب ، وفرق بين من كذب صراحة وبين من لزمه التكذيـــب بمعنى أن شارب والزاني غير مكذبين ، وإن كان أقدمهما على شرب الخمـــر والزنا مع قيام الدلائل على حرمتها يدل على التكذيب ، وإن لم يقع منهما صراحة بل ضمنا . [٢]

الدليل الخامس : قوله تعالى **﴿ فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى ﴾** [٣]

ويمكـــن نظم دليل يوضح وجه الاستدلال بالآيات الكريمة على الـــنحو التالـــي : العاصـــي يصلي النار وكل من يصلاها فهو الأشقى المكذب ، والمكذب كافر ، فيكون من يصلي النار كافرا .

---

(١) سورة طه (آية / ٤٨) .

(٢) قضية التكفير في الفكر الإسلامي : د / أمين راشد (ص ٧٣)

(٣) سورة الليل (آية / ١٤ – ١٦) .

ولكن يجاب عن ذلك بما يلي :

أولا : أن هــذه الــنار نار مخصوصة ، وهي الخاصة بالأشقى المكذب بدليل عود الضمير في يصلاها إلى نارً وهي نكرة فتكون نارا من نوع مخوص .

ثانيا : أن الصفة هنا صفة مخصصة لا كاشفة أي نار لها صفة خصصتها بالأشقى المكذب ، فلا يتافى أن العاصي له نار ليست لها هذه الصفة . (١)

الدلــيل السادس : قوله تعالى : **﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذيــن خسروا أنفسهم في جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾** (٢)

ويمكــن الاســتدلال بهــذه الآيات الكريمة بدليل نظمه هكذا ؛ العاصــي : خفت موازينه ، وكل من خفت موازينه فهو مكذب ، وكل مكذب فهو كافر .

ولكــن يجاب عن ذلك بمنع المقدمة الصغرى لأن العاصي تثقل موازينه بالإيمان فلا يكون مندرجا تحت من خفت موازينه .

ولكــن هذا الجواب لم يسلم به ، لأن العاصي لو كان من ثقلت

---

(١) شــرح المواقــف (جـ ٨ ص ٣٣٥) ، وقضــية التكفــير فــي الفكــر الإســلامي (ص ٧٣ ـ ٧٤) .

(٢) سورة المؤمنون (الآيات ١٠٣ ـ ١٠٥) .

موازيـــنه لكان في عيشة راضية مع أن الأمر ليس كذلك ، ولا يقال أن مآله إلى ذلك ؛ لأن هذا بعيد من معنى الآية .

الدلـــيل الســـابع : قوـــله تعالى : ﴿ **يوم تبض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ [١]

ويمكـــن نظـــم الدلـــيل من الآية الكريمة هكذا : العاصي مسود وجهـــه ، وكـــل مسود الوجه بالمعصية يكون كافرا ، وإذن فالعاصي كافر .

وهكـــذا نرى الخوارج في كل هذه الأدلة التي قدموها على كفر مرتكـــب الكبيرة إنما يتمسكون بظواهر النصوص ويتأولونها على غير وجهها الصحيح .

ولهـــذا فقـــد ناقشـــهم الإمام عليّ بعمل الرسول ﷺ ولم يجادلهم بالنصوص وذلك على نحو ما سبق .

٢ – بقيت مسألة أخيرة فيما يتعلق بمناقشتنا للخوارج ، وهي : إنكـــارهم لـــرجم الزاني المحصن ، انطلاقا من أنه لم يرد في القرآن الكريم بشأنه شيء .

وبصـــرف الـــنظر عما قيل في شأن الناسخ والمنسوخ في هذه المسألة وما قيل في نسخ التلاوة دون الحكم

---

[١] سورة آل عمران (آية / ١٠٦) .

فإن ذلك من الخوارج بقي على تجاهل لمكانة السنة المطهرة في التشريع وهو أمر بالغ الخطورة ، حيث أن السنة هي الشارحة للقرآن ، والمفصلة لمجملة ، وهناك أمور هي من فرائض الإسلام ، بل أركانه كانت السنة هي المحددة لها وقتا وكيفيته كأوقات الصلاة وعدد ركعاتها وترتيبها وهيئتها والنصاب في الزكاة ومناسك الحج .

وإذا كان قد قيل عن الخوارج أنهم أولي تقوى وورع وخوف من الله وخشية إلى حد أن كانت جباههم قرحة من كثرة السجود وقيام الليل .

فعن من أخذوا يا ترى صفة الصلاة وهيئتها المعروفة ؟ وعن من أخذوا تفصيلات العبادات الأخرى ؟ .

إن كل ذلك مصدره السنة النبوية بعد بيان القرآن الإجمالي له .

فإذا رفضنا السنة كمصدر للتشريع ضاع نصف الدين تقريبا ، وتستمد السنة قيمتها من حيث إن صاحبها رسول الله ﷺ ما ينطق عن الهوى ، وإنما هو المعصوم الذي يصدر عن أمر ربه ، ومكانة السنة في التشريع تأتي بعد كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن بم تحكم ؟ قال بكتاب اله تعالى ، قال فإن لم تجد ؟ قال فبسنة رسول الله ﷺ ، قال : فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأى ولا آلو ، قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحبه الله ورسوله . هكذا أمر السنة ، وقد أوجب القرآن نفسه اتباعها ، قال تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه**

فانتهوا ﴾ (١)

وإذا كان الجلد ثابتا بالنص النبوي – أعني الحديث الشريف فقد روى الإمـام مسلم وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت أنه قال كـان النبي ﷺ إذا أنزل الوحي عليه كرب أي أصبح كالمكروب لذلك وتربد وجهه .

فأنـزل الله عليه ذات يوم فلقي كذلك فلما أسرى عنه قال خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم .

والرسـول يشـير بذلـك إلى انتهاء حكم الزنا أو حداه المؤقت المشـار إلـيه بقولـه تعـالى : **﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً ﴾** (٢)

وقـد ثبـت الـرجم بفعـل النبي ﷺ ، وفعل الصحابة من بعده والخـوارج فـي إنكارهم للرجم شأنهم في مرتكب الكبيرة ، والتكفير ، يحرصـون علـى الارتباط بالشرع ويحضرونه على ما يقولون بعض الأدلـة التي تقوي مذهبهم من وجهة نظرهم في نفي الرجم كحد الزنا ، ويمكن إيجاز هذه الأدلة فيما يلي :

---

(١) سورة الحشر (آية /) .

(٢) سورة النساء (آية /) .

أولاً : قالوا إن الرجم أشد العقوبات فلو كان مشروعا : لذكر في القــرآن الكريم ، ولما لم يكن الرجم مذكورا في القرآن فإن ذلك دلالة على أنه غير مشروع .

ولكــن لــم يســلم للخوارج هذا الدليل لأن عدم ذكر الرجم في القــرآن الكريم لا يدل مطلقا على عدم المشروعية وذلك لأن كثيرا من الأحكــام الشــرعية لــم تذكــر في القرآن ، وإنما تكلفت ببيانها السنة المطهــرة ، وقــد ســبق لنا القول : بأننا مأمورون باتباع ما يأمرنا به الرســول ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ فكأننا مأمورون أمراً قرآنيا باتباع رسول الله ﷺ ، فيصبح بالتالي أمره كأمره ونهيه كنهيه في صحيح الخبر .

وعقيدتنا فيه ﷺ أنه ما ينطق عن الهوى وقد فعله النبي ﷺ وأمر بــه وكمــا تقــدم لــنا القول أيضاً أن مهمة الرسول هي البيان للناس ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين ما أنزل إليهم ﴾

وقــول الرسول ﷺ في حديث عباده بن الصامت الذي مر ذكره هو من هذا القبيل أي من قبيل البيان وهو نص على حكم الرجم للزاني المحصن .

وقــد أشــار الرسول ﷺ إلى هذه الكلمة أو البيان في قوله : ألا وإنــي أوتيت القرآن ومثله معه ، وبقية نص الحديث هي معجزة له ﷺ حيــث ينبــئ بحــال فعل طائفة الخوارج ممن ينكرون السنة والحديث مــروي في الصحاح ، " يوشك كأحدكم جالسا على أريكته يأتيه الأمر

ممــا أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندري ، ما وجدنا في كتاب الله أخذنا وما لم نجد لم نأخذ ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه .. " .

ثانــيا : إن حــد الأمـــة نصــف حد الحرة بدليل قوله تعالى :

﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ .

والـــرجم لا ينتصف فلا يصح أن يكون حدا للحرة ، ولكن ليس في الآية الكريمة دليل على عدم مشروعية الرجم كما يدعي الخوارج ، فإن الآية الكريمة أشارت إلى أن العذاب هنا هو الجلد لا الرجم ، بدليل التنصـــيف في العقوبة ، لأن الرجم لا يتأتى أن ينصف ، والله سبحانه وتعالى يعلم أن الرجم لا ينصف ولا يمكن للناس أن يميتوا إنسانا نصف موته مثلا فدل العقل والفهم السليم على أن المراد بالعقوبة المنصفة هي عقوبة الجلد لا الرجم .

ثالثا : إن الحكم عام في جميع الزناة (حكم الجلد) وتخصيص الزاني المحصن من هذا الحكم مخالف للقرآن .

وهـــذا الكلام نفي الحقيقة مبني على جهل فاحش بعلاقة القرآن والسنة كل بالآخر ، فكثير من الأحكام جاءت عامة وخصصتها السنة أو مجملة وفصلتها السنة .

وعلـــى ســـبيل المـــثال : فقوله تعالى : **﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾**[1]

---

[1] سورة المائدة (آية /)

فلفظ الآية هنا عام يشمل كل سارق حتى ولو كانت سرقته لشيء غير ذي قيمة .

وهـنا نجد السنة قد خصصت هذا العموم فجعلت الحد في ربع ديـنار أو ما قيمته عشرة دراهم ، فليس مجرد سرقة أي شيء يوجب القطع بل نصاب معين لا يقطع في دونه وإن كان يعذر .

ومـن هـذا القبيل كذلك آية التحريم بالرضاع فقد جاء في هذا الشـأن قـول الله تعالى : **﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ... ﴾** (١)

فهذه الآية مثلاً لم تنص إلا على بعض المحرمات من الرضاع ، ولكـن السـنة بينت وفصلت حيث قال عليه الصلاة والسلام يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب .. "

فيجـب أن تكون حرمة البنت من الرضاع غير ثابتة لمخالفتها للقرآن طبقا لما يحجه الخوارج .

كذلك في تحريم الجمع بين الأختين ، وأن تجمعوا بين الأختين ، " وألحقت السنة بهما العمة وبنت أخيها والخالة وبنت أخيها وطبقا لمبدأ الخـوارج لا تصـبح هاتـان الصورتان محرمتين إذا ما أخذنا بالقرآن وحده ، وتركنا السنة على مذهب الخوارج هذا . (٢)

---

(١) **سورة البقرة (آية /) .**
(٢) **تفسير آيات الأحكام .**

وقد أجمع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ومن تقدم من السلف وعلماء الأمة والأئمة المسلمين على أن المحصنين يرجم بالحجارة حتى يموت ، وإنكار الخوارج ذلك باطل لا أنهم أن أنكروا فيه حجية إجماع الصحابة ، فجهل مركب ، وإن أنكروا وقوعه من رسول الله ﷺ لإنكارهم فيه حجية خبر الواحد ، فهو بعد بطلانه بالدليل ليس مما نحن فيه لأن ثبوت الرجم منه عليه السلام متواتر المعنى وهم كسائر المسلمين يوجبون العمل بالمتواتر معنى كالتواتر لفظا إلا أن انحرافهم عن الصحابة والمسلمين أوقعهم في جهالات كثيرة ولهذا حين عابوا على عمر بن العزيز القول بالرجم من كونه ليس في كتاب الله تعالى ، ألزمهم بأعداد الركعات ومقدار الزكاة ، فقالوا ذلك من فعله ﷺ والمسلمين فقال لهم وهذا أيضا كذلك واحتجاج الخوارج على عمر بن عبد العزيز ﷺ بأنه ليس من فعله ﷺ جرهم إليه ندرة الرجم إلى حد ما في عصر الرسول ﷺ ، بل وفي عصر غيره ، بل والجلد أيضا .

لأن الله سبحانه وتعالى قد أمر بالاحتياط في إثبات هذه الجريمة احتياطا ما فوقه احتياط ، حيث لا تستوجب الحد إلا بالإقرار أو بشهادة الأربعة المتفقين في الوصف وكل تفصيلات هذه الجريمة بحيث لو خل أحدهم أو حتى نسى بجلد الباقون حد القذف لعدم استكمال النصاب ، علاوة على تعذر ذلك تعذرا هو أقرب إلى الاستحالة ولذلك فإن حالات الرجم كانت غالبا بالإقرار ، وليست بشهادة الأربعة .

ويرجع حرص الشارع الحكيم في هذه الجريمة إلى أنها تتعلق

بالعــرض والشرف وهو من أقدس ما يحافظ عليه الإنسان وقد يستحب الإنســان العفــو عن القاتل مثلا ، لكنه يتعذر عليه جدا أن يتسامح مع شــرفه ، ومــن هنا كان الاحتياط في الشهادة حتى يعطي الشرع لهذه الناحية قداستها ويجعل من الصعب مسها أو خدشها . ويكفي أن نعلم أن الشــرع حتى في جريمة القتل لم يطلب هذا النصاب من الشهداء على هذه الصفة .

والإقرار لا يقدم عليه إلا من رزق درجة من الصدق مع نفسه ويحمــل مسئولية هذا العار الذي لا تزول آثاره اجتماعيا حتى ولو أفهم عليه الحد ، وهذا كله ندرة في إقامة حد الزنا عموما فالحالات نادرة . ولعــل هــذه كانت ملاحظة الخوارج ولو أنها خاطئة حيث يثبت الفعل عسره ويثبت التشريع بمجرد الأمر ولو لم يطبق مرة واحدة .

ولعل من الفتن عن الذكر أن نقول أن هذا الحكم الزنا بناء على هذا النصاب والصفة المتعسرين والمستحلين هذا الحكم هو حكم قضائي دنيوي ليس إلا .

لكــن الحكم ديانة وأمام الله الذي يعلم السر وأخفى هو المطابق للحقيقة الواقعة فالزاني زان أمام الله يوم القيامة ولو لم يره أحد ، وذلك لأن يــوم القيامة لا يحتاط فيه للفضائح بل هو يوم ظهورهم علنا على رؤوس الأشهاد يوم العرض على الله تعالى . (١)

---

(١) أضواء على الفرق الإسلامية : د / محمود بركات (ص ١٣٧ ـ ١٤٣)

المرجئة (١) :

فرقة المرجئة من الفرق التي انبثقت مباشرة عن أحداث الفتنة ، شأنها في ذلك شأن الخوارج والشيعة .

وإذا كـــان تكون فرقة الشيعة والخوارج قد حدث نتيجة مواقف إيجابية اتخذتها كل فرقة في الأحداث التي جرت بين أقطاب الصحابة ، فإن فرقة المرجئة تكونت أول ما تكونت نتيجة موقف سلبي في ظاهره هـــو أشـــبه ، بالتفويض ولذلك بعدت في أولها عن الاحتكاك بمجريات الأحداث سواء كان هذا الاحتكاك عمليا حربيا أو فكريا نظريا . (٢)

(١) أن كلمـة المرجئة اسم فـاعل مـن الأرجـاء وأن الإرجـاء يأتـي فـي العربـية علـى معنيين : الأول التأخير . تقول " أرجأت كذا " تريد أخرته . وفي القران الكريم في قصة موسى ﷺ: ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ﴾ أرادوا أخره وأمهله . والمعنى الثاني للإرجاء : إعطاء الرجاء . تقول " أجريت فلانا " تريد أنك أعطيته الرجاء والهمزة في أخر الإرجاء على المعنى الاول أصلية . وعلى المعنى الثاني منقلبة عن حرف العلة ثم تقول أنه يجوز ان يتكون تسمية هذه الفرقة بالمرجئة مأخوذة من المعنى الأول لأنهم كانوا يوخرون العمل عن النية وعقد القلب . ويجوز أن تكون مأخوذة من المعنى الثاني لأنهم كانوا يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فقد كانوا يعطون المومن العاصي الرجاء في ثواب الله ثم أعلم أن من الناس من يقول الإرجاء : تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة . فلا يقضي عليه في الدنيا بحكم ما . وعلى هذا تكون المرجئة فرقة مقابلة للوعيد به . ومن الناس من يقول الإرجاء تأخير عليّ بن ابي طالب ﷺ من الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة وعلى هذا تكون المرجئة فرقة مقابلة للشيعة (هـامش مقـالات الإسـلاميين للأشـعري (جـ ١ ص ٢١٣) . والملـل والـنحل للشهرستاني (جـ ١ ص ١٤٥) .

(٢) د / محمود بركات : أضواء على الفرق الإسلامية (ص ١٤٥) .

وقـد كانـت البذرة الأولى التي نبتت منها هذه الفرقة في عهد الصحابة في آخر عصر عثمان ﷺ ، فإن القالة في حكم عثمان وعماله قـد شاعت وذاعت وملأت البقاع الإسلامية وظهرت الفتن التي انتهت بقتله ، وفي أثناء ذلك اعتصمت طائفة من الصحابة بالصمت وتجملت بالامتـناع عن الاشتراك في تلك الفتن التي مرج المسلمون فيها حرجا شـديدا وتمسكوا بحديث أبي بكر ﷺ عن النبي ﷺ إذ قال عليه الصلاة والسلام " ستكون فتن القاعد فيها خير من الماش ، والماشي فيها خير مـن الساعي ألا فإذا أنزلت أوقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه .

فقال رجل يا رسول الله من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟؟

قـال عليه الصلاة والسلام يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لينج إن استطاع النجاة " .

بناء على هذا التوجيه النبوي الكريم اتخذت هذه الطائفة موقفها فأرجأوا الحكم في أي الطائفتين أحق ؟ وفوضوا أموركم إلى الله سبحانه وتعالى .

يقول الشيخ أبو زهرة تعليقا على هذا الحديث " إن القضايا كانت بين الصحابة مشتبهة حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب " (١)

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية (جـ ١ ص ١١٤) .

ومــن هذا الموقف المرجئ لبعض كبار الصحابة تولد نوع من الــتردد عند طائفة من المسلمين الغزاة الذين لم يكونوا في المدينة وقت الفتنة هذا التردد أدى بهم إلى الإرجاء .

فقــد كان هؤلاء في المغازي فلما قدموا المدينة بعد مقتل عثمان ﷺ ، وكـــان عهدهم قبل خروجهم بالناس في المدينة اتحاد الأمر وعدم الاختلاف ، فقالوا : تركناكم وأمركم واحد وليس بينكم اختلاف ، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول : قتل عثمان مظلوما وكان أولى بالعدل هو وأصحابه ، وبعضكم يقول على أولى بالحق وأصحابه كلهم ثقـــة وعـــندنا مصدق فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد بينهما ونرجـــئ أمـــرهما إلـــى الله حـــتى يكـــون الله تعـــالى هو الذي يحكم بينهما . (١)

وهـــنا نلمح في الإرجاء نوعا من الموازنة بين أقطاب النزاع ، وهـــي موازنـــة فكـــرية انتهـــت إلـــى هـــذا التفويض أو الإرجاء ، كمـــا أن الإرجـــاء هـــنا يعتـــبر موقفا فلسفيا أو علميا بالنسبة لهؤلاء الذيـــن لـــم يحضـــروا الفتـــنة ، وصادفهم هذا التضارب في الآراء ، وفـــي نفـــس الوقـــت هم فقدوا القدرة على الترجيح لأي من الطرفين الآخريـــن بسبب غيابهم عن ساحة الأحداث ، ومن هنا فإن موقفهم هذا موقـــف علمي إلى حد كبير ، وقد كانت الشيعة والخوارج قد أخذتا في الـــنحو ونشـــأت عند الخوارج مسألة مرتكب الكبيرة وكفره بناء على

(١) المصدر السابق (ص ١١٤) .

نظرتهم إلى الإيمان .[١]

فلسفة الإرجاء :

كانـــت البيئة الإسلامية قد انقسمت فعلا على نفسها إلى مذاهب متنافرة ، كل مذهب يحاول التمسك بسند قرآني أو نبوي على ما يدعيه من تضليل أو تكفير خصومه .

فالخوارج مثلا كانوا يرمون عليا ﷺ بالكفر ، وكذلك معاوية بن أبـــي سفيان وأتباعهما ، بناء على تحكيم الرجال في كتاب الله ، وكانت هـــناك إلى جانب الخوارج شيعة يرون في عليّ الإمام والقدوة يرفعونه فوق المستوى البشري ويرمون الخوارج بالكفر والمروق من الدين ولا يعوزهـــم الســـند الديني في ذلك وكان إلى جانب هؤلاء وأولئك أنصار عـــثمان يرون في هؤلاء وأولئك مخطئون ضالون .[٢] ومن هنا كان **موقف الإرجاء وهو الأحكم .**

وكان مبناه الفلسفي :

" أن هـــؤلاء المتصارعين كل منهم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمـــدا رســـول الله ، ثم هم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون ويحجون البيت وهذه كلها علامة المسلم الظاهرة ، وهي التي تدل على أن من أتى بها كان مسلما " .[٣] هذا من ناحية .

---

[١] **أضواء على الفرق الإسلامية : د / محمود بركات (ص ١٤٧) .**
[٢] **المصدر السابق (ص ١٤٨) .**
[٣] **التفكير الفلسفي في الإسلام : د / عبد الحليم محمود (ص ١٤٠) .**

ومـــن ناحية أخرى : فإن الاتهام بالكفر والضلال لبعد الإيمان والاهـــتداء يُشـــمى وحـــدة الأمة التي يقوم عليها عز الدين الإسلامي وانتشاره .

فكل المتنازعين مسلمون من وجهة نظر الإرجاء .

وهنا يكون أهل الإرجاء أصحاب فكر وأصحاب ملاحظات ، لو لاحظـــتها كـــل فـــرقة من الفرق المتنازعة في الأخرى ما بلغ التفرق والتباغض والتنافر هذا المدى الذي صدع وحده الجماعة الإسلامية .

ولكـــن هناك ملاحظة هامة لاحظها أصحاب الإرجاء هي : أن هـــؤلاء المســـلمين يتحاربون ويتقاتلون ويتناولون تجاه بعضهم الرمي بـــأفظع أنـــواع الموبقـــات ، إلى درجة التفكير وتحليل أموال مخالفيهم ودمـــائهم انطلاقـــا مـــن الحكـــم بكفرهم على نحو ما مر في الخوارج ونظرتهم إلى الأعيان ، ولذلك كان لابد لأصحاب الإرجاء من نظرة في مفهـــوم الإيمـــان ، هذه النظرة التي تستصحب الشواهد والملاحظات السابقة على كل طائفة من المتنازعين .

ولابد أن يخرج العمل من أن يكون ركنا في صحة الإيمان ولابد مـــن القول بمغايرة الأعمال للإيمان ، رغم الاحتياج إليها والتعبير بها عنه ، ومن هنا قالوا إن الإيمان هو التصديق بالقلب في ثقة واطمئنان ، والأعمال من فعل الجوارح .

وإذا كان شأن الإيمان أن يصدر عنه العمل إلا أن ذلك ليس من

المحتم إذ قد تحول دونه الحوائل وتمنح الظروف عن العمل ، ويكون الإيمان مجرد تصديق قلبي ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ [١]

وأمر الإيمان والكفر أذن مرده إلى الله الذي يعلم السرائر وذلك أنه أمر قلبي ، لا تراه الأعين ولا تسمعه الأذان . وأمر كل إنسان إلى الله وهو وحده الذي يوفيه حسابه . [٢]

ولكن المرجئة بعد ذلك اصطدموا بمسألة مرتكب الكبيرة التي هي مظهر من مظاهر الكفر عند بعض الفرق كالخوارج ولابد من رأي لهم فيها .

وهنا نجدهم محللون المسألة على ضوء نظريتهم في الإيمان وأنه التصديق والإذعان القلبي ، ومن هنا فإن هذا التصديق بهذه الصورة لا يزيله ارتكاب الكبيرة ، فالمصدق المرتكب للكبيرة لا يعدوا أن يكون مؤمنا عاصيا لا يزيله وصفه الإيمان عنه ارتكابه للمعصية أو للكبيرة والله سبحانه هو الذي يتولاه إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه .

ولكن ما هو مرتكب الكبيرة عندهم من ناحية المسئولية والعذاب هل سيخلد في النار كما تقول الخوارج مثلا ؟

المرجئة يرون أن الخلود في النار خاص بالكفار .. أما المؤمن

---

(١) سورة النحل (آية / ١٠٦) .

(٢) التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٤١) . وأضواء على الفرق الإسلامية (ص ١٤٩) .

فقد يعفو الله عنه ، وقد يعاقبه ، ولكن مصيره في النهاية الجنة . لقوله تعالى : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ [١] ، ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ [٢]

مــرد الأمر في العقوبة والمثوبة – إذن – إلى مشيئة الله الحرة المطلقة ، وعلى كل فحال المؤمنين في النهاية الجنة .

هــذا رأي جمهورهم ، ولكن قلة منهم رأت أن مآلهم إنما مرده إلى الله الذي لا يتحتم عليه شيء .. " [٣]

وهكــذا دارت أبحاث المرجئة حول الإيمان وتحديده . وقد بنوا رأيهم في ارتكاب الكبيرة والخلود في النار على أساس هذا التحديد .

فرق المرجئة :

الفرقة الأولى – اليونسية : وهؤلاء هم أصحاب يونس بن عون :

وقــد رأى الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له ، ويتمثل في شــيئين : أحدهمــا : ترك الاستكبار عليه ، والثاني : المحبة له ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن . [٤]

---

(١) سورة الزمر (آية / ٥٣) .
(٢) سورة النساء (آية / ٤٨) .
(٣) الملل والنحل للشهرستاني (ج ١ ص ١٤٥) .
(٤) المصدر السابق (ج ١ ص ١٤٥) .

وللمحبة لله والخضوع له عند يونس شأن كبير . ويجب أن يكون الخضوع لله على خلوص ويقين ، وأن تكون المحبة له صافية ، خالصة من كل شائبة ، يجب أن يسيطر الخضوع والمحبة على القلب سيطرة تامة ، ومن كان هذا شأنه لا يتأتى أن تصدر عنه معصية أنه – ولا مرية في ذلك – لا يمكن أن يتعمد المعصية ، ومن الجائز أن مصدر عنها هفوة لتا عن عمد وهذه لا تضره ، أنها لا تضره في يقينه وإخلاصه ولا تضره في خضوعه ومحبته ولا تضره في صلته بالله بسبب يقينه وإخلاصه وخضوعه ومحبته وهو ولا شك تائب منها مستغفرة . والمؤمن إنما يدخل الجنة بإخلاصه ومحبته لا بعمله وطاعته . (١)

على ضوء هذا يمكننا أن نفهم ما يعزي إلى المرجئة من أنه لا تضر مع الإيمان معصية ، ويمكننا أيضا أن نفهم قول الشهرستاني شارحا رأي يونس : من أن الطاعة ليست جزءا من الإيمان ولا يضر تركها حقيقة الإيمان ولا يعذب على ذلك إذا كان الإيمان خالصا واليقين صادقا . (٢)

الفرقة الثانية – العبيدية : هم أصحاب عبيد المكيت :

حكي عنه أنه قال ما دون الشرك مغفور لا محالة ، وأن العبد إذا مات على توحيده لم يضره ما اقترف من الآثام واجترح

---

(١) المصدر السابق (جـ ١ ص ١٤٦) . والتفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٤٣) .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (جـ ١ ص ١٤٥) .

من السيئات .

الملتبث أنهم

وحكى اليمان عن عبيد المكبت وأصحابه أنهمن قالوا إن علم الله تعــالى لم يزل شيء غيره وأن كلامه لم يزل شيء غيره وزعم أن الله تعالى عن قولهم على صورة إنسان وحمل عليه قوله ﷺ " خلق آدم على صورة الرحمن " . (١)

الفرقة الثالثة – الغسانية : أصحاب غسان الكوفي :

زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله وبرسوله ، والإقرار بما أنزل الله وبمــا جــاء به الرسول في الجملة دون التفصيل والإيمان لا يزيد ولا ينقص . (٢)

وكـــان غســـان يحكي عن الإمام أبي حنيفة مذهبه ، وبعده من المرجئة وهذا لأن أبا حنيفة قال : إن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله تعالى وبرسله وبما جاء من الله تعالى ورسله في الجملة دون التفصيل ، وأنـــه لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل الناس فيه بينما غسان يقول : إن الإيمان يزيد ولا ينقص . (٣)

وروى الـــبغدادي غـــيره إذ نسب إليه أنه قال : " أنه يزيد ولا ينقص " (٤)

---

(١) المصدر السابق (ص ١٤٦) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٤٦) .

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ١٠٧ ، ١٠٨) بالهامش للرازي .

(٤) الفرق بين الفرق (ص ١٠٣) .

ومحقــق المقالات للأشعري يقول إنه جاء في الأصول : " أنه يزيد ولا ينقص " . (١)

الفرقة الرابعة – الثوبانية : أصحاب أبي ثوبان المرجئ :

الذين زعموا أن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله ورسله عليهم السـلام ، وربطـوا بيـن العقل والإيمان ربطا محكما إذا أضافوا إلى الإيمــان بما تقدم الإيمان بما كان لا يجوز العقل إلا أن يفعله ، وأما ما كــان جائزا في العقل ألا يفعله فليس ذلك من الإيمان ، وهو ربط يبدو فيه علو شأن العقل .

ومــن هنا قال البغدادي أنهم فارقوا اليونسية والغسانية بإيجابهم شـيئا فـي العقـل قبل ورود السمع . وتابعه في مقالته هذه : غيلان الدمشقي وأبو شمر ومحمد بن شبيب وغيرهم . (٢)

الفرقة الخامسة – التومنية : أصحاب أبي معاذ التومني :

زعم أن الإيمان لخصال إذا تركها التارك كفر ، وهذه الخصال هــي المعــرفة والتصــديق والمحبة والإخلاص والإقرار بما جاء به الرسول ﷺ .

وهــذه الخصال جميعا هي الإيمان ، ولا يقال للخصلة الواحدة منها إيمان ، ولو ترك خصلة واحدة كفر .

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري (ص ٢٠٤) .
(٢) الملل والنحل (ص ١٤٧) .

وكــل طاعـــة لم يجمع المسلمون على أن تركها كفر فتلك من شـــرع الإيمـــان ، ولـــيس مـــن الإيمان يقال للتارك لها فسق ولا يقال فاسق . [١] وهذا في أخذه العمل في الاعتبار ضمنا يشبه ما ذهب إليه اليونسية .

الأشاعــرة :

أولا – مولد الأشعري ونشأته :

(قبل الحديث عن المنهج الأشعري لابد من ذكر إشارة موجزة نتعرف من خلالها على مؤسس المذهب الأشعري .

فتحدثنا كتب التراجم أن المؤسس الأول لفرقة الأشاعرة هو أبو الحســـن الأشعري " علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم ابن إســـماعيل بـــن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشـــعري صـــاحب رســـول الله ﷺ ، وقد ولد في البصرة سنة ستين ومائتين ومات سنة نيف وثلاثة . [٢] وثلاثمائة

بيـــنما يذكـــر ابن خلكان أن مولد الأشعري كان في سنة سبعين

---

(١) المصدر السابق (ص ١٤٩) .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (جـ ١١ ص ٣٤٦ – ٣٤٧) . المكتبة السلفية بالمدينة المنورة – بدون تاريخ – وانظر تبيين كذب المفترى فيما نسب للأشعري (ص ٣٤ . ١٤٦) – الطبعة الثانية – دار الفكر بدمشق – سنة ١٣٩٩هـ – لابن عساكر . وطبقات الشافعية الكبرى (جـ ٢ ص ٢٤٥) – ط : دار المعرفة – الطبعة الثانية للسبكي .

ومائتيــن كما ذكر الخطيب البغدادي وابن عساكر [١] . وقال ابن كثير مؤيدا لما ذكره ابن خلكان " ولد الأشعري سنة سبعين ومائتين .. ومات في سنة ثلاثين وثلاثمائة " . [٢]

وهــذا الاخــتلاف بيــن المؤرخيــن في المولد يؤذن بأن مولد الأشــعري لم يكن معروفا على وجه اليقين ، وليس لدينا في المصادر الأخرى غير هذا التاريخ ، ولعل هذا هو الذي يفسر لنا أن ابن عساكر تجنب التحدث عن تاريخ ميلاده .

ويذكر ابن عساكر عن أبي بكر كبن فورك أن أباه الأشعرى هو " أبو بشر إسماعيل بن إسحاق ، وأنه كان سنيا جماعيا حدثيا " . [٣]

وقــد اجتهد المؤرخين ففي نسبة أبي الحسن الأشعري إلى أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ ، يقول ابن عساكر " وما أسعد من كان أبو موسى له سلفا وأصلا فالفضل عن هذا الوجه أتاه وما ظلم من أشبه أباه " . [٤]

ويــروي ابــن خلكان أن الأشعري أشهر من أن يعرف فيقول " وشهرته تغني عن الإطالة في تعريفه " . [٥]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٢٨٤) – دار الأنصار – بيروت .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية (جـ ١١ ص ١٨٧) ط : ثانية – سنة ١٩٧٧م .

(٣) ابن عساكر : تبيين كذب المفترى (ص ٣٥) .

(٤) المصدر السابق (ص ٧١) .

(٥) وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٢٨٤) .

وقـد صنف ابن عساكر في مناقبه مجلدا ومع ذلك نجد الدكتور حمودة غرابة يقول "لم ينل الأشعري ما يستحقه من عناية تتناسب مع مركزه كرائد روحي لأغلب المسلمين إلى اليوم فحياته وكتبه ومؤلفاته وخصائصـه لا تكاد عنها في كتب المسلمين ، بل وفي كتب الأشاعرة أنفسـهم إلا نتفا متفرقة كتلك التي نجدها في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكـان ، وكتاب طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، وهي نتف لا تنقع علـة ولا تشـفي غليلا ، والكتاب الوحيد الذي حاول أن يكتب في ذلك كـتابه مستفيضة هو كتاب "تبيين كذب المفترى" لابن عساكر إلا أنه ملـيء بالبشـارات والـرؤى والأشعار مما يجعله بعيد الصلة بالمنهج العلمي . (١)

ولهذا يجب أن نأخذ ما يقوله ابن عساكر بحذر شديد فهو كتاب فـي المناقـب يصـدر فيه صاحب عن هوى خاص ويلجأ إلى أساليب الرؤى والبشارات في تأييد أقواله وهي أساليب ليست علمية .

وقد كان الأستاذ أمين الخولي محقا عندما حذر من كتب المناقب ورأى أن المـنهج الحـق في ذلك يقضي بانتقائها وعدم الاطمئنان إليها فيقول "فليحذر القارئ هو أصحاب المناقب المتتبعين للفضائل المتزيدين في المزايا والمكارم" . (٢)

---

(١) د / غرابة : الأشعري (ص ٧ ، ٨) – مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية – سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

(٢) الأستاذ أمين الخولي : مالك بن أنس (ص ١٠) ط : القاهرة – بدون تاريخ .

وتذكـــر كتب الفرق والمقالات التي ترجمت للأشعري أنه تتلمذ علـــى يـــد أبـــي علي الجبائي أربعين سنة ، فيقول ابن عساكر " كان الأشـــعري تلميذا للجبائي يدرس عليه ويتعلم منه ويأخذ عنه ولا يفارقه أربعين سنة . (١)

ويؤيد السبكي في طبقات الشافعية رواية ابن عساكر ، فيقول : وكان أولا قد أخذ عن أبي علي الجبائي وتبعه في الاعتزال يقال : أقام علي الاعتزال أربعين سنة حتى صار للمعتزلة إماما . (٢)

وبمراجعة التواريخ الخاصة بمولد الأشعري ومقارنتها مع مولد الجبائي ووفاته ، ومراجعة مؤلفاته الأشعري نفسه يبقى في النفس شيء مـــن قبل رواية أن الأشعري ظل على الاعتزال أربعين عاما ، وتتلمذ فيها على الجبائي الذي تزوج بأمه بعد وفاة أبيه .

فالجبائي ولد سنة ٢٣٥ هـــ - وتوفى سنة ٣٠٣ هـــ .

والأشـــعري ولـــد ســـنة ٢٦٠ هـــ - أي بعد مولد الجبائي بما يساوي خمسا وعشرين عاما . (٣)

ولـــم تذكـــر المراجع شيئا عن تاريخ وفاة والده ولا عن تاريخ زواج الجبائـــي بأمه ، غير أنها ذكرت وصية أبيه بابنه إلى الساجي ، فالمـــتوقع مـــثلا أن يكـــون الأشـــعري دون العاشـــرة من العمر حين

---

(١) ابن عساكر : تبيين كذب المفترى (ص ٩١) .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى (جـ ٢ ص ٢٤٦) .
(٣) وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٣٩٩) .

وفاة والده ، ثم تذكر المراجع أنه تعلم على يد رجال من فقهاء الشافعية ومـــن المحدثيـــن مـــن أمثال زكريا الساجي الذي كان إماما في الفقه والحديث في عصره . (١)

فإذا كان الأمر كذلك فلنا أن نتوقع نبوغ الأشعري على يد الفقهاء والمحدثين قبل زواج الجبائي بأمه ، وهذه الفترة لا تقل عن خمسة عشر عامـــا إن لـــم تكـــن أكـــثر مـــن ذلك أي إلى ما بعد سنة ٢٧٥ هـ . والمـــترجمون له ربطـــوا بيـــن زواج الجبائـــي بأمـــه وولائه لمذهب المعتزلة ، (ولما كانت وفاة الجبائي سنة ٣٠٣ هـ ، وميلاد الأشعري سنة ٢٦٠ هـ) استنبطوا من ذلك أنه ظل على الاعتزال أربعين عاما من عمره ، وهذا الربط لا مبرر له ، لأنه ليس من الضروري أنه يكون الأشـــعري قد ظل أربعين عاما على الاعتزال لمجرد أن الجبائي تزوج بأمه في سن مبكرة ، ورسالة الأشعري إلى أهل الثغر تلقي الضوء على هـــذه القضية ، فإن الأشعري قد ذكر فيها أن أهل الثغر كانوا قد طلبوا مـــنه ذكـــر الأصـــول التي عليها أهل السنة والجماعة ، فأجابهم على ســـؤالهم بهذه الرسالة التي بين أيدينا ، وكان ذلك في سنة ٢٩٧ هـ ، وفـــيها بـــيان لفســـاد مذهـــب المعـــتزلة ورد عليهم ووصفهم بالبدعة والضـــلال ، فـــإذا كانت مرحلة النضج الفكري للأشعري تبدأ من سن الخامســـة عشرة من عمره أي بعد سنة (٢٧٥ هـ) وكان قد بدأ يرد . على المعتزلة من تاريخ رسالة أهل الثغر أي سنة (٢٩٧ هـ) فتكون

(١) تاريخ بغداد (جـ ١١ ص ٣٤٧) . وتبيين كذب المفترى (ص ٣٥) .

الساحة الزمنية المحصورة بين نبوغه الفكري ورده على المعتزلة هي ٢٢ سـنة ، فـيكف يقال أنه ظل على الاعتزال أربعين عاما تتلمذ فيها علـى الجبائـي ؟ مـع العلـم أنـه بدأ يرد على المعتزلة من تاريخ (٢٩٧ هـــ) وهـذا حسب المؤلفات التي ذكر فيها الأشعري تاريخ تأليفها ، وربما يكون هناك ما لم يصلنا ما يتضمن تاريخا أقرب مما هو مذكـور فـي رسالة أهل الثغر ، فالأمر إذن يحتاج إلى إعادة نظر من الباحثين في تطور حياة الأشعري الفكرية .[١]

ثانيا : أسباب تحول الأشعري عن الاعتزال :

اخـتلف العلماء في أسباب تحول الأشعري عن مذهب المعتزلة اخـتلافا كبـيرا وذكروا في ذلك عدة روايات : من أقدمها ما قاله ابن الـنديم " وكان الأشعري متعزليا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن فـي المسـجد الجـامع بالبصرة في يوم الجمعة ، ورقى كرسيا ونادى بأعلى صوته من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي أنـا فـلان ابـن فـلان كنـت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى بالأبصـار ، وأن أفعـال الشـر أنـا أفعلهـا وأنا تائب مقلع عن كل ذلك .." [٢]

وروى ابن عساكر أن تحول الأشعري عن الاعتزال كان بسبب

---

[١] أصول أهل السنة والجماعة . المسماة برسالة أهل الثغر (ص ٩ ـ ١٠) للإمام أبي الحسن الأشعري – تحقيق : د / محمد السيد الجلنيد .

[٢] ابن النديم : الفهرست (ص ٢٥٧) – دار المعرفة للطباعة والنشر .

رؤيـــا رأى فـــيها النبـــي ﷺ وأمره فيها أن ينصر مذهب أهل الحديث وسلف الأمة ، لأنه أعدل المذاهب وأولاها بالحق .(١)

ومن تاريخ هذه الرؤيا تحول الأشعري عن مذهب المعتزلة إلى مذهب المحدثين ، وأخذ يدافع عنه ويصنف فيه من أجل نصرته .

ومـــن الملاحظ أن هذه المراجع التي ترجمت للأشعري لم تحدد تاريخ هذه الرؤيا ، ولا تاريخ تحول الأشعري عن الاعتزال ، مما يفتح بابا للاجتهاد والرأي في ذلك .

على أن بعض المراجع تربط بين تحول الأشعري عن الاعتزال والمـــناظرة التـــي جـــرت بيـــنه وبيـــن الجبائي حول قضية الصلاح والأصلح ، وقد ذكرها السبكي في طبقات الشافعية كما ذكرها غيره من المتكلمين والمناظرة مشهورة في كتب المتكلمين ، وفيها سأل الأشعري الجبائي عن ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، وصبي ، قائلا ما عاقبتهم ؟ فقال الجبائـــي : المؤمن : من أهل الدرجات ، والكافر : من أهل الهلكات ، والصـــبي : من أهل النجاة ، فقال الأشعري فإن أراد الصبي أن يرقى إلـــى درجـــات عليا هل يمكن ؟ فقال الجبائي لا . لأن المؤمن مني نال درجـــته بالطاعـــة ، والصـــبي لا طاعة له ، قال الأشعري : فإذا قال الصبي التقصير ليس مني فلو أحييتني لأطعتك ؟ قال الجبائي : يقول الله كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت فتدخل النار ، فراعيت مصلحتك وأمتك

---

(١) تبييـــن كـــذب المفـــترى (ص ٣٩ ومـــا بعدهـــا) . وطـــبقات الشـــافعية الكـــبرى (جـ ٢ ص ٢٤٨) .

قبل سن التكليف ، قال الأشعري فلو قال الكافر يا رب : ولم لم تمتني قبل سن البلوغ حتى لا أعصاك ، وهل راعيت مصلحتي كما راعيت مصلحته ؟ فانقطع الجبائي عن الجواب . [١]

وهناك سبب آخر في ترك الأشعري مذهب المعتزلة أرتضيه وأميل إليه وأعتقد أنه الأقرب للصحة والصواب ، وهو أن الأشعري حاول التوسط بين الفقهاء الذين جعلوا همتهم على التفقه في الدين بدلائل وحجة من التفسير والحديث والإجماع والقياس وبين المتكلمين الذين قصروا همتهم على الدفاع عن الدين ضد غوائل أعدائه مستخدمين في ذلك كنفس أسلحتهم من الجدل والمنطق وتحكيم العقل وطرح النص جانبا فوجد أنه من الخير للجماعة الإسلامية أن يلتقي العقليون والنصيون على مذهب وسط يؤخذ القلوب ويعيد الوحدة إلى الصفوف مع احترام النص والعقل معا . وبذلك يختفي الشقاق والنزاع الذي ثار بين المتكلمين والفقهاء ، وأهل الحديث ، فتوسط بين المعتزلة والحنابلة [٢] ، وهذا ما سنعرض له في المنهج إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى (جـ ٢ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٩ . والملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل (جـ ١ ص ٩٧) – دار السلام . وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٣٩٨) .

(٢) الأشعري (ص ٦٦) للدكتور حموده غرابة .

المنهج الأشعري :

تمهيد : يهمنا في هذا الفصل أن نقف أولا على منهج الأشعرية وخصائص هذا المنهج ، وتكمن الحاجة إليه فيما يخص بحثنا لأنه تناول مسائل العقيدة من خلال تفسير مفسري الأشعرية لا يتم التعرف عليه إلا من خلال المنهج الذي سلكوه ، ومن ثم فإن معرفة المنهج ضرورة قبل الخوض في دراسة مسائل أي فرقة كلامية أو مذهب فلسفي .

وخصوصا أن دراسة المنهج الأشعري قد عبد وذلل ، فبيانه في البداية يعتبر بمثابة الأداة الفكرية التي يتعرف بها على طريقتهم في دراسة المسائل ، وأيضا فإنه يتحتم ذلك إذا كان الغرض هو دراسة المسائل بعينها ، ومعرفة النتائج التي توصلوا إليها ، فإن ذلك يتم بواسطة آله المعرفة ، وهي المنهج المتبع .

وهذا بخلاف ما لو كان المنهج هو المقصود بالدراسة فإننا نستخرجه من بين المسائل المطروحة فيبدأ بالمسألة ويستنتج منها المنهج .

ولا شك أن هذا المنهج كان محل بحث ودراسة ، وصدرت فيه آراء من قبل الباحثين تأرجحت بين أن يكون قد رجح العقل على النقل أو النقل على العقل ، وفي هذا الصدد يقوم بعض الوسط بين النقل والعقل والبعض الآخر يرى أنه لم يتوسط ، ولكن بعد انسلاخه عن الاعتزال انتقل إلى مذهب السلف الصالح .

وقــبل الحديث عن هذا المنهج وما دار فيه لابد من بيان حقيقة موقف السلف ، وموقف المعتزلة حتى نرى صدى هذا التوسط وإلى أي جهة استقرت وجهة الأشعرية منهجيا .

طريقة السلف :

لا شــك أن السلف الصالح يعطون الأولوية للنص المنزل قرانا كــان أم ســنة ليكشــف عــن مضمونه من واقع الفهم اللغوي للألفاظ وبالاستعانة بالنصوص المنزلة الأخرى وبمختلف أصول التفسير .

ولا بــأس أن نســوق أبرز الشخصيات لمذهب السلف ضاربين عــدت أمثلة تتصل اتصالاً وثيقاً بمسائل العقيدة تلك المسائل التي يدور بحثنا فلكها فنجد الإمام أحمد بن حنبل مثلا في تفسير قوله تعالى ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ [١]

يبيــن أن قولــه تعالى ﴿ **بدلناهم جلوداً غيرها** ﴾ (ليس معنى جلوداً غير جلودهم ، وإنما يعني تجديدها ، وكان الزنادقة قد قالوا : فما بال جلودهم التي عصيت قد احترقت وأبدلهم جلوداً غيرها فلا نرى إلا أن الله يعذب جلوداً لم تذنب) [٢]

فخرجوا بالمعنى عن حقيقته ، ويقول لهم ابن حنبل (القرآن فيه

---

(١) **سورة النساء (آية / ٥٦) .**

(٢) **الإمام أحمد بن حنبل : الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٧) نشرها محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية – الطبعة الثانية – سنة ١٣٩٩ هـ .**

الخــاص والعــام ووجوه كثيرة وخواطر يعلمها العلماء) [١] ، منبها بذلــك إلـــى أصول التفسير التي يجب أن يأخذوا بها ، التي من أهمها تفســير القــرآن بالقــرآن وتفسيره بالسنة ، واحترام أصول اللغة التي خاطب الله بها العرب ، وهي لغتهم العربية ، وباقي وجوه التفسير على اختلافها .

ثم يرد على الزنادقة عند قول الله تعالى ﴿ **هذا يوم لا ينطقون * ولا يــؤذن لهــم فيعــتذرون** ﴾ [٢] ، ثم قال في آية أخرى ﴿ **ثم إنكم يـــوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ [٣] ، كيف يكون هذا من الكلام المحكم ، قال ﴿ **هذا يوم لا ينطقون** ﴾ ثم قال في موضع آخر ﴿ **ثم إنكم يـــوم القــيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ ، فزعموا أن هذا الكلام ينقض بعضه بعضا ، فشكوا في القرآن . [٤]

فبيــن لهم ابن حنبل التفسير الصحيح لهذه النصوص المنزلة ، فــيقول (أما تفسير هذا: ﴿ **هذا يوم لا ينطقون** ﴾ فهذا : أول ما تبعث الخلائــق علــى مقدار ستين سنة لا ينطقون ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعــتذرون ، " ثــم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون ، فذلك قوله : ﴿ **ربنا أبصرنا وسمعنا ، فأرجعنا نعمل صالحا** ﴾ [٥] ، فإذا أذن لهم في الكلام

---

(١) المصدر السابق (ص ٧) .
(٢) سورة المرسلات (آية ٣٥ . ٣٦) .
(٣) سورة الزمر (آية / ٣١) .
(٤) الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٨) .
(٥) سورة السجدة (آية / ١٢) .

فتكلموا ، واختصموا ، فذلك قوله : ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ عند الحساب وإعطاء المظالم ، ثم يقال لهم بعد ذلك : ﴿ **لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾ [١] ، فإن العذاب مع هذا القول كائن " [٢] ، وهذا ما كان من ابن حنبل تجاه الزنادقة .

أما الجهمية فقد رد عليهم بما يؤكد ضرورة إثبات النص وتفسيره من ذلك قول الحق جل وعلا ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ [٣] ، الذي فهمه الجهمية أنها تنتظر الثواب من ربها ، لأنهم نفوا رؤية الله بالأبصار اعتمادا على قوله تعالى ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ [٤] فقال ابن حنبل : إنها ما تنتظر من الثواب ترى ربها في الجنة . [٥]

ثم يتطرق ابن حنبل إلى موقف الجهمية عامة من نفي الصفات ، فيثبت كل ما قاله الله تعالى عن نفسه ؛ وهو بجميع صفاته إله واحد .

فيبين ما أنكرت الجهمية من أن يكون الله على العرش ، وذلك من خلال النصوص القرآنية ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ [٦] ، وغيره من النصوص الأخرى التي تثبت أن الله

---

(١) سورة ق (آية / ١٨) .
(٢) الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٨) .
(٣) سورة القيامة (آية / ٢٣) .
(٤) سورة الأنعام (آية / ١٠٣) .
(٥) الرد على الزنادقة (ص ٤٢) .
(٦) سورة طه (آية / ٥) .

علـــى العرش بلا كيف ، وقد أحاط علمه بما دون العرش ، ولا يخلو من علم الله مكان ، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان ، فذلك قوله : **﴿ لــتعلموا أن الله على كل شيء قدير . وأن الله قد أحاط بلك شيء علما ﴾** [١] ، [٢]

ثــم يبين ما تأولت الجهمية في قول الله تعالى : **﴿ ما يكون من نجــوى ثلاثـــة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم .. ﴾** [٣] ، فيبيــن أنـــه تعالى معهم بعلمه ، " ويفند ادعاءات الجهمية ليبين أن الله تعالى علم وليس مخلوقا ولا محدثا وهو قول أهل السنة " . [٤]

وأخيراً يقف عند قول الله تعالى : **﴿ وهو معكم ﴾** ويبين من واقع الآيـــات أنـــه على وجوه ، ويبين هذه الوجوه ، فمثلا قال الله جل ثناؤه لموســـى **﴿ إننــــي معكما أسمع وأرى ﴾** [٥] ، يقول في الدفع عنكما ، وكذلك في قوله تعالى **﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾** [٦] ، يقول في الدفع عنا ، وقال : **﴿ كم من فئة قلـــيلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾** [٧] ، يقول في

---

(١) سورة الطلاق (آية / ١٢) .
(٢) الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٤٩) .
(٣) سورة المجادلة (آية / ٧) .
(٤) الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٥١) .
(٥) سورة طه (آية / ٤٦) .
(٦) سورة التوبة (آية / ٤٠) .
(٧) سورة البقرة (آية / ٢٤٩) .

النصر لهم على عدوهم . (١)

وبهـذا يبين ثراء معنى الألفاظ في القرآن الكريم وأهمية معرفة وجوه الاستعمال على اختلافها من أجل تكشف ما يتضمنه النص المنزل من معنى .

وفي مسألة خلق القرآن التي هي من أكبر القضايا الكلامية نجد ابن حنبل يسأل عن النص المنزل قرآنا كان أم سنة ، يكون قد ورد فيه القول بخلق القرآن ، فلم يجد ؟ .

يقول في ذلك : " فمما يسأل عنه الجهمي أن يقال له : أتجد في كتاب الله أنه يستخبر عن القرآن أنه مخلوق ؟ فلا يجد ، فيقال له أفتجد في سنة رسول الله ﷺ أنه قال : إن القرآن مخلوق ؟ فلا يجد . (٢)

وما أن ينتهي من ذلك حتى يسأل " فمن أين قلت ؟ فسيقول من قـول الله " ﴿ **إنـا جعلناه قرانا عربيا** ﴾ (٣) ، وزعم أن جعل بمعنى خلق . (٤)

ثـم يـرد علـيه ابـن حنبل فيقول : " إن جعل في القرآن من المخلوقيـن علـى وجهين ، على معنى التسمية ، وعلى معنى فعل من أفعالهم . (٥)

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٥٢) .
(٢) المصدر السابق (ص ٢٧) .
(٣) سورة الزخرف (آية / ٣) .
(٤) الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٢٧) .
(٥) المصدر السابق (ص ٢٧) .

ولكي يبين هذا الوجه نجده يذكر أمثلة من القرآن على ذلك مثل قول الله تعالى ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ (١) ، وقال : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا** ﴾ (٢) ، فهذا على معنى التسمية ، ثم ذكر " جعل " على غير معنى التسمية ، فقال : ﴿ **يجعلون أصابعهم في آذانهم** ﴾ (٣) ، فهذا يدل على معنى فعل من أفعالهم ، هذا بالنسبة للمخلوقين ، ثم هناك جعل من أمر الله على معنى خلق وجعل على معنى غير خلق ويعطي للوجه الأول عدة أمثلة من القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿ **الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور** ﴾ (٤) ، يعني وخلق الظلمات والنور ، وقال : ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار** ﴾ (٥) ، وقال " ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين** ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها** ﴾ (٧) ، يقول خلق منها زوجها ، يقول : وخلق من آدم حواء ، وقال ﴿ **وجعل لها رواسي** ﴾ (٨) ، يقول : وخلق لها رواسي ومثله في

---

(١) سورة الحجر (آية / ٩١) .
(٢) سورة الزخرف (آية ١٩) .
(٣) سورة البقرة (آية / ١٩) .
(٤) سورة الأنعام (آية / ١) .
(٥) سورة الملك (آية / ٢٣) .
(٦) سورة الإسراء (آية / ١٢) .
(٧) سورة الأعراف (آية / ١٨١) .
(٨) سورة النحل (آية / ٦١) .

القرآن كثيرا ، فهذا ومثله لا يكون إلا على معنى خلق . [١]

أمـــا بالنسبة للفظ جعل على غير معنى خلق ، فيذكر ابن حنبل عـــدة آيات تفيد أن جعل على غير معنى خلق منها قوله تعالى : ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة** ﴾ [٢] ، لا يعني ما خلق من بحيرة ولا سـائبة ، وقـــال الله لإبراهيم ﷺ ﴿ **إني جاعل للناس إماما** ﴾ [٣] ، لا يعني أني خالق للناس إماما لأن خلق إبراهيم كان متقدما . [٤]

هـــذا هو موقف الإمام أحمد بن حنبل من أهم القضايا الكلامية وهو موقف السلفية قاطبة ، وهو كما ترى يعتمد على النص ويجعل له مكـــان الصدارة ، فيقر ما ورد فيه نص ويرفض ما لم يرد فيه نص ، وذلك على نحو ما رأينا ، إذن فلا مجال للوسطية عند السلف .

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٢٨) .
(٢) سورة المائدة (آية / ١٠٣) .
(٣) سورة البقرة (آية / ٢٤) .
(٤) الرد على الزنادقة والجهمية (ص ٢٨) .

{ الطريقة المقابلة : طريقة المعتزلة }

أما موقف المعتزلة : فإنه يختلق تماما عن موقف السلف ، وذلك لأنهم لا يعطون للنص المنزل مكان الصدارة قرانا كان أو سنة ، وإنما يضعون في المقدمة نسقهم الفكري الذي يجيء النص بعد ذلك من أجل الاستدلال به على صحته .

ويتضح ذلك عندما سأل أحد رجال المعتزلة أستاذه عن معنى قوله تعالى : **﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾** (١)

وعن الختم والطبع : فقال : أنا مبادر إلى حاجة ولكن ألقى عليك جملة تعمل عليها ، اعلم أنه لا يجوز على أحكم الحاكمين أن يأمر بعكرمة ثم يحول دونها ، ولا ينهي عن قادروه ، ثم يدخل فيها وتأول الآيات بعد هذا فكيف شئت . (٢)

فأنت تراه هنا قد أول الآية تأويلاً خارجاً عن حدود قواعد اللغة وجذب النص جذبا متعسفاً كي يتفق مع نسقهم الفكري .

ومن ثم نجد أن خط النص عند المعتزلة سواء كان قرانا أو سنة قليل جدا ، ومما يدل على ذلك قول العلاف عند موته " اللهم إنك تعلم أني لم أقصر في نصرة توحيدك ولم أعتنق مذهبا إلا سنده التوحيد " (٣)

---

(١) سورة إبراهيم (آية / ٤) .
(٢) المنية والأمل (ص ٣٣) .
(٣) المصدر السابق (ص ٢٩) .

وهـو هـنا يثبت أن سند مذهبه التوحيد وليس القرآن أو السنة ويعني بالتوحيد أصولهم الخمسة .

وبهـذا يمكننا أن نقول بأن منهج المعتزلة يختلف كل الاختلاف عن منهج السلف ذلك لأن منهج السلف لا يصدر إلا من منطلق النص سواء كان قرآنا أو سنة ، أما منهج المعتزلة فلا ينطلق إلا من العقل ، وإذا جاء النص عندهم فلتأييد ما جاء به العقل .

وعلى ذلك فلا يمكن بحال ما من الأحوال أن يلتقي المعتزلة مع السلف فكل منهما على طرفي نقيض .

المنهج الأشعري في نظر العلماء :

وبعد أن وجدنا السلف يقدمون النص على العقل ويعتمدون عليه فـي جميع المسائل التي تمس العقائد ، بينما كان المعتزلة على العكس مـن ذلـك فقد قدموا العقل على النقل في كل القضايا الكلامية ، والأن نقـف مـع الأشعري لنرى هل التزم بمنهج السلف ؟ أم أنه توسط بين عقيدة السلف ، وبين عقيدة المعتزلة ؟ .

وهنا نجد العلماء ينقسمون إلى فريقين :

الفـريق الأول القائلون بالسلفية – وهم السلفيون : وهؤلاء يـرون أن الأشعري عندما تحول عن الاعتزال انتقل من المنهج العقلي إلـى منهج وسط بين النقل والعقل ، فكتب اللمع ، ثم تبين له فساد هذا الأخـير أيضـا فتركه وعاد إلى العقيدة السلفية الكاملة الخالصة معبرا

عنها بكتابه " الإبانة عن أصول الديانة " ، وعلى هذا فكتاب الإبانة يمثل المرحلة الأخيرة من فكره .

ويستدلون على ذلك بأن الإنسان عندما يتحول من الباطل إلى الحق أو من الخطأ إلى الصواب ، إنما يتضح له الأمر شيئا فشيئا ، وينتقل إليه ، خطوة خطوة ، ومن ثم يرون أن الأشعري قد وصل إلى الحق على مراتب ، فترك أولا مذهب المعتزلة إلى مذهبه الوسط ، فأصاب نصف الحق ، ثم ترك أخيرا مذهبه العقلي إلى مذهب السلف ، فأصاب الحق كله . (١)

ويستدل السلف أيضا بما ذكره ابن عساكر من رواية الأشعري عن نفسه إذ ذكر في كتاب " العمد " وهو مصنف في الرؤية ألفه بعد سنة عشرين وثلاثمائة ، سماء كتبه ، ذكر منها " اللمع الكبير ، واللمع الصغير ، واللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع " وهو الكتاب الذي بين أيدينا ، ولم يذكر من بين مصنفاته حتى هذه السنة من حياته كتاب " الإبانة " ، وهذا يدل على تأخر الإبانة عن " اللمع " . (٢)

ويذكر السلفيون دليلا ثالثا على سلفية الأشعري هو ما ذكره ابن عساكر أيضا عن مرحلة التحول ، حيث غاب عن الناس قرابة أسبوعين ، ثم أعلن اعتزاله عن المعتزلة ، ودفع إلى الناس ما كتبه .

---

(١) مقدمة اللمع (ص ٧) للأشعري – تحقيق : د / غرابة – من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة سنة ١٩٧٥م .

(٢) تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص ١٢٨ ، ١٢٩)

خــلال هذه المدة ، معبرا عن عقيدته الجديدة ، وذكر أن ما كتبه كان كتابي " اللمع ، وكشف الأسرار وهتك الأستار " . [١]

ثم يذكر السلفيون دليلا آخر على سلفية الأشعري ، وهو أنه في كــتابه مقالات الإسلاميين " يذكر بابا بعنوان " : هذه حكاية جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة ، ويورد فيه عقيدة أهل الإثبات كما يراها أهــل السلف ، وكما هي في الإبانة تماما ثم يعقب على ذلك في النهاية بقوله " فهذه جملة ما يأمرون به وما سيعلمونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب وما توفيقنا إلا بالله " . [٢]

ثم ذكر عقيدة ابن كلاب في الباب الذي يلي هذا الباب ، فقال " فأما أصحاب عبد الله بن سعيد القطان فإنهم يقولون بأكثر ما ذكرناه عن أهل السنة . [٣]

وبهــذا يؤكد السلفيون قولهم في هذه القضية بأن الأشعري حين كتــب المقالات كان يعمل بكل السبل المنهجية والعقائد الإسلامية وغير الإســلامية ، ومن الأول عقيدة ابن كلام ومنهجه الوسط ، فلو كان ذلك منهجه وتلك كعقيدته لنسب نفسه إليها .

---

(١) المصدر السابق (ص ٣٩) .

(٢) الأشعري : مقالات الإسلاميين (ج ١ ص ٣٥٠) – الطبعة الثانية – سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م . ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية – تحقيق : الأستاذ / محمد محي الدين عبد الحميد .

(٣) المصدر السابق (ج ١ ص ٣٥٠) .

وأخيرا يقدم السلفيون دليلا دامغا يتلخص في أن الأشعري في الإبانة هاجم تفسير الاستواء بالاستيلاء ، وقرر أنه مذهب المعتزلة والجهمية والحرورية ، وسرد الآيات القرآنية الدالة على الاستواء ، كما أثبت رؤية الله في الآخرة كذلك أثبت لله سبحانه وتعالى الوجه والعين ، واليدين .. على قول أهل السنة رافضا للتأويل . [١] هذه كانت أدلة السلف والتي من خلالها حاولا أن يثبتوا أن الأشعري لم يتوسط بين النصيين والعقليين ، وإنما سلك في منهجه طريقة الإمام أحمد بن حنبل وظل عليها إلى أن توفى رحمه الله تعالى .

أما الفريق الثاني : وهم القائلون بالتوسط :

وهؤلاء يرون أن الإمام الأشعري قد توسط بين النقل والعقل ، ويذكرون أنه عندما أعلن اعتزاله عن الاعتزال وانتقل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل كان قد ألف كتابه " الإبانة " ، وعلى ذلك تكون الصورة السلفية صدرت أولا ، والصورة العقلية صدرت أخيرا ، وأنها كانت تحديدا لمذهب الأشعري في وضعه النهائي الذي مات صحابه وهو يعتنقه ويعتقد صحته ويدافع عنه ويرضاه لأتباعه .

والدليل على ذلك ما يقوله أحد الأشاعره المعاصرين " أن الأشعري في كتابه " الإبانة " أشرق أسلوبا وأكثر تحمسا وأعظم تحاملا على المعتزلة ، وأكثر بعداً عن آرائهم وهذه مظاهر نفسية يجدها المرء

---

[١] اللمع للأشعري (ص ٣ . والإبانة للأشعري أيضا (ص ١٠٨ وما بعدها) تحقيق : د / فوقية حسين .

فـــي نفسه تجاه رأيه الذي يتركه إبان تركه أو بعد التخلي عنه " . [١]

ويؤكد الدكتور / أحمد صبحي على أن " الإبانة " قد كتب أولا بقوله .

كذلــك نجد الدكتور / أحمد صبحي يقول : بأن " الإبانة " كتب في بداية التحول ، وذلك لأن التحول المذهبي لا يعرف الاعتدال ، وإنما هــو انتقال من تأييد إلى عداوة ، وأشد ما تكون العداوة عقب التحول ، وفـــي " الإبانة " حملة شعواء على المعتزلة ، وعرض مشوه لأفكارهم مع معرفة الأشعري الدقيقة والعميقة لحقيقة آرائهم . [٢]

ويبين الدكتور / غرابة بأن الأشعري قد توسط بين العقل والنقل بقوله " إن التزام حرفية النص وتحريم استعمال العقل في تأييد ما ورد به من حقائق أمر خاطئ لا يقول به إلا كسول أو جاهل .. ، ومع هذا فالجري وراء العقل غير محوط بسياج من الشرع ، وبخاصة في الآراء التـــي تتصـــل بالعقـــيدة أمر خاطئ أيضا ، بل يعتبر أشد خطأ وأكثر خطـــرا ، وإذن فمـــن الخـــير للحق في ذاته وللجماعة التي تعمل على اكتشافه أن تتخذ في ذلك منهجا وسطا يزاوج بين العقل والنص . [٣]

هذا النص الذي ذكره الدكتور / غرابة ، ذو جانبين :

---

(١) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع (ص ٧) للإمام الأشعري – تحقيق : د / غرابة .

(٢) د / أحمد صبحي في علم الكلام (جـ ٢ ص ٤٦) – الطبعة الرابعة – مؤسسة الثقافة الجامعية – إسكندرية بدون تاريخ .

(٣) الدكتور / غرابة : الأشعري (ص ١٣٥) . من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية – سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م .

الجانـــب الأول : منه موجه ضد الحشوية والحنابلة ، وفي ذلك يقول الأشعري " إن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس ، ما لهم وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين ، ومالوا إلى التخفيف والتقليد ، وطعنوا علـــى مـــن فتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال ، وزعموا أن الكـــلام فـــي الحـــركة والسكون والجسم والعرض والألوان والأكوان والجزء والطفرة وصفات الباري بدعة ، وضلاله . (١)

أمـــا الجانب الثاني : من هذا النص فموجه إلى المعتزلة ، وقد **أخذ الأشعري في رسالة استحسان الخوض في علم الكلام يثبت ضرورة استخدام العقل في أمور العقيدة مستندا إلى نصوص نقلية وأدلة عقلية ، وقـــد حاول جاهدا أن يجد أصول المسائل التي يخوض فيها المتكلمون فـــي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والأصل في المناقضة على الخصم في** الـــنظر فمـــأخوذ من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أيضا وذلك بتعليم الله إياه حين لقي الحبر السمين ، فقال له : " ناشدتك بالله هل تجد فـــيما أنـــزل الله تعالى من التوراة أن الله يبغض الحبر السمين فغضب الحـــبر حين عيره بذلك ، فقال : " ما أنزل الله على بشر من شيء " . فقـــال تعالى : **﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للـــناس ﴾** (٢) ، فناقضه عن قرب لأن التوراة شيء ، وموسى بشر . وقد كان الحبر مقرا بأن الله أنزل التوراة على موسى . فقد كان يلوح

---

(١) الأشعري : استحسان الخوض في علم الكلام (ص ٩٥) ملحق كتاب علم الكلام للدكتور / عامر النجار . دار المعارف – الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م .

(٢) سورة الأنعام (آية / ٩١) .

بقوله ما أنزل الله على بشر من شيء إلى إنكار بما يعترف بصحته وهو كتاب موسى " التوراة " الذي أنزله الله عليه وكان حجة في يديه .

وينتهي الأشعري من كل الأمثلة التي ساقها إلى أن : " القرآن والسنة لم يهملا العقل ، ولم يحرما النظر والاستدلال ، وإذن فاستعمال العقل في فهم الشرع وتأييده ضرورة وليس ضلالة كما يقول الحنابلة الذين يتمسكون بظاهر النص وحده ، ولا يحيدون عنه . (١)

ويمضي الأشعري قائلا " حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع أن تكون مردودة ، إلى أصول الشرع التي طرقها السمع وحكم مسائل العقليات والمحسوسات أن يرد كل شيء من ذلك إلى بابه ولا تختلط العقليات بالسمعيات ولا السمعيات بالعقليات . (٢)

ومعنى هذا أننا في أمور الدين نستدل بأدلة عقلية ، وأدلة سمعية ، ومن المسائل العقدية ما يحتاج إلى أدلة عقلية . ومنها مالا يمكن البرهنة عليه إلا بأدلة سمعية ، ومنها ما يبرهن عليه أدلة السمع والعقل معا ، فلكل مجال ولا يجب أن تختلط المجالات .

ويقول الدكتور / غرابة معبرا عن رأي الأشعري " محاولة إدراك النص في ضوء العقل أو السير وراء العقل في حدود من الشرع ، لأن العقل إذا ترك وشأنه اتبع هواه ، ولكنه بالشرع يتبع هداه وفرق بين الهوى المضل وبين الهدى الذي يعصم من

(١) د / غرابة : الأشعري (ص ٨١) .
(٢) رسالة استحسان الخوض في علم الكلام (ص ١٠١) .

نزل والعشار .(١)

ولكـون هذا المنهج في غاية الدقة ، ويتطلب الحيدة التامة بين النص والعقل ، وأن أي ميل لـ أحدهما يكون على حساب الآخر ، فإن هـذا المنهج يثير بعض الاعتراضات التي تتطلب الإجابة عليها ، وإلا صـار هذا المنهج نظريا فقط يصعب تطبيقه عمليا في مسائل العقيدة ، وقـد أشـاد الدكتور / غرابة في ذلك إلى سؤال يفرض نفسه وهو أي الأمريـن يعنـي النص أو العقل سيكون الطابع والمرجع إذا تعارضا ، ويجيب على ذلك الدكتور / غرابة بقوله : " إذا قال الأشعري أن النص هـو الأصل ومهمة العقل هو تأييد ما يفهم منه لغة مهما كانت الحقيقة التـي يدل عليها فقد رجع بذلك إلى مذهب الحشرية والمشبهة ، بل إلى مـا هـو أشـد من ذلك لأنك ستحاول أن تثبت عقليا أن لله يدا ووجها وكرسـيا ، وعرشا ، وقد لا يبدو ذلك مقبولا فيؤدي هذا إلى فقدان العقل والنص لقد استهما " ....

وإذا قـال الأشـعري أن العقل هو المرجع ، فمعنى ذلك تأويل الـنص أو إنكاره إذا تعارض معه ، ويكون بذلك قدر رجع إلى منهج المعتزلة والفلاسفة الذين جعلوا العقل أولا والنص ثانيا .(٢)

إلا أنـنا نـرى أن الدكتور / غرابة لم يحالفه الصواب في تلك الإجابة التي ذهب إليها ، وذلك لأن الأشعري عند وجود التعارض بين

(١) د / غرابة : الأشعري (ص ٨٥) .
(٢) الدكتور / غرابة : الأشعري (١٣٥ . ١٣٦) .

العقل والنقل ، فإنه يقدم النص على العقل .

ويقول الدكتور / أحمد صبحي معبرا عن ذلك " أن الأشعري لم يلتزم الوسط في بعض المسائل وأنه كان يميل إلى جانب النقل ، فإذا تعارض العقل مع النقل ، فإن النقل هو المقدم إذا يجب أن يتبع العقل النقل ولا يحيد عنه " . (١)

وقد كان الأشعري لماحا شديد الذكاء حين رأي تقديم النص على العقل ، لأننا نجد في القرآن والسنة الكثير من أصول المسائل الاعتقادية وكان استخدام العقل لتأييد النص ودفع الشبهات التي يثيرها الخصوم . وإذا كان العقل مساعدا ومهمته تأييد النص فليس معنى ذلك أن الأشعري يرجع إلى عقيدة الحشوية والمشبهة . لأن هؤلاء ينكرون استعمال العقل أصلاً ولو كوسيلة مساعدة ولا يعترفون بشيء سوى النص ويفسرونه على ظاهره ، وقد استخدم الأشعري العقل لأن هناك نصوصاً تتطلب لفهمها التأويل حتى تكون معقولة ومقنعة . (٢)

وأيضا لم يقل الأشعري بتقديم العقل على النص لأنه خرج على المعتزلة لكونهم بالغوا في استخدام العقل وأفرطوا في ذلك .

المنهج

ويذكر الإمام الكوثري أن الأشعري لم يلتزم هذا المنهج في بعض المسائل ، وإنما كان يميل إلى طرف من الطرفين أكثر من الآخر ، فيقول " ومع ذلك لا تخلوا آراؤه من بعض ما يؤخذ كنوع

---

(١) د / أحمد صبحي في علم الكلام (جـ ٢ ٤٨) .
(٢) نشأة الأشعرية وتطورها : د / جلال موسى (ص ١٩٨) .

ابتعاد عن العقل مرة وعن النقل أخرى في حسبان النظر في كلامه في مسائل نظرية معدودة ، كقوله في التحسين والتقبيح والتعليل . [١]

وقد علل الكوثري ذلك بطول جداله مع المعتزلة والحشوية ، ويمكن أن نقول أنه من الصعوبة بمكان الاعتدال التام وإعطاء كل من النقل والعقل حقه خاصة إذا كان الجدال مع أصناف متعددة من الخصوم لكل منهم مذهب خاص يلتزم به . [٢]

وإحقاقا للحق ، فقد كان المنهج الأشعري وحدة متكاملة لا هوة فيها ، حيث ربط بين العقل والنقل ربطا سليما ، والذي اضطره إلى النظر العقلي أنه تصدى للرد على الفلاسفة وغيرهم من أهل الأهواء الفاسدة والكثير من هؤلاء لا يقنعه إلا أقيسة البرهان ، ومنهم فلاسفة علماء لا يقنعهم إلا دليل العقل ، ولا يرد كيدهم في نحورهم أثر أو نقل . [٣]

وبالرغم من ذلك فقد كان المنهج الأشعري يجمع ، ويزاوج بين النقل والعقل ، وذلك لأن فكرة علم الكلام التي التصقت بالمعتزلة ، والمغالاة في استعمال العقل هو الذي أدى إلى انحراف المعتزلة ، فاستعمل الإمام الأشعري العقل بجانب النص ، وقيده بأحكام الشرع ،

---

(١) مقدمة تبيين كذب المفتري (ص ١٩) – تحقيق : الكوثري .
(٢) نشأة الأشعرية وتطورها (ص ٢٠٠) .
(٣) تاريخ الجدل (ص ٢٨٥) للإمام محمد أبي زهرة – دار الفكر – الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠م .

ولذا فقد وصف الدكتور / النشار منهج الأشعري بقوله : " أنه يتلخص فـي اسـتخراج الأدلـة من النصوص مع شيء من التحليل والتركيب للمقدمات والتحصيل المنطقي " . [١]

وعلـى ذلك فقد استطاع الأشعري بهذا المنهج الوسط أن يجعل من العقل أداة صالحة لفهم النص حتى أدخل الأفكار الكلامية في دائرة الأذهـان ، فكان الأشعري بذلك وسطا بين طرفي الإفراط والتفريط . وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته ، فقال " قال الشيخ أبو الحسن الأشـعري إمـام المتكلمين ، فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه أهل السلف " [٢]

نماذج تطبيقية على وسطية المنهج الأشعري : ومما يثبت ويؤكد أن المنهج الأشعري كان منهجا وسطا بين النقل والعقل ، ما أثبته الجويني عن الأشعري ، أنه نظر في كتب المعتزلة والجهمية والرافضة وأنهم عطلـوا ، فقـالوا لا علـم لله ولا قدوة ، ولا إرادة ، ولا سمع ، ولا بصـر ، ولا حـياة ، ولا بقاء ، وقالت الحشوية والمجسمة والمكيفة المحـددة أن لله علما كالعلوم وقدرة كالقدر وسمعا كالأسماع ، وبصرا كالأبصـار ، فسـلك طـريقه بينهما ، فقال " إن لله سبحانه وتعالى علمـا لا كـالعلوم وقـدرة لا كـالقدر وسمعا لا كالأسماع وبصرا لا

---

[١] مقدمة الشامل للجويني (ص ٦٦) – تحقيق : الدكتور / على سامي النشار – منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٦٩م .

[٢] مقدمة بن خلدون (٤٠٨) مطبعة الحاج عبد السلام بن محمد بن شقرون .

كالأبصار . (١)

وبهـــذا فقد أثبت الجويني أن الأشعري قد جاء بعقيدة وسط بين الاثنين ليقدم للمسلمين الصراط المستقيم بهذه الوسطية .

وأيضا فقد توسط الأشعري في كلام الله تعالى مفرقا في ذلك بين كلامـــه النفســـي الـــذي هـــو صفة له قديمة قائمة بذاته وبين الحروف المقطعـــة والأجســـام التي يكتب عليها وهي حادثة ، يقول ابن عساكر فـــي ذلـــك " وكذلـــك قالـــت المعـــتزلة كـــلام الله مخلـــوق مخترع " وقالـــت الحشـــوية المجســـمة الحروف المقطعة والأجسام التي يكتب علـــيها ، والألوان التي يكتب بها ، وما بين الدفتين كلها قديمة أزلية . فســـلك ـ طـــريقة بينهما . فقال : القرآن كلام الله قديم غير مغير ولا مخلـــوق ولا حـــادث ولا مبـــتدع ، فأمـــا الحروف المقطعة والأجسام والألـــوان والأصـــوات والمحـــدودات وكل ما في العالم من المكيفات مخلوق مبتدع مخترع . (٢)

وكذلك يتوسط الأشعري في رؤية الله تعالى ، فيقول ابن عساكر " وكذلـــك قالـــت الحشـــوية المشبهة إن الله سبحانه وتعالى يرى مكيفا محـــدودا كســـائر المرئـــيات ، وقالت المعتزلة والجهمية والنجارية أنه سبحانه لا يرى بحال من الأحوال فسلك ـ طريقه بينهما فقال يرى من غـــير حدود ولا حلول ولا تكييف ، كما يرانا هو سبحانه وتعالى وهو

---

(١) تبيين كذب المفترى (ص ١٤٩) .
(٢) المصدر السابق (ص ١٥٠) .

غير محدود ، ولا مكيف فكذلك نراه وهو غير محدود ولا مكيف . (١)

ويتوسط الأشعري أيضا في بيان العرش والاستواء ، فيقول ابن عساكر " وكذلك قالت النجارية أن الباري سبحانه بكل مكان من غير حلول ولا جهة ، وقالت الحشوية المجسمة إنه سبحانه حال في العرش وأن العرش فكان له وهو جالس عليه . فسلك الأشعري طريقه بينهما ، فقال " كان ولا مكان فخلق العرش والكرسي ولم يحتج إلى مكان وهو بعد خلق المكان كما كان قبل خلقه " . (٢)

وقد توسط الأشعري أيضا في أفعال العباد فيقول ابن عساكر " وكذلك قال جهم بن صفوان العبد لا يقدر على إحداث شيء ولا كسب شيء ن وقالت المعتزلة هو قادر على الإحداث والكسب معا فسلك طريقه بينهما ، فقال : العبد لا يقدر على الإحداث ويقدر على الكسب ، ونفى قدرة الإحداث وأثبت قدرة الكسب " . (٣)

وأيضا فقد توسط الأشعري في أمر مرتكب الكبيرة ، فتقرأ في تبيين كذب المفترى " وكذلك قالت المرجئة من أخلص لله سبحانه وتعالى مرة في إيمانه لا يكفر بارتداد ولا كفر ولا يكتب عليه كبيرة قط ، وقالت المعتزلة إن صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعته مائة سنة لا يخرج من النار قط ، فسلك طريقه بينهما ، وقال المؤمن الموحد الفاسق هو

(١) تبيين كذب المفترى (ص ١٤٩) .
(٢) المصدر السابق (ص ١٥٠) .
(٣) المصدر السابق (ص ١٤٩) .

فـــي مشـــيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عاقبه بفســـقه ثم أدخله الجنة ، فأما عقوبة متصلة مؤبدة فلا يجازي بها كبيرة منفصلة منقطعة " . (١)

ويتوســـط الأشعري في الشفاعة ، فيقول ابن عساكر : " وكذلك قالت الرافضة أن للرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ولعليّ ﷺ شفاعة من غير أمر الله تعالى ولا إذنه ، حتى لو شفعا في الكفار قبلت ، وقالت المعـــتزلة لا شفاعة له بحال ، فسلك ؓ طريقه بينهما فقال بأن للرسول صلوات الله وسلامه عليه شفاعة مقبولة في المؤمنين المستحقين للعقوبة ويشفع لهم بأمر الله وإذنه ولا يشفع إلا لمن ارتضى " . (٢)

وهكذا لو تتبعنا آراء الأشعري والأشعرية كلها لما صعب علينا أن ندرك أنها وسط بين طرفي الإفراط والتفريط .

لقـــد ســـلك الأشعري في الاستدلال على العقائد مسلك النقل ، ومسلك العقل ، في حين كان كثير من علماء السلف ويتحاشون الخوض في الأمور العقلية مخالفين في ذلك المعتزلة الذين ذهبوا بعيدا في تقدير العقـــل والاعتماد عليه حتى أهملوا النقل فكانت الثقة بين الفريقين بعيدة وكان من الضروري وجهتي النظر وتوحيدهما في مجرى واحد يرضي الجمـــيع ، وهذا هو ما فعله الأشعري فإنه تمسك بالمنقول وعمل به ، واستعان بالعقل على ما جاء به النقل لأن الأشعري كما يقول الغزالي "

---

(١) تبيين كذب المفترى (ص ١٤٩) .
(٢) المصدر السابق (ص ١٥١) .

لا يـــرى معاندة بين الشرع المنقول [illegible] الحق المعقول [illegible] المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة [illegible] والاعتماد على طريق المستقيم " . (١)

فـــبذلك قد وضع الأشعري أسسا جديدة لعلم الكلام لا تتنافر مع عقائد السنة ، فراقت لجميع أعلام أهل السنة ومفكريهم واتبعوها – عدا بعـــض الحـــنابلة – لأنهـــم وجدوا فيها خير وسيلة للتخلص من النزاع الطويل بين الأثرية والمعتزلة .

هـــذا الـــنمط مـــن الكـــلام الذي سلك طريقا وسطا بين الإفراط والـــتفريط والذي استخدم العقل في الدفاع عما جاء به النقل هو ما بدأه الأشعري وأكمله من بعده أتباعه الكثيرون الذين اعتنقوا مذهبه وساروا علـــى طريقه وهم صفوة علماء الإسلام وخيرة رجاله . كالقاضي أبي بكر الباقلاني ، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، والإمام الغزالي ، وغـــيرهم كثير شرحوا عقائد الأشعري ونظموها وزادوا عليها ودافعوا عنها بالأدلة والبراهين العقلية ، فكان لهم أكبر الفضل وأعظم الأثر في إنجاح المذهب الأشعري وانتشاره .

وكـــان مـــن أبـــرزهم وأقواهـــم شخصية وأبينهم اثرا أبو بكر الباقلانـــي وهـــو محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر القاضي المعروف بابـــن الباقلاني المتكلم على المذهب الأشعري من أهل البصرة – سكن

---

(١) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٧ ، ٨) – تحقيق : فضيلة الشيخ / محمد مصطفى أبو العلا – مكتبة الجندي .

بغـــداد وسمع بها الحديث من أبي بكر بن مالك وأبي محمد بن ماس ، وأبي أحمد الحسين بن علي النيسابوري .(١)

وقد ترجم له ابن خلكان بقوله هو " القاضي أبو بكر بن الطيب ابـــن محمـــد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشــهور ، كـــان علـــى مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ، ومؤيدا اعـــتقاده وناصـــرا طريقـــته ، سكن بغداد ، وصنف التصانيفي الكثيرة المشهورة في علم الكلام " .(٢)

وقـــد برع في علم الكلام حتى قال عنه الخطيب البغدادي قولا نقلـــه عن ابن عساكر " كان أعرف الناس به وأحسنهم خاطرا وأجودهم لسانا وأوضحهم بيانا ، وأصحهم عبارة .(٣)

ويذكـــر الكوثـــري أن الباقلاني كان من أعاظم الأئمة في علم التوحيد والصفات وأنه زاد المذهب الأشعري وضوحا وبيانا " .(٤)

وكما سبق أن بينت أن طريقة الإمام الأشعري كانت في التوسط بين النصيين والعقليين ، فقد وجدت هذه الطريقة تلاميذ أقرباء يؤيدونها ويدافعون عنها ، وكان من هؤلاء التلاميذ أبو بكر الباقلاني الذي كان له

---

(١) انظر : تبيين كذب المفترى (ص ٢١٧) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٢٧٨) طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ .

(٣) تبيين كذب المفترى (ص ٢١٧) .

(٤) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (ص ٧) للإمام الباقلاني – تحقيق : الشيخ / محمد زاهد الكوثري – الطبعة الثانية – مؤسسة الخانجي – القاهرة .

الفضل في تأسيس المذهب الأشعري وبنائه على أسس منهجية من العقل والمنطق .

لهذا نجد ابن خلدون يقول في مقدمته " وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي يتوقف عليها الأدلة والأنظار . وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وأن العرض لا يقام بالعرض ، وأنه لا يبقى زمانين ، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم . . "(١)

وكذلك نجد الأستاذين الخضيري وأبو ريده يذكران " أن القيمة الكبرى لعمل الباقلاني كانت في التنهيج وفي بناء مذهب الأشعري الكلامي والاعتقادي بناء منظما لا من حيث الطريقة المنطقية الجدلية فحسب بل من حيث المقدمات التي تنبني عليها الأدلة ، ومن حيث ترتيب المقدمات بعضها بعد بعض " . (٢)

ولهذا فقد كان للباقلاني الفضل في نقل الحجاج مع المخالفين إلى ميدان العقل النظري بعد أن كان من تقدمه يستند إلى النصوص بسبب

(١) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة (ص ٤٠٩) .

(٢) التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة (ص ١٥) للإمام الباقلاني – تحقيق : د / محمد عبد الهادي أبو ريدة . والأستاذ / محمود محمد محمد الخضيري – الناشر : دار الفكر العربي .

نقص التكوين الفلسفي وقلة الاحتكام إلى المنطق أو الغرض على الأصول العقلية فلا يجد عند الباقلاني سوى مقارعة الدليل بالدليل على الصورة الجدلية الخالصة المستقلة عن النصوص والتي لا تتقيد إلا بالمنطق وتمحيص أصول الآراء من الناحية العقلية .[١]

وبهذا يمكن أن نقول أن الباقلاني كان أكثر توسعا في استخدام العقل ، وهذا واضح في كتابه " التمهيد " فلا تجد فيه دليلا سمعيا واحدا خاصة في مسألة الصفات ، ويبدو أن ذلك راجع إلى الطابع الذي كان يسود هذا الكتاب وهو الرد على مخالفين لا تقنعهم سوى الحجة العقلية لأنهم لا يؤمنون بسواها طريقا إلى القناع ، أما النص فكان سبيلهم إليه الإنكار .

وعلى كل فقد حاول الباقلاني أن يلتزم منهج شيخه الأشعري في التوسط بين العقل والنقل ، ولكن ضرورة الجدال والنقاش ، وحاجة المذهب الأشعري إلى تدعيم وتأييد حتى يكون مؤسسا على قواعد منهجية صحيحة جعل الباقلاني يغلب جانب العقل على جانب النقل ، وإن لم يصل إلى حد إهمال النص .

وأيضا من أتباع الأشعري الذين اتبعوا طريقته هو أبو المعالي " إمام الحرمين الجويني " عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله بن حيوية الجويني " .[٢]

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٦) .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (ج ٣ ص ٢٤٩) .

وهو كما ترجم له ابن خلكان أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق المجمع على إمامته المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك . (١)

وتفقه في صباه على والده أبي محمد ، وأتى على جميع مصنفاته ، وتصرف فيها حتى زاد عليه ، ولما توفي والده أقعده مكانه للتدريس وهو في نحو العشرين من عمره ، وهو مع ذلك من الأئمة المحققين كما يقول ابن تقي الدين السبكي . (٢)

وتخرج في علم الكلام على أبي القاسم عبد الجبار بن علي الإسفراييني تلميذ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني المتخرج على أبي الحسن الباهلي ، تلميذ إمام أهل السنة أبي الحسن الأشعري . (٣)

ولما ظهر التعصب بين الأشاعرة والمعتزلة ، واضطربت الأمور خرج إلى الحجاز ، وجاور بمكة والمدينة أربع سنين يدرس ويفتي ، ولهذا قيل له إمام الحرمين ، ثم عاد إلى نيسابور بعد أن استقرت الأحوال في أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان ، والوزير يومئذ نظام الملك ، فبني له هذا الوزير المدرسة النظامية ، وأقعد للتدريس بها

---

(١) وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨) .
(٢) طبقات الشافعية (جـ ٢ ص ٢٥١) .
(٣) الشيخ الكوثري – مقدمة العقيدة النظامية (ص ٦) للإمام الجويني – طبعة القاهرة – سنة ١٩٤٨م .

وبقى على هذا النحو ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع وكان يقعد بين يديه لتلقي العلم نحو من ثلاثمائة من الأئمة وأعيان الطلاب .[١]

وقد جاهد إمام الحرمين الجويني أن يلتزم منهج الشيخ الأشعري في التوسط والمزاوجة بين العقل والنقل ، وقد خصص بابا في كتابه " الإرشاد " أسماه باب القول في السمعيات قال في أوله " اعلموا وفقكم الله أن أصول العقائد تنقسم إلى ما يدرك عقلا ، ولا يسوغ تقديرا إدراكه سمعا ، وإلى ما يدرك سمعا ولما يتقدر إدراكه عقلا ، وإلى ما يجوز إدراكه سمعا وعقلا ."[٢]

وبعد أن تكلم إمام الحرمين الجويني عن الأقسام الثلاثة قال " فإذا ثبتت هذه المقدمة فيتعين بعدها على كل معتن بالدين واثق بعقله أن ينظر فيما تعلقت به الأدلة السمعية ، فإن صادفه غير مستحيل في العقل ، وكانت الأدلة السمعية قاطعة في طريقها لا مجال للاحتمال في ثبوت أصولها ، ولا في تأويلها ، فما هذا سبيله فلا وجه الا القطع به . وإن لم تثبت الأدلة السمعية بطرق قاطعة ، ولم يكن مضمونها مستحيلا في العقل وثبتت أصولها قطعا ، ولكن التأويل يجول فيها فلا سبيل إلى القطع ، ولكن المدين يغلب على ظنه ثبوت ما دل الدليل السمعي على ثبوته ، وإن لم يكن قاطعا ، وإن كان مضمون الشرع المتصل بنا

---

(١) وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٤٠٧) . والسبكي : طبقات الشافعية (جـ ٣ ص٢٥٢) .

(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص ٣٥٨) للإمام الجويني – تحقيق : د / محمد يوسف مرسي . والأستاذ / محمد محي الدين عبد الحميد – مطبعة سنة ١٩٥٠م.

مخالفا لقضية العقل ، فهو مردود قطعا بأن الشرع لا يخالف العقل و لا يتصور في هذا القسم ثبوت سمع قاطع و لا خفاء به . (١)

وهكذا فقد حاول الجويني أن يسير على طريقة شيخه الأشعري في التوسط بين العقل والنقل وأن يثبت بأن الشرع لا يخالف العقل وأنه لا غنى للعقل عن السمع ، كما أنه لا غنى للسمع عن العقل ، ولكن طبيعة الجدل والمناقشة مع الخصوم جملته يميل إلى العقل أكثر من شيخه الأشعري ، وإن كان لم يهمل النص .

وأيضا من تلاميذ الشيخ أبي الحسن الأشعري : أبو حامد الغزالي " محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الإمام الجليل أبو حامد الغزالي حجة الإسلام وحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام جامع شتات العلوم والمبرز في المنقول منها والمفهوم " . (٢)

وقد نصب الإمام الغزالي نفسه مدافعا عن عقيدة أهل السنة والجماعة التي سبقه في الدفاع عنها شيخه الأشعري ، وتلميذاه الباقلاني والجويني ، وقد رأى الغزالي أن منهجهم هو التوسط بين العقل والنقل ، وأن من القصور الوقوف عند واحد منهما ، لأن الوقوف عند واحد يكون على حساب الآخر ، وإنما يكون الاعتدال بين الطرفين والأخذ من كل بنصيب هو المنهج الحق الذي اتبعه السلف ولم يحيدوا عنه .(٣)

---

(١) المصدر السابق (ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠) .
(٢) طبقات الشافعية (جـ ٤ ص ١٠١ ، ١٠٢) .
(٣) نشأة الأشعرية وتطورها (ص ٤٣٠) .

ولهـذا نـراه في كتابه " الاحياء " يدعو إلى المزج بين العلوم العقلية والعلوم الدينية ، يبين الحاجة إلى كل منهما ، ويقرر أن لا غنى بالعقل عن السمع ، ولا غنى بالسمع عن العقل : " فالداعي إلى محض التقليد مـع عـزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل عن أنـوار القـرآن والسنة مغرور فإياك أن تكون من أحد الفريقين . وكن جامعـا بين الأصليين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدويـة ، والشـخص المـريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء ، فكذلـك أمـراض القلـوب ، لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستقاة من الشريعة " (١)

ثـم يحمـل الغزالـي بقوة على من يظن أن ثمت تناقضا بين العقليـات والشـرعيات ، فـيقول : " وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضـة للعلـوم الشـرعية ، وأن الجمع بينهما غير ممكن . هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة ، نعوذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض ، فيعجز عن الجمع بينهما . فيظن أنه تناقض في الدين فيتحير به ، فينسل من الدين انسلال الشعرة مـن العجين دائما ذلك ، لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقصا في الدين وهيهات " . (٢)

---

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين (جـ ٣ ص ١٦) طبعة : مصطفى البابي الحلبي – سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م .

(٢) المصدر السابق (جـ ٣ ص ١٧) .

ويصنف الغزالي أهل السنة في مقدمة كتابه " الاقتصاد في الاعتقاد " بأنهم وحدهم الذين اهتدوا إلى أسرار ما أنزل الله على رسوله ، واطلعوا على التوفيق بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول . وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد ، واتباع الظواهر . ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر ، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط . بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الصراط المستقيم . (١)

ويذكر الغزالي هنا مثالا للعل والشرع ، فمثال العقل البصر السليم من الآفات ، ومثال القرآن : " الشمس المنتثرة الضياء . ولا يستغني بأحدهما عن الآخر ، إلا من كان في غمار الأغبياء . فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن ، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان ، فلا يقرر بينه وبين العيان فالعقل مع الشرع نور على نور ، والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما متدلل بحبل غرور . (٢)

---

(١) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٧ ، ٨) . تحقيق الشيخ / محمد مصطفى ابو العلا ـ مكتبة الجندي .

(٢) المصدر السابق (ص ٨) .

وهكذا يرى الغزالي (أن الوقوف) عند ظاهر النص هو طريق الحشوية المقلدين والاكتفاء بالعقل وحده هو سبيل المعتزلة والفلاسفة ، وأنهما حادا عن سلوك السبيل السوي المؤدي إلى الصواب ، فيقول " كيف يهتدي إلى الصواب من اقتفى محض العقل واقتصر وما استضاء بنور الشرع ، ولا استبصر "(١).

وبهذا ظل الغزالي داعيا إلى الجمع بين مقررات الشرائع وموجبات العقول ، أي بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وبذلك فقد توسط الغزالي بين العقل والنقل مثل شيخه الأشعري ، وإن كان قد أعطى للعقل مجالا أوسع فذلك نظرا لظروف المجادلة والمناقشة مع الخصوم الذين لا يؤمنون بالنص ولا يعترفون به.

(١) المصدر السابق (ص ٨).

{ تعقيب }

وبعـــد : ... فقد تبين لنا من خلال هذا العرض المستفيض أن السلفيين قد حاولوا الوقوف عند ظاهر النص والابتعاد عن العقل كلية ، ولكنهم لم يستطيعوا ، وذلك لأن الوقوف عند ظاهر النص دون إعمال العقل ، إنما هو طريق المشبهة والمجسمة ، هذا فضلا عن أن ذلك فيه تعطـيل لمهمة العقل تلك المهمة التي لا يمكن اغفالها وهي أنه مكلف بتفســير النصــوص واستنباط الأحكام منها ، والتوفيق بين النصوص وإزالة التعارض بين بعضها وبعض إلى غير ذلك مما يعمل فيه العقل مما هو من مجالاته .

وقــد تبيــن لــنا أيضا أن المعتزلة قد غالوا في استخدام العقل وإعطائه أكثر مما يستحق ، وترك النص جانبا لا يأتون به إلا التأييد ما جاء به العقل ، وهذا أيضا غلو وشطط .

بسم الله الرحمن الرحيم

{ أصل الشيعة }

لا شـك أن الشيعة من الفرق الإسلامية إذا استبعدنا متطرفيهم الذيـن قالوا بألوهية عليّ ﷺ أو بحلول الإله فيه هؤلاء الذين غالوا في حـب علـيّ الذي خرج به عن دائرة الإنسانية وخرج بهم عن حظيرة الإسـلام ، وإذا أخرجنا الغلاة كانت نسبة بقية الشيعة إلى الإسلام من الأمور المعقولة أو المقبولة رغم ما يقال عنهم .

لأنهم كما يقول بعض المفكرين يتعلقون ببعض نصوص القرآن والحديـث وإن كـانوا قد اتهموا بوضع بعض الأحاديث التي تغالي في مكرمة عليّ ﷺ .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول أصل المذهب الشيعي فقد عزاها بعض الباحثين إلى أثر الفرس الذين كانوا يقدسون الملك فلما أزال الفتح الإسلامي ملكهم ودخلوا في الإسلام ، ظهر أثر تقديسهم القديم لملوكهم فـي موقفهم من آل البيت ومغالاتهم في حبهم واعتقاد أحقيتهم بالخلافة بعد الرسول ، فالمذهب إذن وليد نزعة فارسية ، وذلك أن العرب تدين بالحـرية والفرس يدينون بالملك والوراثة في البيت المالك ولا يعرفون معنى الانتخاب للخليفة وقد انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ولم يترك ولداً فأولى الناس بعده في نظرهم ابن عمه عليّ ابن أبي طالب كرم الله وجهـه ، فقالوا بأمامته نصاً ووصية واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من

أولاده وإن خرجت فبظلم تخرج .

فمن أخذ الخلافة منه كأبي بكر وعمر وعثمان فقد اغتصبها من مستحقها ، وقد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى التقديس فنظروا بهذه الصفة نفسها إلى عليّ وبنيه وذريتهم ، وقالوا إن طاعة الإمام واجب وطاعته طاعة لله تعالى . (١)

ويقرر بعض العلماء أن الشيعة أخذت من اليهودية أكثر مما أخذت من الفارسية ، مستدلا بأن عبد الله بن سبأ أول من أظهر الدعوة إلى تقديس عليّ كان يهوديا ، ويقرر أصحاب هذا الرأي أن الشيعة قد جمعت إلى الأثر اليهودي بعض العقائد الأسيوية القديمة كالبوذية . (٢)

ويقول الشيخ أبو زهرة " إن هذا القول الذي يقرر أن المذهب الشيعي قد استقى بعض مبادئه من اليهود قد اعتمد على ما ورد عن الشعبي في ذلك إذ قال عن الشيعة إنهم يهود هذه الأمة . (٣)

وما ورد عن ابن حزم عندما قال " سار هؤلاء الشيعة في سبيل اليهود القائلين إن الياس وفنجاس بن العاذر ابن هارون عليه السلام أحياء إلى اليوم ، وسلك هذا بعض الصوفية فزعموا أن الخضر وإلياس عليهما

---

(١) انظر تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ أبي زهرة (جـ ١ ص ٣٤) . والتفكير الفلسفي في الإسلام للدكتور / عبد الحليم محمود (ص ١١٩ ـ ١٢٠) .

(٢) تاريخ المذاهب (ص ٣٤) .

(٣) المصدر السابق (ص ٣٤) .

السلام حيان إلى اليوم " . (١)

وفـــي الحـــق أنا نعتقد أن الشيعة تأثروا بالأفكار الفارسية حول الملك والوراثة ، وأن التشابه بين مذهبهم ونظام الملك الفارسي واضح ، ويزكـــي هـــذا أن أكـــثر أهل فارس إلى الآن من الشيعة ، وأن الشيعة الأولين كانوا من فارس .

وأمـــا الـــيهودية فإذا كانت توافق بعض آرائهم ، فلأن الفلسفة الشيعية اقتبست من نواحٍ مختلفة وكان المنزع فارسيا في جملته ، وأن استندوا إلى أقوال إسلامية .

والشيعة الحاضرون وأكثر المعتدلين ينكرون أن يكون مثل عبد الله ابن سبأ منهم لأنه ليس مسلما في نظرهم فضلاً عن أن يكون شيعيا محبا لآل البيت . (٢)

وهناك رأي يرى أن السبب في نشأة الشيعة لا يرجع إلى الفرس عـــند دخولهم في الإسلام ولا يرجع إلى اليهودية ممثلة في عبد الله بن سبأ ، وإنما هو أقدم من ذلك فنواته الأولى ترجع إلى شخصية علي ﵁ من جانب وصلته بالرسول عليه الصلاة والسلام من جانب آخر .

وذلـــك أن علياً ﵁ قد ضمه الرسول ﷺ إلى نفسه وأهل بيته منذ الصغر ، فتفتحت عيناه على القدوة برسول الله عليه الصلاة والسلام من

---

(١) **الفصل في الملل والنحل لابن حزم (ج ٣ ص ١٣٨) .**
(٢) **تاريخ المذاهب (ج ١ ص ٣٥) .**

خلق الرحمة التي كان من آثارها صلة الرحم ، وإكرام الضيف والإعانة على نوائب الدهر .

ولقد ترك ما تحلى به الرسول ﷺ وزوجه خديجة من صفات كريمة أعمق الأثر في نفس الصغير عليّ ﷺ .

وقد أوحى إلى رسول الله ﷺ في سن العاشرة فاعتنق الإسلام طاهراً حيث لم تتدنس جبهته بالسجود لصنم ، ولم تكن سنه آنذاك تسمح باقتراف المعاصي .

وقد رباه الرسول عليى عينيه حتى لقد كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة لأدائها وخرج معه عليّ بن أبي طالب مستخفيا من أبيه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا .[١]

وحين نزلت الآية الكريمة **﴿ وانذار عشيرتك الأقربين ﴾**[٢] دعا محمد ﷺ عشيرته إلى الطعام في بيته ، وحاول أن يحدثهم داعيا إياهم إلى الله ، فقطع أبو لهب حديثه واستفز القوم ليقوموا .

ودعاهم محمد ﷺ في الغداة كرة أخرى ، فلما طعموا قال لهم : ما أعلم إنسان في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا

---

(١) سيرة ابن هشام (ج ١ ص ٢٢٩) مكتبة الكليات الأزهرية .
(٢) سورة الشعراء (آية / ٢١٤) .

الأمر فأعرضوا عنه ، وهموا بتركه .

لكـــن عليا نهض وهو ما يزال صبيا دون الحلم . وقال : أنا يا رســـول الله في عونك أنا حرب على من حاربت ، فابتسم بنو هاشم . وقهقه بعضهم وجعل نظرهم ينتقل من أبي طالب إلى ابنه ثم انصرفوا مستهزئين (١) .

وفـــي لـــيلة الهجـــرة أمر الرسول ﷺ إلى عليّ أن يتسجي برده الحضـــرمي الأخضـــر وأن ينام في فراشه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس . (٢)

وآخـــى رســـول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، حيـــن نـــزلوا المدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهـــل والعشـــيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ثم أخذ بيد علي بن أبي طالـــب فقـــال هـــذا أخـــي ، فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب أخوين . (٣)

ناهـــيك عـــن شجاعته الفذة وإخلاصه النادر للرسول ﷺ وتقواه وزهده . (٤)

وقـــد كان جمع من الصحابة يرون أن علياً أفضل من أبي بكر

---

(١) حياة محمد للدكتور هيكل (ص ١٤٠) .
(٢) المصدر نفسه (ص ٢١١) .
(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢ ص ١٠٩) .
(٤) التفكير الفلسفي في الأحلام : د./ عبد الحليم محمود (ص ١٢٢)

وعمـــر وغيرهم ، وكان ممن يرى هذا الرأي عمار وسلمان الفارسي وجابر بن عبده والعاب ين عبد المطلب وبنيه ، وأبيَ بن كعب وحذيفة وغيرهم .

ولقد كان عليّ ؓ مثلا ساميا في الدين والأخلاق ، ومع هذا فلم يكد يتولى الأمر بعد مقتل عثمان ؓ حتى اضطرب الأمر واختل النظام واشـتعلت الحـروب ، ولقـد أراد أن يقود الناس إلى الأخرة فإذا هم يـتطلعون إلـى الدنيا ، وأراد أن يوجههم إلى الله فإذا بالمادة قد غلبت علـيهم ، ولـقد عـاش طـيلة خلافته في جلاد وصراع ضد الأهواء والشهوات والدنيا .

وفـي الـنهاية لقـي مصرعه على يد عبد الرحمن بن ملجم . وتغلبـت الأهـواء والشهوات والدنيا ممثلة في معاوية وانتصرت الدنيا ولكـن كان للآخرة عشاقها ومحبوها وهؤلاء لم يتوانوا في نصرة علي حـيا ، فلما قتل أخذوا يذكرون حياته الحافلة بصالح الأعمال وجليلها . وأخـذت صورة علي على مر الزمن تلبس شيئا من هالة الإجلال والتقديس والربانية والألوهية .

كانـت الشيعة في بدء أمرها محبة سلمان الفارسي لآل البيت ، ثـم أصبحت محبة وعطفا وشفقة حينما أعتقد بعض الناس أن آل البيت العلـوي لـم يـأخذ المكانة اللائقة به في المجتمع ، فلما أصبح الظلم اضـطهادا أو تعذيبا وتشتيتا تكونت الشيعة بالمعنى الاصطلاحي ولقيت

---

(١) المصدر السباق (ص ١٢٢)

عونا ممن بقي رجال البيت العلوي . (١)

ولعل فيما تقدم ما يدل على أن أصل الشيعة لم يكن يهوديا ولم يكن فارسيا كما يزعم بعض المستشرقين ، وإنما نشأت الشيعة نشأة طبيعية ونمته نمو صبب

آراء الشيعة : ضمت الشيعة إلى جانب المخلصين لعليّ وآل البيت طوائف من الناس . . . لانضمام إليها تحقيقا لمنفعة شخصية فانضم إليهم بعض من نحقهد ضد من الأمويين مستغلين عداء الشيعة للأمويين .

كما انضم إلى هذه الفرقة كثير من الموالي الذين رأوا في الحكم الأموي ارستقراطية عربية تبدد حقوقهم .

كذلك انضم إليهم كثير من الفرس كما تقدم لأنهم ألغوا تقديس البيت المالك بالوراثة . فلما دخلوا في الإسلام نظروا إلى رسول الله ﷺ نظرتهم إلى كسرى فارس ، نظروا إلى أهل بيته على أنهم أحق بوارثة السلطان من غيرهم

وقد انضم إليها بعض من يضمرون الكيد للإسلام وأهله والحاقدون عليه بغية الانتقام منه تحت ستار التشيع .

وقد افترقت الشيعة . . . فرق عدة : ولأنها فرقة سياسية أو صبغتها العامة سياسية . . . آراؤها حول الإمامة والخلافة ولذلك

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام ، ص ١١٢) .

تـــراهم فـــي الأصول الاعتقادية الأخرى بعضهم ينتمي إلى الاعتزال وبعضهم إلى السنة وبعضهم إلى التشبيه . (١)

من المبادئ التي اتفقت عليها الشيعة :

أولاً : الإمامـــة ليست من المصالح العامة للمسلمين بحيث توكل إلـــى نظرهم ، بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين لا يجوز للرسل إغفالها .

ثانياً : وجوب التنصيص ، فقد أوصى النبي ﷺ لعلي ؓ بالخلافة مـــن بعـــده ، ونص على من يخلفه ، وكل إمام لابد أن ينص على من يخلفه ، ومن هنا قالت الإمامية من فرق الشيعة بالنص على إمامة عليّ نصا ظاهرا وتعينا من غير تعريض ، بل إشارة له بالعين ، قالوا : وما كـــان في الدين والإسلام أمرا أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقته الدنـــيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، فإنه ﷺ إنما بعث لرفع الخلاف وتقريـــر الوفاق ، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملا ، يرى كل واحد منهم رأيا ، ويسلك كل واحد طريقا لا يوافقه في ذلك غيره ، بل يجـــب أن يعيـــن شخصـــا هـــو المرجوع إليه ، وينص على واحد هو الموثـــوق بـــه والمعول عليه ، وقد عين عليا ؓ في مواضع تعريضا ومواضع تصريحا . (٢)

ثالثاً : وجوب عصمة الأنبياء والأئمة عن الصغائر والكبائر .

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (جـ ٢ ص ٥) – مكتبة السلام العالمية .
(٢) المصدر السابق (جـ ٢ ص ٢) . ومقدمة ابن خلدون (ص ١٧٢) .

رابعـا : التولـي لمن تولاه والتبري ممن تبرأ منه قولا وفعلا واعتقادا إلا في حال الخوف على العرض والنفس والمال فتجوز حينئذ التقية .[1]

فرق الشيعة :

انقسمت الشيعة إلى فرق متعددة تبعا لزعامة كل اتجاه وتبعا لما تعالجـه مـن مسائل ، وقد كان فيهم من انبهر بعليّ ﷺ وغالى في حبه وارتفـع به إلى درجة الألوهية أو النبوة ، وهؤلاء هم الغلاة ، وسنأخذ منهم بعض النماذج .

١- البيـئة : هـم أتـباع عبد الله بن سبأ الذي كان يهوديا من الحـيرة أظهـر الإسـلام له ، وأمه أمة سوداء ، ولذلك يقال عنه ابن السـوداء ، وقـد تـدرج فـي نشـر أفكاره ومفاسده بين المسلمين ، وموضـوعها عليّ بن أبي طالب ﷺ أخذ ينشر بين الناس أنه وجد في الـتوراة أن لكـل نبي وصيا ، وأن عليا وصي الله عنه وصى محمد ، وأنـه خـير الأوصـياء كمـا أن محمـدا خير الأنبياء . وقال برجعة محمد ﷺ .

وقـال فـي ذلك : عجبت لمن يقول برجعة المسيح ، ولا يقول برجعة محمد ﷺ .[2]

---

[1] محاضرات في الفرق الإسلامية : د / محمود بركات (ص ٥٠) .
[2] تاريخ المذاهب (ص ٣٥) ، والفرق بين الفرق (ص ١٤٤) .

وروى عنه أنه قال لعلي ﷺ أنت الإله حقا . ولما قال بألوهية علي هم ﷺ بقتله ، ولكن الذي نهاه عن قتله عبد الله بن عباس . وقال أن قتلته اختلف عليك أصحابك وأنت عازم على العودة لقتال أهل الشام فاكتفى على بنفيه إلى المدائن ، وكان أول من أظهر النص بإمامة علي ﷺ .

ولما قتل علي ﷺ استغل ابن سبأ محبة الناس له كرم الله وجهه فأخذ ينشر حول موته الأكاذيب التي تجود بها قريحته إضلالا للناس وإفسادا لهم ، فصار يذكر الناس أن المقتول لم يكن عليا وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورته ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ﷺ ، قال كما كذبت اليهود والنصارى في دعواهما قتل عيسى بن مريم ، كذلك كذبت الخوارج في دعواهما قتل علي ﷺ ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصا مصلوبا شبهوه بعيسى ، كذلك القائلون بقتل علي ، رأوا قتيلا يشبه عليا فظنوا أنه علي . وقد صعد إلى السماء وأن الرعد صوته والبرق تبسمه . ومن سمع من السبئية صوت الرعد يقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

وقد روى عمر بن شرحبيل أن ابن سبأ قيل له إن عليا قد قتل . فقال إن جئتمونا بدماغه في صرة لم نصدق بموته . لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها . (١)

وأن من هؤلاء السبئية كان من يقول أن الإله حل فيه وفي الأئمة

(١) الفرق بين الفرق للبغداديس (ص ١٤٣) .

من بعده . وهو قول يوافق بعض الديانات القديمة للتي كانت تقول بخول الإلهة في بعض البشر ، وأن أرواح الإله تتناوب الأئمة إماما بعد إمام ، كما يقول المصريون القدماء في الفراعنة .(١)

ومن البيئة أيضا طائفة كانت تقول عن علي أن الإله قد نجد فيه وقالوا له هو أنت الله وقد هم بإحراقهم .

وغني عن البيان أن هذه الأراء ابن سبأ وأشياعه اراء كفرية لا يقول بها مسلم بل هي أقرب إلى الهذيان ، حيث لا تقوم عليها أدلة معقولة أو مقبولة والاتحاد والحلول في المخلوقات مهما كانت من الأمور المستحيلة على الله سبحانه وتعالى لما يلزم عليها مما لا يليق بجلاله سبحانه .

٢ – **الغرابية** : وهي فرقة من الغلاة ، وهذه الفرقة لم تؤلمه عليا كما فعل البيئية ولكنها كانت تفضله على النبي ﷺ وزعموا أن الرسالة كانت لعلي ، ولكن جبريل أخطأ فنزل على محمد بدل أن ينزل على عليّ .

وسبب تسميتهم بالغرابية إنهم قالوا إن عليا يشبه النبي كما يشبه الغراب الغراب .

وما يدعيه أصحاب هذا الرأي زعم باطل لا دليل عليه ، وهو ينطوي على جهل بالواقع وجهل بالتاريخ .

---

(١) تاريخ المذاهب (ص ٣٦) .

وذلك أن عليا ؛ في الوقت الذي نزل فيه جبريل على محمد بالذكر الحكيم . كان لا يزال غلاما ، وما كان في سن يتحمل فيه الرسالة ، بل كان في سن التاسعة وهو سن ما قبل التكليف ، فكيف يكون سنا للتبليغ .

ثم إن عليا لم يكن في رجولته مشابها للرسول ؛ في جسمه بل كان لكل منهما كيان جسمي خاص . وحتى على فرض أن التشابه بينهما كان كاملا بعد أن استوى على رجلا .

فإن هذا التشابه يكون خرافة وقت البعثة لأنه لا يمكن أن يكون التشابه كاملا بين غلام في التاسعة ، ورجل مكتمل الرجولة في الأربعين وهو محمد ؛ ، فكيف يخطئ جبريل أو يخلط بين رجل وغلام ، وكيف يكون التشابه بينهما بالقدر الذي يشبه به الغراب الغراب . (١)

وعلى كل حال فإن هذه الفرق وأمثالها يتبرأ منها الشيعة المعتدلون لغلوها المفرط ويقولون عنهم إنهم من الغلاة .

وعلى كل حال فلي فليس لهذه الفرق التي خرجت عن الإسلام وجود ظاهر بين الشيعة الآن ، فليس فيهم من يظهر أمام الناس تأليه الأئمة ، كما ليس فيهم من يدعون أمام الناس خطأ جبريل في الرسالة . (٢)

---

(١) المصدر السابق (ص ٣٧) .
(٢) المصدر نفسه (ص ٣٧) .

٣ – **الكيســانية** : هم أتباع المختار بن عبيد الثقفي . وقد كان هــذا الرجل خارجيا ثم صار من الشيعة الذين يناصرون عليا وسميت الكيســانية نسبة إلى كيسان قيل إنه اسم المختار ، وقيل أنه مولى لعليّ ابن أبي طالب أو تلميذ لأبيه محمد بن الحنفية . وقد قال المختار بإمامة محمد بن الحنفية .

وقد قدم المختار إلى الكوفة حين قدم إليها مسلم بن عقيل من قبل الحسين بن علي رضي الله عنهما ليتعرف أحوال العراق ومقدار ما عند أهله من نصرة للحسين بن بنت النبي ﷺ ولما علم عبيد الله بن زياد أمير الكوفة بوجود المختار قبض عليه وحبسه وضربه ، واستمر في محبسه إلى أن قتل الشهيد أبو الشهداء الحسين ﷺ .

فشــفع له زوج أخته عبد الله بن عمر لدى زياد فأطلق سراحه علــى أن يخــرج مــن الكوفة ، فخرج ، وقد روى عنه أنه قال أثناء ســيره : أطالــب بدم الشهيد المظلوم المقتول سيد المسلمين وابن سيد المرسلين الحسين بن علي رضي الله عنهما .[١]

وعلــى كــل حال فقد أخذ يدعو الرجل لمحمد بن الحنفية وكان يظهر أنه من رجاله ودعاته .

وعندما بلغت أكاذيبه وأوهامه إلى مسامع محمد بن الحنفية تبرأ منه على الملأ ولكن يقال أنه مع تلك البراءة تبع المختار بعض أنصار

---

[١] المصدر نفسه (ص ٣٨) .

العلويين لرغبتهم الشديدة في الانتقام لدم الحسين وهو ما ينادى به المختار .

وقد كان يسجع سجع الكهان ، ويدعى أنه يخبر عن المستقبل .

وقد أخذ المختار في محاربة قتلة الحسين بن عليّ ، وأعداء العلويين وأكثر من القتل الذريع بهم ، ولم يعلم أن أحدا اشترك في قتل الحسين إلا قتله مما حببه إلى قلوب الناس ، وخصوصا الشيعة ، فالتفوا حوله وأحاطوا به وقاتلوا معه ، حتى قتله مصعب بن الزبير من قبلي أخيه عبد الله ابن الزبير . [١]

عقيدة الكيسانية :

أ – وعقيدة الكيسانية لا تقوم على ألوهية الأئمة من آل البيت كما يقول السبئية ، بل تقوم على أن الإمام شخص يقدس يبذلون له الطاعة ويثقون بعلمه ثقة مطلقة ، ويعتقدون فيه العصمة عن الخطأ لأنه رمز للعلم الإلهي .

ب – ويدينون كالسبئية برجعة الإمام وهو في نظرهم بعد عليّ والحسن والحسين ، محمد بن الحنفية ، ويقول بعضهم إنه مات وسيرجع وبعضهم وهم الأكثرون يعتقدون أنه لم يمت ، بل هو حي بجبل رضوي عنده عسل وماء .

جـ – ويعتقد الكيسانية بالبداء وهو أن الله سبحانه وتعالى يغير ما

---

(١) تاريخ المذاهب (ص ٣٨) .

يريده تبعا لتغير علمه ، وأنه يأمر بالشيء ثم يأمر بخلافه .

وقال الشهرستاني : إنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء لأنه كان يدعي علم ما يحدث من الأحوال إما بوحي يوحي إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ، فكان إذا وعد أصحابه يكون شيء وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وإن ذلك بلا شك ضلال مبين وفساد في الاعتقاد .[١]

د – ويعتقدون أيضا بتناسخ الأرواح وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر وهذا الرأي مأخوذ من الفلسفة الهندية ، فهم الذين يقولون ذلك القول ، يقولون إن الروح تعذب بانتقالها إلى حيوان أدنى وتثيب بانتقالها من حي إلى أعلى منه .

ولم يأخذوا بالمذهب كله ، ولكنهم أخذوا به فيما يتعلق بالأئمة فقط .

هـ – وكانوا يقولون أن لكل شيء ظاهرا وباطنا ، وأن لكل شخص روحا ، ولكل تنزيل تأويلا ولكل مثال في هذا العالم حقيقة والمنتشر في العالم من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني وهو العلم الذي آثر به عليّ ؓ ابنه محمد بن الحنفية ، وكل من اجتمع فيه هذا العلم هو الإمام حقا .[٢]

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (ج ١ ص ١٥٣) بهامش الفصل لابن حزم .
(٢) المصدر السابق (ج ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٦) .

ونـــرى مـــن هذا أنهم يقولون بالنسبة للرسول قولا ينافي معنى الرســـالة ، وإن كانوا قرنوا تعصبهم لأبناء عليّ بما يقربهم من مرتبة النـــبوة ، ولم نجد في كلامهم ما يمس تنزيه الله تعالى ووصفه بغير ما يليق به إلا قولهم بالبداء ، ولكنهم قرنوا كلامهم في الإسلام بآراء فلسفية كقولهـــم بالتناسخ وقولهم بأن لكل شيء ظاهرا وباطنا وقولهم بأن العالم بما فيه من الحكم والأسرار يلتقي في شخص الإنسان .

وإن علم ذلك كان عند عليّ كرم الله وجهه ، واختص به محمد ابن الحنفية مورث ذلك عنه وحل فيه من بعده .

ولم يكن للكيسانية أتباع يذكرون في الأقاليم الإسلامية .

٤ – الـــزيدية : الزيدية هم أتباع زيد بن علي بن زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ .

يقـــول عـــنهم الشهرستاني " أنهم قالوا بالإمامة في أولاد فاطمة ولـــم يجوزوا الإمامة في غيرهم إلا أنهم جوزوا أن يكون كل عالم ~~كل~~ فاضل شجاع ، خرج بالإمامة إماما واجب الطاعة سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين رضي الله عنهما .

وجـــوزوا خـــروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال ويكون كل منهما واجب الطاعة . [١]

ويعتبر مذهب الزيدية أقرب المذاهب إلى الجماعة الإسلامية لأن

---

(١) الملل والنحل الشهرستاني (جـ ١ ص ١٥٩) بهامش الفصل .

هذه الفرقة لم تغل في عقائدها فهي لم ترفع الأئمة إلى مرتبة النبوة بل لـم تــرفعهم إلى مرتبة تقاربها ، ولكنهم رأوا الأئمة أفضل الناس بعد رســول الله ﷺ . ولم يكفّر الأكثرون من هذه الفرقة أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ .

وقــد حصل إمام هذه الفرقة زيد بن علي الأصول على مذهب المعــتزلة فتتلمذ على واصل بن عطاء رئيس المعتزلة **على الرغم من** اعــتقاد واصل أن جد زيد عليا بن أبي طالب ؓ **في حروبه التي** جرت بيــنه وبين أصحاب الجمل وأهل الشام ما كان على **يقين من** الصواب وأن أحد المقاتلين في هذه الحروب كان على خطأ .

مذهــب زيد في الإمامة : وكان مذهب زيد في الإمامة جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، ومن هنا جاز إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . مع اعتقاد بأن عليا بن أبي طالب أفضل الصحابة ، وقد قال في ذلك مبررا جواز خلافة أبي بكر مع أفضلية عليّ عليه ، أن علــيا بــن أبي طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت لأبي بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها من تسكين تأثيره الفتنة وتطييب قلــوب العامة ، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريبا وسيف أمير المؤمنين علي ؓ من دماء المشركين لم يجب . والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر ، كما هي ، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن بمن عرفوا باللين والتودد والتقدم في السن والسبق في

الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ .[١]

وذهب الشهرستاني إلى أن الإمامة تجوز في أي من أولاد فاطمة رضي الله عنها سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين ، على أن يكون عالما زاهدا شجاعا سخيا . خارجا مطالبا بالإمامة وهي لا تجوز في غيرهم ، وكان زيد يجيز إمامة المفضول مع قيام الفاضل لمصلحة يراها المسلمون ، كذلك جوز زيد خروج إمامين في قطرين يستجمعان خصال الإمام ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة ، وقد مالت الزيدية من بعد عن القول بإمامة المفضول وطعنت في الصحابة طعن الإمامية .[٢]

ويوضح ابن خلدون جانبا من مذهب الزيدية في الإمامة : إذ يبين أنهم قالوا بأن الأدلة اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص ، ومن ثم ساقوا الإمامة في ولد فاطمة رضي الله عنها بالاختيار ويقوم بالاختيار الشيوخ ، ومن أوصاف الإمام أن يكون عالما زاهدا جوادا ، شجاعا خارجا مطالبا بإمامته .[٣]

ودور الاختيار في التعرف على الشخص الذي لم يحدد بمقتضى الوصف الذي حدد في إطار أولاد فاطمة رضي الله عنها .

ولذا يقول الجارودية (والناس قصروا حيث لم يعرفوا الوصف

---

(١) تاريخ المذاهب (ص ٤٢) .
(٢) الملل والنحل للشهرستاني (جـ ١ ص ١٣٧ ـ ١٤٠) .
(٣) المقدمة لابن خلدون (ص ١٧٣) .

ولم يطلبوا الموصوف) . (١)

ويريد الباحث إيضاح معنى الوصف الذي يقصد به الإمام و تقلده

(قالـــت علمـــاء الزيدية وجدنا الفضل في العمل دون غيره ، ووجدنا الفعل كله على أربعة أقسام : أولها القدم في الإسلام ، حيث لا رغبة ولا رهبة إلا من الله ، ثم الزهد في الدنيا ثم الفقه الذي به يعرف الناس مصالح دنياهم ومراشد دينهم ، ثم المشي بالسيف كفاحا في الذب عـــن الإسلام ، ثم يذكر أن الزيدية رأوا أن الأقوال اختلفت فيمن يجمع هذه الصفات ، وأنهم رأوا أن هذه الأمور اجتمعت في عليّ وتفرقت في غيره ففضلوه ورأوه أولى بالخلافة . (٢)

وهـــذا يعني أن الوصف الذي اعتبروه محددا للإمام ليس نصا واردا في كتاب أو سنة عن الرسول ﷺ ، وإنما هو اجتهاد منهم فقط .

وممـــا يلاحظ أيضا أن ابن خلدون وهو يذكر مذهب الزيدية إلا أنه لم يقل أنهم قالوا أن هناك نصا دل على عليّ بالوصف ، وإنما قال إنهم قالوا إن الأدلة اقتضت فرق واضحُ بين العبارتين . (٣)

ويذكـــر الدكـــتور يحي هاشم أن زيدا لم يقل بالنص على إمامة علـــيّ لا بالوصف ولا بالشخص ، وأنه لم يقل بالإمامة في أولاد علي

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (ج ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٨) .

(٢) نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية : د / يحي هاشم (ص ١١٨) .

(٣) المصدر السابق (ص ١١٨) .

مـــن فاطمـــة دون غيرهم ثم يذكر أن زيدا لم يكن شيعيا بالمعنى الذي صار إليه هذا الوصف في عصره ، وإنما كان شيعيا بالمعنى العام الذي يفيد حب عليّ وأفضليته ، ولا يزيد ... وهذا القدر من الشيعية فيه لم يكـــن مقـــنعا للأكـــثرية من الخارجين معه . لذلك كان انفضاضهم من حوله . (١) ورأى أن حصر الإمامة في أولاد فاطمة كان مذهب بعض الزيدية متابعة زيد . (٢)

{ خوض الإمام زيد في مسائل علم الكلام }

أما عن إسهام الإمام زيد في موضوعات علم الكلام فإن الدكتور النشـــار يذهـــب إلـــى أن زيد بن علي آمن بالعدل وأنكر رأي المجبرة ودعاهم بالقدرية كما أنكر رأي المرجئة القائلة بأنه لا يضر مع الإيمان معصية (٣)

ويـــرجع الدكـــتور النشار أن زيدا إنما خرج استجابة لاعتقاده بوجوب الخوارج تحقيقا لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . (٤)

ومن ثم لم يكن زيد يؤمن بالتقية الشيعية التي كان يعلنها في ذلك الحين ابن أخيه جعفر الصادق .

ويذكر أن الزيدية أمن كما آمنت الإمامية بفكرة خلق القرآن ، ثم

---

(١) المصدر السابق (ص ١١٩) .
(٢) المصدر السابق (ص ١١٩) .
(٣) نشأة الفكر الفلسفي (ج ٢ ص ١٦٨) .
(٤) المصدر نفسه (ص ١٥٢) .

يقـــرر أنـــه لم يرد عن زيد نفسه شيء يمس هذه المسألة من قريب أو بعيد .[١]

ويذكـــر صـــاحب المنـــية والأمر أن الاختلاف بين زيد وبين المعـــتزلة إنمـــا كـــان في المنزلة بين المنزلتين ، إذ ذهب فيها إلى أن مرتكب الكبيرة لا يذهب عنه اسم الإيمان أو الإسلام بل يعذب حينما من الدهر صم يرد إلى الجنة .[٢]

بينما يذكر الأشعري أن الزيدية أجمعت على أن أصحاب الكبائر كلهم معذبون في النار خالدون فيها مخلدون أبدا .[٣]

ويذكـــر الشيخ أبو زهرة أن الزيدية يعتقدون أن مرتكب الكبيرة مخلـــد فـــي النار ما لم يتب توبة نصوحا وهم قد نهجوا في ذلك منهج المعـــتزلة ، وذلـــك لأن زيـــدا كانت له صلة بواصل بن عطاء رأس المعـــتزلة ، وعلى كل حال فإن رأي الشيعة بشكل عام في العقائد يتفق مع منهاج المعتزلة ولا يتفق مع رأي الأشاعرة والماتريدية .[٤]

فـــروع الـــزيدية : والفـــرق المنتســـبة إلـــى زيدهم السليمانية والصالحية والبترية ، والجارودية ، وغيرها .

أ – السليمانية : هم أصحاب سليمان بن جرير الزيدي يزعمون

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي (ص ١٦٨) .

(٢) المنية والأمل (ص ٢٠) .

(٣) فعالات الإسلامية للأشعري (ج ١ ص ١٤٩) .

(٤) تاريخ المذاهب (ص ٤٣) .

أن الإمامة شورى وأنها تصلح بعقد رجلين من خيار المسلمين ، وأنها قد تصلح في المفضول وإن كان الفاضل أفضل في كل حال ويثبتون إمامة الشيخين أبي بكر وعمر .

وحكى زرقان عن سليمان بن جرير أنه كان يزعم أن بيعة أبي بكر وعمر خطأ لا يستحقان عليهما اسم الفعل من قبل التأويل ، وأن الأمة قد تركت الأصلح في بيعتهم إياهما .

وكان سليمان بن جرير يقدم على عثمان ويكفره عند الأحداث التي نقمت عليه ، ويزعم أنه قد ثبت عنده أن عليّ بن أبي طالب لا يضل ولا يقوم عليه شهادة عادلة بضلاله . [١]

وذهب السليمانية إلى أن الإمامة من مصالح الدين يحتاج إليها لإقامة الحدود ، وما شابه ، ولا يحتاج إليها لمعرفة الله وتوحيده . [٢]

وتوغلت السليمانية في دقيق الكلام ، فذهبوا إلى ما ذهب إليه الأشاعرة من أن صفات الله لا هي هو ولا غيره . [٣] مخالفين بذلك المعتزلة .

ب – الصالحية : أصحاب الحسن بن صالح بن حي ، ولد سنة (مائة من الهجرة) ، ومات متخفيا سنة (١٦٨ هـ) وكان من كبار

---

(١) مقالات الإسلامية للأشعري (جـ ١ ص ١٤٣) .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (جـ ١ ص ١٤١ – ١٤٢) . والمقالات للأشعري (جـ ١ ص ١٣٥) .

(٣) المقالات للأشعري (جـ ١ ص ١٤٦) .

زعمـــاء الشـــيعة الزيدية ، فقيها متكلما له ، من الكتب كتاب التوحيد ، وكتاب إمامه ولد عليّ من فاطمة ، وكتاب الجامع في الفقه . (١) كما شـــارك فـــي الخروج مع زيد بن علي ، ويرى الدكتور النشار أنه كان أخطـــر رجـــال الزيدية على الإطلاق في السياسة ، ويستشهد بذلك بما يـــروى من أن المهدي العباس عندما بلغته وفاة الحسن بن صالح سجد شكرا لله قائلا الحمد لله الذي كفاني أمره . (٢)

ويـــبدو أن الصالحية هم الذين أسسوا فكرة جواز خروج إمامين فـــي قطريـــن يســـتجمعان خصـــال الإمـــام ، فيكون كل منهما واجب الطاعة . (٣)

وفـــي المسائل الأصولية الأخرى يرى الصالحية رأي المعتزلة ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت . (٤)

ومن شخصيات الفرقة الصالحية أبو إسماعيل كثير بن إسماعيل ابـــن نـــافع الـــنواء الملقب بالأبتر ، كان محدثا وسمي أتباعه البترية ، وكـــانوا مـــن أصـــحاب الحديث ، ويذكر الأشعري أن البترية ينكرون الرجعة التي ذهب إليها جمهور الشيعة . (٥)

---

(١) الفهرست لابن النديم (ص ٢٥٣) .
(٢) نشأة التفكير الفلسفي (جـ ٢ ص ١٩٢) .
(٣) نشأة الآراء والمذاهب : د / يحيي هاشم (ص ١٢٣) .
(٤) الملل والنحل (جـ ١ ص) .
(٥) المقالات للأشعري (جـ ١ ص ١٤٤) .

جـ – الجاروديـــة : تنسـب إلـى أبي الجارود زياد بن المنذر الصـبري ويكنى أبا النجم ... وتوفى ما بين (١٥٠ – ١٦٠ هـ) . وكان من رجال زيد وثبت معه حين تخلى عنه شيعة الكوفة .[١]

وقد زعم الجارودية أن النبي ﷺ نص على إمامة عليّ بالوصف دون الاسم .[٢]

وكـان هذا مدخلهم إلى التوغل في التشيع . فأبطلوا إمامة أبي بكـر ، وكفروا المسلمين الذين اختاروه دون عليّ ، بل ادعوا كفر من ادعـوا كفر من ادعى من أولاد الحسن والحسين الإمامة وهو قاعد في بيتـه مرض على ستره . ويبدو أن هذا هو ما وقف بينهم وبين الذوبان في الأظهر ، فهم قد ذهبوا مثلهم إلى رجعة الإمام .[٣]

٥ – الإمامية الإثنى عشرية :

الإمامـية اسم لعدة طوائف من الشيعة تنطوي تحت هذا الإسم يجمعهـم القـول بأن الأئمة لم يعرفوا بالوصف كما قال الإمام زيد بن علـي رضـي الله عنهما ، بل عينوا بالشخص ، فعين الإمام علي من النبي ﷺ وهو يعين من بعده بوصيته من النبي ﷺ ، ويسمون بالأوصياء فقـد أجمع الإمامية علي أن إمامة علي ؓ قد ثبتت بالنص عليه بالذات

---

(١) الفهرست لابن النديم (ص ٣٥٣) .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص) والملـل والنـحل للشهرسـتاني (جـ ١ ص)

(٣) المصدر السابق (جـ ١ ص) .

من النبي ﷺ نصا ظاهرا . ويقينا صادقا من غير تعريض بالوصف . بل بإشارة بالعين .

قالوا " وما كان في الدين أمرأهم من تعيين الإمام حتى يفارق عليه الصلاة والسلام الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة . فإنه إذا كان قد بعث لرفع الخلافة وتقرير الوفاق فلا يجوز أن يفارق الأمة ويترك الناس هملا يرى كل واحد منهم طريقا ولتا يوافقه عليه غيره . بل يجب أن يعين شخصا هو المرجوع إليه ، وينص على واحد هو الموثوق به والمعول عليه . (١)

وقد عين النبي ﷺ عليا (ع) في مواضع تعريضا وفي مواضع تصريحا .

ومن مواضع التعريض أن الرسول ﷺ بعث أبا بكر ليقرأ سورة براءة على الناس في المشهد وبعث بعده عليا ليكون هو القارئ عليهم والمبلغ عنه إليهم ، وقد كان أبو بكر أمير فشهد الحج . وقال نزل علي جبريل وقال يبلغه رجل منك أو قال من قومك كوهو على تقديمه عليا عليه .

ومنه أيضا ﷺ فكان يؤمر على أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة في البعوث وقد أمر عليهما عمرو بن العاص في بعث وأسامة ابن زيد في بعث وما أمر عليّ علي أحدا قط . (٢)

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل (جـ ٢ ص ٢) .
(٢) المصدر السابق (جـ ٢ ص ٣) .

وحقيقة فإن هذه التعريضات لا تدل على الوصية لعليّ بالخلافة وأن دلت على فضيلته ولا أعتقد أن رسول الله ﷺ كان يقصد من إرسال أبـي بكـر وعمـر في جيش أسامة تهيئة الجو لعلي ففي ذلك تصوير للرسول ﷺ بصورة يأباها جلالة النبوة .

ولو أنه أراد النص على الإمامة لعلي بشكل قاطع لما أحتاج إلى هذا الذي يشبه التحايل ويجل عنه مقامه ﷺ .

وأمـا وصية النبي ﷺ بإمامة عليّ ؓ بصفة تصريحية فترى الإمامية فيها روايات منها :

مـا جـرى في نأنأة الإسلام حين قال ﷺ من الذي يبايعني على مالـه فبايعته جماعة ثم قال من الذي يبايعني على روحه فلم يبايعه أحد حـتى مد أمير المؤمنين عليّ ؓ يده إليه فبايعه على روحه ووفى ذلك حتى كانت قريش تعير أبا طالب أنه أمر عليك ابنك .

ومنا ما جرى في كمال الإسلام وانتظام الحال من قول للرسول ﷺ من كنت مولاة فعلي مولاة اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقوله ﷺ " أفضاكم علي ويرون أن ذلك نص في إمامته ؓ لأن الإمامـة لا معـنى لها إلا أن يكون أقاضي القضاة في كل حادثة الحكم علـى المتخاصـمين في كل واقعة وهو معنى قول الله : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ (١)

---

(١) سورة النساء (آية ٥٩) .

وقــالوا إن أولي الأمر تمن إليه القضاء والحكم ، فإن النبي ﷺ كما حكم لكل واحد من الصحابة بأخص وصف له فقال أفرضكم زيد ، أقــرأكم أبــي ، أعرفكم بالحلال والحرام معاذ كذلك حكم لعلي بأخص وصف وهو قوله أقضاكم عليّ والقضاء يستدعي كل علم وليس كل علم يستدعي القضاء .(١)

وهكذا ينتهون من ذلك إلى أفضلية عليّ وأحقيته بالإمامة إلا أن خصوم الشيعة يشككون في صحة نسبة هذه الآثار إلى النبي ﷺ .(٢)

وحقيقة فإنني أرى أن هذه الأخبار وعلي فرض صحتها لا تشهد صــراحة لمذهبهم إلا فهمٌ غير لازمة سيما إذا وضعنا في الاعتبار أن النبي ﷺ قد بعث لرفع الخلاف ورفع الخلاف لا يكون بالأخبار المحتملة خصوصاً في مثل تلك الأمور الشائكة ولو أن النبي قصد إلى ذلك ورآه واجباً لقطع فيه وحسم علي مرأى ومسمع من الصحابة ، وكل ما يقال في عليّ إنما هو من باب التكرمة فقط سيما إذا أخذنا في الاعتبار إمامة أبي بكر للناس في مرض موت الرسول ﷺ ، وقد كان عليّ موجودا ولم تقتصــر الإمامــة علي ذلك ، وهو الاعتقاد بالوصية لعليّ بالخلافة بل خاضت في مقام حماية النبي ﷺ . فوقعت في الطعن عليهم وتكفيرهم .

ومعــروفة منزلة الصحابة عند الله وعند رسوله ﷺ وقد قال الله تعالى " في جمع منهم وكان إذا ذلك ألفا وأربعمائة " ، ﴿ لقد رضي الله

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (جـ ١ ص ١٤٦) .

(٢) تاريخ المذهب (ص ٤٥) .

عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾ [١]

في هؤلاء الصحابة مهاجرون وأنصار وتابعوهم بإحسان يقول الله تعالى ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضو عنه ﴾** [٢] ، ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾** [٣]

وفي ذلك دليل على عظم قدرهم عند الله وكرامتهم ودرجتهم عند الرسول ﷺ .

ويتساءل الشهرستاني قائلا " كيف يستجيز ذو دين الطعن فيهم وينسبه (ونسبة) الكفر إليهم ، وقد قال رسول ﷺ " عشرة من أصحابي في الجنة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح ، إلى غير ذلك من الأخبار الواردة في حق كل واحد منهم على الانفراد . [٤]

على كل حال فإن الإمامة اتفقت على إمامة علي وأنه وصي رسول الله ﷺ بالنص الصريح والضمني .

قرروا كذلك أن الأوصياء من نبعد عليّ همن (ممن) أولاده من فاطمة

---

(١) سورة الفتح (آية / ١٨) .
(٢) سورة التوبة (آية / ١٠٠) .
(٣) سورة التوبة (آية / ١١٧) .
(٤) ~~تاريخ المذاهب (ص ٤٤)~~ الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ١٤٦

وهمـــا الحسن والحسين رضي الله عنهما ، وهؤلاء هم المجمع عليهم ، وقد اختلفوا من بعد ذلك حول الإمامة فرقاً مختلفة حتى قيل إنهم اختلفوا علـــى أكـــثر مـــن سبعين فرقة . وأعظمها فرقتان " الإثنا عشرية " و " الإسماعلية " .

ويـــرى الإثـــنى عشـــرية أن الخلافة بعد الحسين ـ لعليّ زين العابديـــن ، ومن بعده لمحمد الباقر ثم لأبي عبد الله جعفر الصادق بن محمـــد الـــباقر ، ثم لابنه موسى الكاظم ، ثم لعلي الرضا ، ثم لمحمد الجـــواد ثـــم لعلي الهادي ، ثم للحسن العسكري ، ثم لمحمد ابنه . وهو الإمـــام الثاني عشر ، ويعتقدون أنه دخل سردابا في دار أبيه " بسر من رأي " ولم يعد بعد ، ثم اختلفوا في سنةَ وقت اختفائه ، فقيل كانت سنةَ إذا ذلك أربع سنين ، وقيل ثماني تسنوات ، وكذلك اختلفوا في حكمه ، فقـــال بعضهم إنه كان في هذه السن عالماً بما يجب أن يعلمه الإمام ، وأن طاعته كانت واجبة ، وقال آخرون كان الحكم لعلماء مذهبه .(١)

والإثـــنا عشرية يوجدون الآن في العراق ، فالشيعة في العراق وهـــم عدد كثير يقارب النصف ، يصيرون على مقتضى المذهب الإثنا عشـــري فـــي عقـــائدهم ، ونظمهم في الأحوال الشخصية والمواريث والوصـــايا والأوقـــاف والزكاوات والعبادات كلها ، وكذلك أكثر أهل إيـــران ، ومـــنم مـــن ينبـــثون فـــي بقـــاع ســـوريا ولبنان وكثير من الـــبلاد الإســـلامية ، وهم يتوددون إلى من يجاورونهم من السنين ولا

---

(١) تاريخ المذاهب (ص ٤٦) .

ينافرونهم .

وأن الإمامية الإثنا عشرية كسائر الإمامية يفرضون في الإمام سلطانا مقدسا يأخذه بالإيصاء عن النبي ﷺ ، فكما أن ولايته أمر الأمة كانت بالوصاية فتصر فإنه كلها مشتقة من صاحب هذه الوصاية وهو النبي ﷺ [١] منزلة الإمام عند " الإمامية " .

يقر الإمامية – بالنسبة لسلطان الإمام في التشريع والتقنين – إن الإمام له السلطان الكامل في التقنين وكل ما يقوله من الشرع ولا يمكن أن يكون منه ما يخالف الشرع ، ويقول في ذلك العلامة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، يعتقد الإمامية أن الله تعالى في كل واقعة حكما ... وما من عمل من أعمال المكلفين إلا ولله فيه حكم من الأحكام الخمسة ، الوجوب ، والحرمة والكراهية ، والندب والإباحة ، .. وقد أودع الله سبحانه جميع تلك الأحكام عند نبيه خاتم الأنبياء وعرفها النبي بالوحي من الله ، أو بالإلهام وبين كثيراً منها وبالأخص لأصحابه الحاقين به الطائفين كل يوم بعرش حضوره ليكونوا هم المبلغين لسائر المسلمين في الإقامة ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " ، وبقيت أحكام كثيرة لم تحصل البواعث لقيامها ... وإن حكمة التدرج اقتضت بيان جملة من الأحكام وكتمان جملة ، ولكنه سلام الله عليه أودعها عند أوصيائه كل وصي يعهد بها إلى الآخر لينشرها في الوقت المناسب لها حسب الحكمة من عام مخصص أو مطلق مقيد ، أو

---

(١) المصدر نفسه (ص ٤٦) .

مجمل يبيّن إلى أمثال ذلك ، فقد ذكر النبي لفظا عاما ويذكر مخصصه بعـد برهة من حياته وربما لا يذكره أصلاً ، بل يودعه عند وصيه إلى وقته . (١)

هذا كلام السيد الجليل الذي اقتبسناه منه ، ويستفاد من هذا الكلام ومن غيره أمور ثلاثة بالنسبة للتقنين والأحكام :

أول هذه الأمور : أن الأئمة وهم الأوصياء استودعهم النبي ﷺ أسرار الشـريعة ، وأن النبي ﷺ ما بينها كلها بل بين بعضها ، فبين ما اقتضاه زمانـه وترك للأوصياء أن يبينوا للناس ما تقتضيه الأزمنة من بعده ، وذلك بأمانة أودعها إياهم .

وثانـيها : أن مـا يقوله الأوصياء شرع إسلامي لأنه تتميم للرسالة ، فكلامهم في الدين شرع ، وهو بمنزلة كلام النبي ﷺ لأنه من الوديعة التي أودعهم إياها ، فعنه صدروا ، وبما خصهم به نطقوا .

وثالث هذه الأمور : أن للأئمة أن يخصصوا النصوص العامة ، ويقيدوا النصوص المطلقة .

وإذا كـان الإمام له هذه المنزلة بالنسبة للتقنين ، فقد قرروا أن يكـون معصوما عن الخطأ والنسيان والمعاصي ، فهو طاهر مطهر لا تعلـق به ريبة ، وقد أجمع على ذلك " الإمامة " وصرحت بذلك كتب " الإثنا عشرية " ، وقد قال " الشريف المرتضى في كتابه : " الشافي " :

---

(١) أصل الشيعة وأصولها (ص ٢٩) .

وقــد ثبــت عندنا وعند مخالفينا أنه لابد من إمام الشريعة يقوم بالحدود وتنفيذ الأحكام ... وإذا ثبت ذلك وجبت عصمته لأنه لو لم يكن معصـــوما وهـــو إمـــام فيما قام به من الدين – لجاز وقوع الخطأ منه فـــي الديـــن ، ولكنا إذا وقع الخطأ مأمورين باتباعه فيه ، والاقتداء به فـــي فعلـــه ، وهذا يؤدي إلى أن نكون مأمورين بالقبيح على وجه من الوجوه ، وإذا فسد أن تكون مأمورين بالقبيح وجبت عصمته من أمرنا باتباعه والاقتداء به في الدين . (١)

ويقـــررون أن عصـــمته ظاهـــرة وباطنة : وأنها قبل أن يكون إمامـــا ، وبعد توليه الإمامة ، ويقول في ذلك " الطوسي" وهو شيخ من شيوخهم " أنه لا يحسن من الحكيم تعالى أن يولي الإمامة التي تقتضي التعظيم والتبجيل من يجوز أن يكون مستحقا اللعنة والبراءة في باطنه . لأن ذلـــك سفه ، وكذلك إنما يعلم كونه معصوماً فيما تقدم من حاله قبل إمامـــته ، بـــأن يقـــول إذا ثبت كونه حجة فيما يقول ، فلابد أن يكون معصوما قبل حال الإمامة ، لأنه لو لم يكن كذلك لأوى إلى التنفر عنه ، كما نقول ذلك في الأنبياء عليهم السلام . (٢)

وأن الإمامية يجوزون أن تجري خوارق العادة على يد الإمام ، لتثبت إمامته ، ويسمون الخارق للعادة الذي يجري على يديه معجزة ، كما يسمى الخارق الذي يجري على يدي أنبياء الله تعالى معجزة .

---

(١) الشافي للشريف المرتضي (ص ٤٣٠) – طبع حجر بفارس .
(٢) تلخيص الشافي للطوس (ص ٣١٩) .

ويقول أنه إذا لم يكن نص على إمامة الإمام من الأئمة وجب أن يكون إثبات الإمامة بالمعجزة ، ويقول الطوس "شيخ الطائفة في عصره " : العلم به (أي الإمام) قد يكن بالنص تارة وبالمعجزة أخرى ، فمتى نقل الناقلون النص عليه من وجه يقطع العذر فقد حصل الغرض ، ومتى ينقلوه وأعرضوا عنه ، وعدلوا إلى غيره ، فإنه يجب أن يظهر الله تعالى على يديه علما معجزا يبينه من غيره ويميزه عمن عداه ، ليتمكن الناس من العلم به والتمييز بينه وبين غيره . (١)

والإمام عند الإمامية قد أحاط علما بكل شيء يتصل بالشريعة كما أشرنا وبالحكم الذي عهد به إليه ، ويقول في ذلك الطوس " إنه قد ثبت أن الإمام إمام من صائب الدين ، ومتولي الحكم في جمعية جليلة دقيقة ، وظاهره وغامضة ، وليس يجوز ألا يكون عالما بجميع الأحكام وهذه صفته لأن المتقرر عند العقلاء قبح استكفاء الأمر وتوليته من لا نعلمه .

وأن ذلك العلم المحيط ثابت بالفعل لا بالإمكان ، ولا بالأجتهاد أي أنه علم لدني ثابت ، لا أنه ممكن أن يعلم ويقضي أو يجتهد فيعلم ويقضي كما هو الشأن عند غيره من العلماء ، وذلك لأنه إمكان العلم الاجتهادي هو من قبيل العلم الناقص فهو جهل في الابتداء ثم تعلم وعلم في الانتهاء ، الإمام لا يجوز أن يكون جاهلا بشيء من أمور الدين والشريعة في وقت من الأوقات والحكم بأن علمهم علم إحاطة نتيجة

---

(١) تلخيص الشافي للطوس (ص ٣١٠) طبع فارس على حجر .

حتمـــية لقولهـــم : أن الأوصياء أودعوا من لدن الرسول بما يكفل بيان الشريعة ، فعلمهم وديعة نبوية ، وهم معصومون من الخطأ .

وأن الإمــــام ليس وجوده ضروريا فقط لبيان الشريعة وتتميم ما بدا الرسول ببيانه ، بل هو أيضا ضروري لحفظ الشريعة وصيانتها من الضـــياع ، فهو يتمها ويحميها ، وهو القوام على الشريعة بعد النبي ﷺ ويحـــافظ عليها ويصونها ويمنع عنها التحريف والزيغ والضلال ، وأن تـــتحكم فيه الآراء المردية ، إذ هو حجة الله القائمة إلى يوم القيامة كما قـــال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : " لا يخلوا وجه الأرض من قائم لله بحجة إما خفيا مغمورا ، وإما ظاهرا مستورا " .

والوصي عندهم هو القائم بحجة الله ، وإنه بعصمته التي توجب طاعة والاقتداء به يكون الدين محفوظا إلى يوم القيامة .

وأن النبي ﷺ يقول : لا تجتمع أمتي على ضلالة ، وعدم اجتماع الأمـــة علـــى الضلالة هو الذي يجعل الدين محفوظا إلى يوم القيامة ، ويقولـــون أنه من الجواز العقلي يجوز أن تجتمع الأمة على الضلال ، ولكن المعصوم وهو الإمام الوصي عندهم – وهو الذي يرشدنا ويهديها ويقـــيها من أن تجتمع على الضلالة ، فأهلَ الأديان الأخرى قد اجتمعوا علـــى ضلالة لعدم وجود المعصوم عندهم ، ولأن شريعتهم ليست خاتم الشرائع ، أما شريعة محمد فهي خاتم الشرائع ولابد من وجود المعصوم

ليحميها ويقيها من الضلالة إلى يوم القيامة . (١)

هـذه إشـارات موجـزة إلـى منزلة الإمام عند الإمامية الإثنا عشـرية ، ويظهر أن الإمامية جميعا على رأيهم في هذا النظر وليس مقام الإمام ومقاربته لمقام النبي عندهم موضع خلاف ، فإنهم يصرحون تصريحا قاطعا بأن الوصي لا يفرقه عن النبي إلا شيء واحد ،وهو أنه لا يوحي إليه .

وأن القـارئ لهذا الكلام الذي اشتمل على دعاوى واسعة كبيرة لشـخص الإمام لم يقم دليل على صحته ، والدليل قائم على بطلانه ، لأنـه محمـداً أتـم بيان الشريعة ، فقد قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ ، ولو كان قد أخفى شيئا فما بلغ رسالة ربه – وذلك مستحيل ، ولأنه لا عصمة إلا لنبي ، ولم يقم دليل على عصمة غير الأنبياء .

---

(١) أشار إلى هذا الشريف المرتضي في عدة مواضع من كتابه الشافي الذي رد به على قاضي القضاة .

الإمامية (الإسماعيلية) :

والإسماعيلية طائفة من الإمامية كما أشرنا ، وهي منبثة في أقاليم متفرقة من البلاد الإسلامية ، وبعضها في جنوب أفريقيا ووسطها وبعضها في بلاد الشام ، وكثير منها في الهند . وبعضها في باكستان ، وقد كانت لها في الإسلام دولة ، فالفاطميون في مصر والشام كانوا منهم ، والقرامطة الذين سيطروا وقتا على عدة أقاليم إسلامية كانوا منهم .

وهذا المذهبي ينتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو يتفق مع الإثنا عشرية في الأئمة إلى جعفر الصادق ، ومن بعد جعفر الصادق ابنه موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية فيقررون أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل ، وقد قالوا أن ذلك كان بنص من أبيه جعفر ، ولكنه مات قبله ، ومع أنه مات قبله أعملوا النص على إقامته من بعده ، وكان إعمال هذا النص بأن تبقي الإمامة في عقبة ، فإن إعمال النص الذي يقوله الإمام أولى إهماله ، ولا عجب في ذلك ، فإنهم يعتبرون أقوال الإمام كنصوص الشرع تماما ، يجب إعمالها ولا يسوغ إهمالها ، وقد انتقلت عن طريق إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ، وهذا أول الأئمة المكتومين أو المستورين إذ هم يقررون إن الإمام يصح أن يكون مستورا وتجب طاعته ، ولا يمنع ذلك من إمامته ، ومن بعده " محمد المكتوم " ابنه جعفرّ الصادق ، وبعده ابنه " محمد الحبيب " وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي ظهر في شمال أفريقية وملك المغرب ثم كان

من عقبه أنشأ الدولة الفاطمية بمصر .

وقد ظهر هذا المذهب بالعراق كغيره من المذاهب الشيعية واضطهد كما اضطهد غيره من المذاهب الشيعية ، وقد فر المعتنقون له بتأثير الاضطهاد إلى فارس وخراسان وما وراء ذلك من الأقاليم الإسلامية كالهند والتركستان ، وهناك خالط مذهبهم بعض آراء من عقائد الفرس القديمة ، الأفكار الهندية ، وتحت تأثير ذلك انحرف كثيرون منهم .

فقام فيهم ذوو أهواء ، ولذلك حمل اسم الإسماعيلية طوائف كثيرة بعضهم لم يخرجوا عن دائرة الإسلام ، وبعضهم انحرفوا بما انتحلوا من نحل لا يتفق ما اشتملت عليه مع المقرر الثابت من الأحكام الإسلامية .

فإن هؤلاء قد اتصلوا ببراهمة الهنود والفلاسفة الإشراقيين والبوذيين وبقايا ما كان عند القلوان والفرس من عقائد وأفكار حول الروحانيات والكواكب والنجوم وغيرها ، فبعضهم أخذ من كل هذه المخاوف ، وأوغل فيه ، وكان بمقدار ايغاله بعده عن الإسلام ، ولقد كانت السرية التي أحاطوا أنفسهم بها مدعاة لانقطاعهم عن جماهير الأمة ، فلم يستأنسوا بما كان عند السنيين وكلما اشتد الكتمان اشتد معه البعد .

وإنهم قد بلغ بهم الكتمان درجة أن كانوا يكتبون الكتب والرسائل ، ولا يعلنون عن أسماء كاتبيها ، فرسائل إخوان الصفاء

التـــيس اشتملت على علم غزير ، وفلسفة عميقة هم الذين كتبوها ، ولم يعرف العلماء الذين اشتركوا في كتابتها .

وقد سموا بالباطنية أو الباطنيين ، وذلك لاتجاههم إلى الاستخفاء عـــن الـــناس الذين كان وليد الاضطهاد أولا ، ثم صار حالا نفسية عند طوائف منهم .

ومـــنهم الذين كانوا يسمون بالحشاشين وقد ظهرت أعمالهم في إبـــان الحـــرب الصليبية وإبان حرب التتار ، وكان بعضها سوءا على الإسلام والمسلمين .

ومن أسباب تسميتهم بالباطنية أنهم قالوا في كثير من الأحوال : أن الإمام مستورا فقد استمر مستورا إلى أن أنشئت دولة لهم بالمغرب ، ثـــم انتقلـــت إلى مصر ، ومن الأسباب أيضا أنهم يقولون أن للشريعة ظاهـــرا وباطـــنا ، وأن الـــناس يعلمون علم الظاهر ، وعند الإمام علم الباطـــن ، بـــل إن عنده باطن الباطن ، وأولوا على هذا ألفاظ القران ، تأويلات بعيدة ، بل أول بعضهم بعض الألفاظ العربية تأويلات غريبة ، وجعلـــوا هذه التأويلات هي ، وما عند الإمام من أسرار – علم باطن ، وقد شاركهم الإثنا عشرية في هذا الجزء الخاص بعلم الظاهر والباطن ، وأخذت عنهم طوائف من الصوفية ذلك .

فـــي الجملة كانوا يسترون كثيرا من آراءهم ولا يعلنون إلا ما تســـمح الأحوال بإعلانه ، ولا يكشفون ما يرتئون حتى في الوقت الذي كانت لهم فيه دولة وسلطان في شرق وغرب .

وقــد بنيــت الآراء التي يعتنقها المعتدلة منهم على ثلاث شعب يشاركهم في أكثرها الإثنا عشرية :

أولهـــا : الفــيض الإلهي من المعرفة الذي يفيض الله به على الأئمة ، فيجعلهم بمقتضى إمامتهم فوق الناس قدرا ، وفوق الناس علما مــنهم قــد اختصــوا بعلم ليس عند غيرهم علما بالشريعة قد أتوه فوق مدارك الناس .

والثانــية : أن الإمام لا يلزم أن يكون ظاهرا معروفا بل يصح أن يكون خفيا مستورا ، ومع ذلك تجب طاعته ، وأنه هو المهدي الذي يهدي الناس وأنه يظهر وفي جيل من الأجيال فإنه لابد ظاهر ، وأنه لن تقوم القيامة حتى يظهر ويملء الأرض عدلاً كما ملئت جورا وظلما .

الثالثة : أن الإمام ليس مسئولا أمام أحد من الناس وليس لأحد من الناس أن يخطئه مهما يأت من أفعال بل يجب عليهم أن يصدقوا أن كل ما يفعله خير لا شر فيه ، لأن عنده من العلم مالا قبل لأحد بمعرفته ومــن هــذا٨١ قرروا أن الأئمة معصومون ، لا بمعنى أنهم لا يرتكبون الخطايا التي نعلمها بل على معنى ما نسميه نحن خطايا قد يكون عندهم من العلم ما ينير السبيل لهم فيه ، ويكون سائغا لهم ، وليس بسائغ لسائر الناس .

الحاكمية والدروز :

قــد تكون بعض نواحي التفكير التي ذكرناها عن الباطنية ليس

فيها ما يتضح أن يعتبر كفرا صريحا ، وأقصى ما نقول فيها أنها لم يرد بها كتاب ولا سنة ، ولكن في ظل هذا التفكير الذي لم يخرج عن نطاقه كثيرون منهم وجد آخزون خلعوا الربقة ، وقد كانت السرية التي تعد طريقة هذه الفرقة وفي ظلها تفرخ آراؤهم – سببا في أن وجد الحاكمية وهم من أولئك الغلاة المتطرفين الذين تجاوزوا حدود الإسلام ، ولقد غالى بعضهم في معنى الإشراق الإلهي حتى أخذ بنظرية حلول الإله في نفس الإمام ودعا إلى عبادته ، وأنه كان على رأس هؤلاء الغلاة بأمر الله الفاطمي الذي ادعى أن الإله قد حل فيه ، ودعا إلى عبادته .

وقد اختفى ثم مات أو قتل على اختلاف الرواة ، والراجح أنه قتله بعض أقاربه ، وقد أنكر مريدوه ، وأتباع مذهبه الذي ظهر بعده – موته ، وزعموا أنه يعيش مستخفيا ، وأنه سيرجع ، وهذه الطائفة سميت بالحاكمية .

والدروز الذين يكثرون في الشام لهم صلة وثيقة بالحاكمية حتى أن بعض المؤرخين يقول إن الذي وسوس إلى الحاك أن يخرج على الناس بهذه الآراء المغالية رجل فارس اسمه حمزة الدرزي ، ولعلهم ينسبون إليه ، وأحوال الباقين منهم الآن في خفاء يستخفون بأعمالهم واعتقادهم من مجاوريهم وعشرائهم والله سبحانه وتعالى أعلم بحالهم . (١)

---

(١) تاريخ المذاهب (ص ٥٣) .

النصيرية :

ويجـوز الحاكمية في الشام طائفة خلعت الربقة ، وإن كانت لا تنسـب نفسـها للإسـماعيلية ولكـنها تتلاقى مع بعضها في المخالفة وانحلالهـا بعضها وانخلاعه عن الإسلام ، هذه الطائفة هي النصيرية وهي لم تنسب نفسها للإسماعيلة ، ولكن تربت في أحضان الذين خلعوا الربقة منها .

وإن هؤلاء سكنوا الشام في الماضي كالحاكمية وكانوا مع الإثنا عشـرية أو هـم يدعـون الانتساب إليهم ويعتقدون أن آل البيت أوتوا المعرفة المطلقة ويعتقدون أن علياً لم يمت وأنه إله أو قريب من الإله ، وهم يشتركون مع الباطنية في أن للشريعة ظاهراً وباطنا عند الأئمة إذ أن إمـام العصـر هـو الذي أشرق عليه النور فجعله يفهم حقيقة هذه الشريعة وباطنها .

وفي الجملة كانت آراء هذه الطائفة مزيجاً من الآراء المغالية في الفرق المنسوبة للشيعة والتي يتبرأ أكثرهم منها فأخذوا عن البيئة القافرة المنقرضـة أولوهية عليّ وخلوده ورجعته وعن الباطنية كون الشريعة لها ظاهر وباطن .

خلـع أولـئك الغـلاة ربته الإسلام وأطرحوا معاينة ولم يبقوا لأنفسهم إلا الإسم وقد اتسع عملهم في عهد قيام الدولة الفاطمية بمصر والشام ، ولقد وجدوا من الحاكم بأمر الله من يتلاقى معهم في أوهائهم ،

ولذلك كان ظهور زعيمهم " الحسن بن الصباح " في فارس في عهد الحاكم بأمر الله ، وقد أخذ يثير الفتن ضد الدولة العباسية في الوقت الذي كان الحاكم يدعي فيه الألوهية ، وقد بث الحسن دعاته في الشام إلى نحلته .

وقد كثر بعد ذلك أولئك الغلاة في الشام واتخذوا لهم مقرا هو جبل السمان الذي يسمى الآن جبل النصيرية . وكان بعض كبرائهم يستهوون مريديهم بالتخديش بيالحشيش ، ولذلك سموا في التاريخ " الحشاشين " وعند الهجوم الصليبي على البلاد الشامية ومن ورائها البلاد الإسلامية مالئوا الصليبيين ضد المسلمين ، ولما استولى أولئك على بعض البلاد قربوهم أو دنوهم ، وجعلوا لهم مكانا مرموقا .[١]

هذه كلمات موجزة عن الفرق التي حملت اسم الشيعة تبين من استقاموا على الجادة ، ومن انحرفوا عن الطريق ، وخلعوا ربقة الإسلام .

ومن كان لهم من التشيع لعلى الاسم ، والحقيقة أنهم كانوا حربا على الإسلام والمسلمين .

[١] تاريخ المذاهب (ص ٥٤) .

{ المعتزلة }

النشأة والتسمية :

كانــت الركائز الفكرية التي اعتمدت عليها الدولة الأموية تتمثل أساســاً في الجبر والإرجاء تبرر بالأول مظالمها إذا تنسبها لقضاء الله وقــدره وتحاول أن تفلت بالتالي من الحكم على إيمانهم بعد أن ارتكبت تلــك المظــالم ، ومن ثم فإن نشأة المعتزلة ومن بين أصولها الفكرية الأولــى القول بالاختيار والمنزلة بين المنزلتين هو موقف معاد للدولة الأموية ، يضع المعتزلة منذ نشأتها حركة من حركات المعارضة التي نشأت في المجتمع العربي على عهد الأمويين .

ولــم يكن التناقض الوحيد بين المعتزلة وبين السلطة والجبرية والمرجــئة الذيــن يــبررون لها أو يقضون الطرف عن مظالمها ، بل قضت كذلك مع حركات المعارضة الأخرى ، فاختلفت مع الخوارج في المــنزلة بيــن المنزلتين كما اختلفت مع الشيعة في الإمامة وهي قاعدة فكرها الذي تتميز به كما اختلفت مع بعض الشيعة المشبهة في التوحيد والتنزيه والنشأة الأولى للمعتزلة لا تزال موضع غموض ولقد أسهم في هــذا الغمــوض ضياع أغلب تراثهم الفكري بعد محنتهم زمن المتوكل العباســي وقضــية الاسم الذي أطلقه عليهم خصومهم وهو اسم القدرية حــتى ينفروا الناس منهم بعد أن رووا حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه القدرية مجوس هذه الأمة " .

ورفــض المعتزلة لهذا الاسم الذي عرفوا به في كتب الخصوم

زمناً طويلاً وخاصة قبل أن تشيع تسميتهم بالمعتزلة وأهل العدل والتوحيد .

وأسهم في غموض هذه النشأة كذلك قضية ما هو الأصل الفكر والمبدأ الذي بدأت به هذه الفرقة إذ أن أصولها الخمسة قد ظهرت بالتدريج .

ولكن لعل من تتبع كل الخيوط التي تتيحها لنا كل المصادر التي تيسرت لنا ما يكشف هذا الغموض ويضع يدنا على حقيقة نشأة هذه الفرقة في القرن الهجري الأول .

تجمع كل المصادر على أن مشكلة القدر كانت أقدم مشكلة ميز الموقف منها العناصر الأولى التي بدأت السير في الطريق الذي انتهى بتكوين فرقة المعتزلة ، فهناك ثلاثة من الأعلام الذين يذكرهم المعتزلة في طبقاتهم المبكرة ، ويذكرهم خصوم المعتزلة كذلك في هذه الطبقات قيل عن كل منهم أنه أول من تكلم في القدر .

وأول هؤلاء الثلاثة أبو الأسود الدؤلي ظالم عمرو وهو أحد الموالي التابعين الذين صحبوا عليّ بن أبي طالب ﷺ في حروبه ضد أصحاب الجمل وصفين ، ويروي الرواة فيقولون كان أول متكلم في القدر أبو الأسود الدؤلي وثاني هؤلاء الثلاثة هو معبد الجهني عبد الله بن حكيم وهو عربي من قبيلة جهينة من قضاعة وهو من أهل المدينة الذين عاشوا بالبصرة ويروي الرواة فيقولون " وكان أول من قال بالقدر في الإسلام معبد بن خالد الجهني ولقد شارك معبد في الثورة التي قادها

عــبد الرحمـــن بن الأشعث ضد بني أمية ووقع في قبضة الحجاج بن يوسف الثقفي وقتله الحجاج سنة ٨٠ هـــ أو سنة ٩٠ هـــ .

وثالث الثلاثة هو أبو مروان غيلان بن مسلم الدمشقي وهو من المواليـــي كـــان مولى لعثمان بن عفان وهو زعيم الفرقة التي اشتهرت بالقدريـــة قبـــيل ظهور أصل المنزلة بين المنزلتين على يد واصل بن عطاء وشيوع اسم المعتزلة على هذه الفرقة .

هؤلاء هم الثلاثة الذين تتردد أسماؤهم في المصادر الأولى وعن كل منهم يقول البعض أنه أولى من تكلم في القدر ، والبعض يفسر هذه الأولية بأنها نسبية خصوصاً وهم متعاصرون ونحن نضيف أن الأشكال يـــبخل إذا قلـــنا أن أبـــا الأسود الدؤلي هو أول من تكلم بالقدر بالكوفة وغـــيلان أو من تكلم في دمشق ، ومعبد هو أول من تكلم في البصرة فهي المواطن التي شهدت نشاطهم الواسع في هذا المقام .

ولـــيس بمعنى أن هؤلاء أول من تكلم في القدر أن هذه القضية (قضـــية الجـــبر والاختيار) كانت موجودة قبل هؤلاء ولكن الجدل قد احـــتدم حولهـــا فـــي عصرهم فأظهروا القول فيها وأذاعوه ودعوا إلى مذهبهم في القدر ، وهذا معنى أنهم أول من تكلموا في القدر .

هـــذا عن أبي الأسود الدؤلي ومعبد الجهني وغيلان الدمشقي ، فمـــاذا عـــن الحسن البصري الإمام الذي تنازعت نسبته إليها وتمكست بأنها من أوائلها السنة والمعتزلة على السواء وهو الذي يخيل للمرء أن أغلب علماء عصره قد تخرجوا من حلقته في مسجد البصرة .

أن المعـتزلة يذكـرون الحسـن البصري في الطبقة الثالثة من طـبقات رجالهم وهي الطبقة التي فيها التابعون ويثبتون له رسالته التي كتبها في القدر ردا على رسالة عبد الملك بن مروان .

وفـي البصرة تكلم بالقدر ودعا إليه غير معبد الجهني والحسن البصـري عمـرو بن عبيد ، وكان من حضور حلقة الحسن في مسجد البصـرة وهو الذي خلف الجهني في زعامة تيار القدرية بالبصرة بعد مقتل معبد إذ سلك أهل البصرة مسلك الاعتقاد بالقدر لما رأوا عمرو بن عبـيد ينـتحله ، ولكـن مؤرخي المقالات يجمعون على أن تبلور فكر المعـتزلة وبناء تنظيمها كفرقة متميزة قد تم على يد قيادتها التي تمثلت في أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال .

لقد نشأ واصل في المدينة في بيت محمد بن عليّ بن أبي طالب – محمـد بن الحنفية – وكان مولىً لهم وتعلم مع أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية في المكتب وكان خلاله رفيقاً كما أخذ عنه العلم الذي أخـذه أبـو هاشم عن أبيه وفي الواحدة والعشرين من عمره ذهب إلى البصرة والتقى بعمرو بن عبيد وزامله في حلقة الحسن وفي دعوة القدر وتزوج أخت عمرو ودامت صحبتهما حتى مات واصل بعد ثلاثين عاما في سنة ١٣١ هـ .

وفـي العقد الأول من القرن الثاني أي في حياة الحسن البصري الـذي توفـى سـنة ١١٠ هـ كان واصل قد أكمل البناء الفكري الذي عرفت به المعتزلة على عهده إذ يروي كتاب المقالات أنه قد فرغ من

الرد على مخالفيه وهو ابن ثلاثين سنة .

كـــان هـــناك اتفـــاق إذن بين الحسن وعمرو وواصل في القدر وكذلك في التوحيد والتنزيه ولكن الانقسام قد حدث عندما قال واصل في مرتكب الكبيرة إنه لا يؤمن ولا كافر وإنما هو في منزلة بين المنزلتين وإن يمكـــن مخلدا في النار في درجة من العذاب دون درجة الكافرين بيـــنما كـــان الخوارج يكفرونه ويرى الحسن إنه منافق ويصحح إيمان القائلون بالأرجاء .

وواقعـــه اعتزال مجلس الحس التي سببت إطلاق اسم المعتزلة بنســـبها البعض إلى واصل ، فيقولون إنه اعتزل مجلس الحس بعد أن قـــال بالمنزلة بين المنزلتين ، وأن الحس قد قال اعتزلنا واصل وظهر اسم المعتزلة على هذه الفرقة وهذا أمر شهير في كتب المقالات والفرق بيـــنما ينسب البعض الاعتزال لمجلس الحس إلى عمرو بن عبيد وذلك أنه قد جرت بين واصل بن عطاء وبين عمرو بن عبيد مناظرة في هذا (أي في المنزلة بين المنزلتين) ، فرجع عمرو إلى مذهبه وترك حلقه الحســـن واعـــتزل جانـــبا فسموه معتزليا وهذا أصل تلقيب أهل العدل بالمعتزلة .

واسم المعتزلة بالرغم من الأبحاث التي كتبت حول نشأته وسبب تســـمية وأصـــل وأصـــحابه به سواء تلك الأبحاث والآراء التي كتبها المتشـــرقون فـــي العصر الحديث أو كتاب المقالات في تراثنا العرب الإسلامي .

اســم المعتزلة هذا لا يزال ميدانا مفتوحا قابلا لمزيد من البحث فــلا زال فــي نشــأته وسبب إطلاقه على واصل وجماعته الكثير من الغموض واختلاف وجهات نظر القدماء والمحدثين .. وليس صحيحا ما يقوله الدكتور عبد الرحمن بدوي من أن البحث الذي وضعه المستشرق الإيطالي (نلينو) عن اسم المعتزلة قد وصل إلى النتائج التي لا يوجد ما يدعوا إلى مراجتها أو تغييرها أو رفضها .

تقوم وجهة نظر الأستاذ "نلينو" على رفض الأفكار الشائعة في كــل ما كتبه القدماء وهي الأفكار التي تقول أن اسم المعتزلة قد أطلق علــى واصل وأصحابه عندما أحدثوا القول بالمنزلة بين المنزلين وهو الأمر الذي أدى إلى انشقاقهم عن حلقة الحسن البصري وجماعته وهو يســلم بأن معنى كلمة المعتزلة "المنشقون" ولكن منشقون عن من ؟ ولماذا ؟ هذا ما يحاول الأستاذ "نلينو" أن يأتي فيه بالمبتكر والجديد .

فهــو لا يوافــق علــى أن هــذا الانشقاق قد حدث من واصل وجماعته على جماعة القدرية التي تكونت في القرن الأول الهجري لأن المعتزلة عنده لم يكونوا فرعاً أو استمرار الحركة القدرية هذه ويرفض أن تكون نقطة البدء عندهم هي قضية الاختيار والقول بالقدر .

والــرأي البديل الذي يقدمه بذهب إلى أن هؤلاء المعتزلة الجدد أصــحاب واصــل إنمــا هم الامتداد لحركة الزهاد الذين انشقوا على أطــراف الصــراع السياســي علــى وأصحاب الجمل وعليّ ومعاوية واعتزلوا هذا الصراع فلقد اتخذ هؤلاء المعتزلون القدامى موقفا محايدا

من أحداث ذلك الصراع وأطرافه واتسمت حياتهم بالزهد والتمسك ولما كان واصل وأصحابه قد اتخذ موقفا وسطا بين أهل السنة والخوارج من تقييم أحداث الصراع بين عليّ وخصومه فلم يكفرهم جميعا كما قال الخوارج ولم يصوبهم جميعا كما انتهي إلى ذلك أهل السنة ، وإنما قال بفسق أحد الفريقين دون تحديد لما كان واصل قد اتخذ هذا الموقف الوسط من أحداث هذا الصراع وأطرافه فهو الامتداد لموقف الزهاد المحايدين الذين اعتزلوا هذه الصراعات ويستدل على ذلك أيضا بأن اسم المعتزلة له قد أطلقه واصل وأتباعه على أنفسهم ولم يطلق عليهم خصومهم من أهل السنة فيهم الذين اعتزلوا بموقفهم هذا المحايد والوسط وهم الامتداد لهؤلاء الأسلاف المعتزلين .

ونحن نتفق مع الأستاذ " نلينو " على أن معنى كلمة المعتزلة هي المنشقون وفي عدم تحرج المعتزلة أنفسهم من اتخاذها علما لفرقتهم ولكننا نختلف معه في هذا الربط الذي يقيمه بين واصل وأصحابه – المعتزلة الجدد وبين المعتزلة القدامى الذين كانوا طابعهم الزهد واتخاذ الموقف السلبي أو المحايد من الحياة بمعناه السلبي ، وحتى نقدم حجتنا في إطارها الطبيعي نقدم بين يديها بإيضاح عن الأشخاص والمواقف التي دخلت في عداد هؤلاء المعتزلة القدماء .

١ – عندما تمت البيعة لعلي بالمدينة وانشق عليه بعدها طلحة والزبير ، وأخذ علي في التجهز لموقعة الجمل اعتزل الخروج معه وتوقف عن المشاركة في هذه الحرب واتخذ موقفا محايدا أو معتزلا

عدد من الصحابة أبرزهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت ومحمد بن مسلمة .

وكعب بن مالك ، ومسلمة بن عبد الله وأبو سعيد الخدري والنعمان بن بشير وصهيب وفضالة بن عبد وكعب بن عجرة ومسلمة بن سلامة بن دقس .

وبعض المصادر تذكر أنهم لم يبايعوا عليا وتوقفوا في بيعته . ثم اعتزلوا الفتنة ، ولكن أغلب المصادر ترى أنهم بايعوا وأن توقفهم كان عن القتال وحيادهم كان في النزاع بين علي وطلحة والزبير أما في النزاع بينه وبين معاوية فكانوا يدينون معاوية بالبغي وإن لم يشتركوا في القتال لأن الطرفين المتقاتلين من أهل الصلاة .

ولقد كان موقف هؤلاء المعتزلة القدامى هو الحياد بمعناه السلبي في هذا الصراع وعليّ بن أبي طالب قد وصف حيادهم السلبي هذا وصفا دقيقا عندما قال عنهم أنهم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل .

وفي موقعة الجمل اعتزل الأحنف بن قيس القتال هو وقومه من بني تميم طلبا للسلام كما يقول النوبختي " لا على التدين بالاعتزال .

وبعد وفاة عليّ اعتزل قوم أخرون كلا من الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان " لزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة .

وعلى رأس هؤلاء عامر بن عبد الله الذي يقال له عامر بن قيس

المتوفى سنة ٥٥ هـ) .

فهو اعتزال بمعنى الخروج من حلبة الصراع والتفرغ لشئون النفس الخاصة دينة كانت أو دنيوية أي أنه موقف سلبي من صراعات السياسة والحروب التي كانت دائرة بشأنها .

وفي يوم صفين اعتزل الطرفين المتصارعين نفر من أصحاب عبد الله بن مسعود على رأسهم عبيدة السلماني وأصحابه . خرجوا مع جيش عليّ ولكنهم طلبوا أن يعسكروا في مكان منعزل وقالوا لعلي إننا نريد أن ننظر في أمركم وأمر أهل الشام فمن رأيناه أراد مالا يحل له أو بدا منه بغى كنا عليه فوافقهم على وقال لهم هذا هو الفقه في الدين والعلم بالسنة ومن لم يرض بهذا فهو خائن جبار .

وفريق آخر من أصحاب ابن مسعود طلبوا من عليّ أن يوجههم لثغر من الثغور بدلا من القتال في صفين وقالوا له أنا قد شككنا في هذا القتال فوافقهم وعقد لقائدهم الربيع بن خثيم اللواء فتوجهوا إلى ثغر الرأي .

فاعتزال الصراع هنا موقف سلبي وحياد بالمعنى السلبي لكلمة الحياد ، لأنهم كوا ولم يتبينوا ولم يعرفوا ابن الحق وابن الضلال في هذا الصراع .

ولقد قال عمرو بن العاص يومئذ لمعاوية أن أهل المدينة ومكة ثلاثة نفر . رجل راض بعليّ ، ورجل يهوى عثمان ، ورجل معتزل .

ذلك هو الاعتزال الذي ارتبط بالزهد والتقوى والتعبد في عصر صــــدر الإسلام وهؤلاء هم المعتزلة الذين توقفوا في الصراع بين علي وخصومه ولزموا موقف الحياد بمعناه السلبيٌ ، فهل بين موقف هؤلاء وبين موقف واصل بن عطاء والمعتزلة وجه واحد من وجوه الشبه حتى يكونوا هم أسلاف المعتزلة الجدد ويكون واصل وجماعته هم الاستمرار في ميدان الفكر والنظر لهؤلاء المعتزلة السياسيين أو العمليين كما يقول الأستاذ (نيلنو) .

٢ – أن المعنى الذي يفهم من أصل المنزلة بين المنزلتين وهو الســـبب المباشـــر لانشقاق واصل وصحبته وملابسات نشأته وأساليب القـــول به لا تدع مجالاً للشك في انعدام الصلة الفكرية والعملية ما بين أولئك المعتزلة وهؤلاء المعتزلة الجدد .

فالمـــنزلة بيـــن المنزلتيـــن ليست توقفاً والأحياد سلبياً في تقييم مواقـــف أطراف الصراع في الفتنة التي حدثت في صدر الإسلام وإنما هـــي موقف وسط ولكنه إيجابي في معالجة الخلاف حول حكم مرتكب الكبـــيرة ، وكـــان الوقت اشتداد ثورة الخوارج الأزارقة ضد بني أمية وكـــان المطروح في الدوائر الفكرية والسياسية وساحات القتال من قبل الأزارقة إن بني أمية وهم أهل كبيرة وفسق هم كفار مخلدون في النار ورد عليهم المرجئة بأنهم مؤمنون ورأي الحسن والقدرية وفيهم عمرو بن عبيد أنهم فسقة منافقون .

فجاء واصل بن عطاء بالقول المنزلة بين المنزلتين عندما تمسك

بوصفهم بالفسق لاتفاق الخوارج والقدرية عليه ثم حكم بأن منزلتهم هي بيـــن المؤمنين وبين الكافرون وهم مع ذلك مخلدون في النار والموقف الـــذي يقول إن طرفا من أطراف الصراع في المجتمع الإسلامي فاسق مخلــد فـــي النار لا يوصف بأنه موقف سلبي أو محايد أو امتداد لتلك المواقـــق التي عميت الأمور على أصحابها فتوقفوا عن الحكم والفصل في أحداث الصراع .

٣ – أن القدريـــة قـــبل هذا الانشقاق الذي سموا بعدة بالمعتزلة وكذلـــك المعتزلة بعد هذا الانشقاق لم يكونوا محايدين في الموقف من الصـــراع علـــى السلطة والإمامة في ذلك الحين حتى يكونوا الامتداد لأصحاب ذلك الاعتزال السلبي والحياد الذي كان أشبه بالشلل والتوقف عن التعامل مع الأحداث .

٤ – ثم إن النصوص التي ظهرت حديثا لمفكرين معتزلة والتي اكتشـــفت مخطوطاتهـــا بعـــد أن كتـــب " نيلنو " بحثة تقطع بأن سبب هـــذه التســـمية إنما هو ذلك الانشقاق الذي حدث في حركة أهل العدل والتوحيد .

فالذين أضافوا إلى أصول العدل والتوحيد والوعد والوعيد أصل المنزلة بين المنزلتين واختصوا باسم المعتزلة .

٥ – بـــل إن هناك من يذهب إلى أن هذه التسمية قد أطلقت بعد موت الحسن إذ أن مجلس الحسن وحلقته قد انفرد بهما قتادة ابن دعامة السدوســـي وهـــو من أهل العدل والوحيد فاعتزل عمرو بن عبيد حلقة

قتادة واعتزله نفر معه فسماهم قتادة المعتزلة .

٦ – ثم إن إطلاق اسم المعتزلة على الزهاد الذين توقفوا في الفتنة أيام عليّ ثم إطلاق هذا الاسم على واصل وصحبه ليس دليلا على وجود صلات فكرية أو علمية أو شبه في الموقف وأسلوب معالجة الأحداث بين الفريقين فمثلا عندما فر مروان بن الحكم بعد مقتل عثمان إلى معاوية مع بعض أنصار عثمان كتب معاوية إلى عمرو بن العاص يقول " وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة فهؤلاء رافضة ولا أحد يستطيع أن يقول بوجود شبه بينهم وبين الرافضة الذين نشأوا من بعد وكان هواهم مع عليّ ضد الأمويين وغيرهم فالاتفاق في اللفظ لا يكفي دليلاً على التشابه أو التقارب .

٧ – وأخيراً فإن القول بالمنزلة بين المنزلتين لم يكن هو الأصل الذي يضم تقييم واصل بن عطاء وجماعته لأحداث الفتنة التي وقعت على عهد علي حتى يكون هو الامتداد لموقف المعتزلة القدماء وهكذا نرى أن تسمية فرقة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بالمعتزلة بعد انشقاقهم عن أصحاب الحسن وإنما كان أمر آخر يختلف في المضمون عن إطلاق تلك التسمية على أولئك الزهاد الذين توقفوا في الفتنة زمن عليّ .

لقد نشأت المعتزلة كامتداد متطورة للفرقة القديمة التي كان يطلق عليها خصومها " القدرية " وكان هذا التطور ناتجا عن القول بالمنزل بين المنزلتين الذي أحدث الاتفاق في صفوف أصحاب الحسن

في العقد الأول من القرن الثاني الهجري .

فسلف المعتزلة هم : أهل العدل والتوحيد القدامى وليس معتزلة الصراع والفتنة التي حدثت في صدر الإسلام .

مذهب المعتزلة :

قـال أبو الحسن الخياط في كتابه الانتصار " وليس أحد يستحق اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمية التوحيد والعدل والوعد والوعـيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا جمع هذه الأصول فهو معتزلي .

هـذه هـي الأصـول الجامعة لمذهب المعتزلة فكل من يخيف طريقها ويسلك غير سبيلها فليس منهم ولا يتحملون أئمة ولا تلقي عليهم تبعه قوله ولنتكلم في كل أصل من هذه الأصول بكلمة موجزة .

١ – التوحـيد : وهـو أصـل مذهبهم ولب نحلتهم وقد صوره الأشعري في كتابه مقالات الإسلامية فقال (إن الله واحد أحد ليس كمثله شـئ وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ودم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا بذي حرارة ولا برودة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمـق ولا اجتماع ولا افتراق ولا يتحرك ، ولا يسكن ولا يتبعض ولا بذي أبعاض وأجزاء ولا جوارح وأعضاء وليس بذي جهات وليس بـذي يميـن وشمال وإمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان ولا

يجري عليه زمان صالح .

وقــد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله تعالى يوم القيامة لاقتضــاء ذلــك الجسمية والجهة كما بنوا على أن الصفات ليست شيئا غير الذات وإلا تعدو القدماء في نظرهم وبنوا على ذلك أيضا أن القرآن مخلــوق لله تعالى لمنع تعدد القدر ولنفي كثيرين منهم صفة الكلام عن الله تعالى .

٢ – العدل : والعدل قد بينه المسعودي على مقتضى نظرهم في كتاب مروج الذهب ، فقال "-هو أن الله تعالى لا يجب الفساد ولا يخلق أفعــال العباد بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم وأنه لا يأمر إلا بما أراد ولم ينه إلا عما كره وإنه ولى كــل حســنة أمــر بها وبرئ عن كل سيئة نهى عنها ولم يكلفهم مالا يطيقون ، ولا أراد لهم مالا يقدرون عليه وإن أحدا لأي قدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله تعالى التي أعطاهم إياهم وهو المالك لها دونهم يفنيها إذا شاء ولو شاء بجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطرارا عن معصيته ولكنه لا يفعل إذا كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى) .

وقــد ردوا بهــذا الأصل على الجبرية للذين قالوا إن العبد في أفعاله غير مختار فعدوا العقاب على ذلك ، يكون ظلما إذ لا معنى لأمر الشــخص يأمر هو مضطر إلى مخالفته ونهيه عن أمر هو مضطر إلى فعله .

ومــع أنهم بنوا على ذلك الأصل أن الإنسان خالق الأفعال نفسه

لا خطـوا فـي ذلك تنزيه الله تعالى عن العجز ، فقالوا إن هذا بقدرة أودعهـا الله تعالى إياه وخلقها فهو المعطي وله القدرة التامة على سلب من أعطى ، وإنما أعطى ما أعطى ليتم التكليف .

٣ – **الوعيد والوعيد** : وهم يعتقدون أن الوعد والوعيد نازلان لا محالة فوعده بالثواب واقع ووعيده بالعقاب واقع أيضا ووعده بقبول الـتوبة النصوح واقع أيضا وهكذا فمن أحسن يجازي بالإحسان إحسانا ومـن أسـاء يجـازي بالإساءة عذابا أليما فلا عفو عن كبيرة من غير توبـة ، كما لا حرمان من ثواب لمن عمل خيرا وإن هذا فيه رد على المرجـئة الذين قالوا لا يضر مع الإيمان مضيئة كما لا تنفع مع أكفر طاعـة ، إذ لو صح هذا لكان وعيد الله تعالى في مقام اللغو تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

٤ – **المـنزلة بين المنزلتين** : والقول بأن المسلم العاصي في مـنزلة بين المؤمن والكافر قد بينه الشهرستاني في الملل والنحل بقوله (ووجـه تقريره أنه قال " أي واصل بن عطاء أن الإيمان عبارة عن خصـال الخـير ، إذا اجتمعـت سمي المرء مؤمنا وهو اسم شرح ، والفاسـق لـم يستكمل خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمـنا وليس هو بكافر أيضا لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فـيه لا وجه لانكارها لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهـو من أهل النار خالداً فيها إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان فريق في الجنة وفريق في السعير ، ولكنه تخفف النار عليه . تميزا له عن الذين

لا مدحـــا وتكريما ، وأنه في الدنيا يعامل معاملة المسلمين لأن التوبة له مطلوبـــة والهدايـــة مرجوة ، ولقد قال في ذلك ابن أبي الحديد وهو مع تشيعه من شيوخ المعتزلة .

إنـــا وأن كما نذهب إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مســـلما بخيزان يطلق عليه هذا اللفظ إذا قصد به تمييز عن أهل الذمة وعـــابدي الأوثـــان فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصوراً بسه التعظيم والثناء والمدح .

٥ – الأمـــر بالمعـــروف والنهي عن المنكر : هذا هو الأصل الخـــامس مـــن أصـــول المعتزلة المتفق عليها ، فقد قرروا ذلك على المؤمنيـــن أجمعين ، نشرا لدعوة الإسلام وهداية بالضالين ودفعا لهجوم الذيـــن يحاولون تلبيس الحق بالباطل ليفسدوا على المسلمين أمر دينهم ولذلك تصدوا للذود عن الحقائق أمام سبيل الزندقة التي اندفعت في أول العصـــر العباسي . تهدم الحقائق الإسلامية وتفكك عرا الإسلام عروة عـــروة ، كما تصدوا أيضاً لمناقشة أهل الحديث والفقه وحاولوا حملهم على اعتناق آرائهم بالحجة والبرهان أو بالشدة وقوة السلطان .

هذه هي الأصول الخمسة التي أجمع عليها المعتزلة ولا يستحق اسم الاعتزال من لم يؤمن بها كلها .

أهم فرق المعتزلة :

١ – الواصـــلية : أصحاب واصل بن عطاء الغزال كان تلميذ

الحســن البصري يقرأ عليه العلوم والأخبار ، وكان في أيام عبد الملك وهشــام بن عبد الملك وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور . ويقال لهم الواصلية واعتزلهم بدور علي أربع قواعد .

القــاعدة الأولــى : القول بنفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والإرادة والحياة وكانت هذه المقالة في بدئها غير نضيجة وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر وهو الاتفاق على استحالة وجــود إلهين قد يمين أزليين قال ، ومن أثبت معنى وصيفة قديمة فقد أثبت إلهين وإنما شرع أصحابه" فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة وانتهي نظرهم فيها إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالما قادرا ثم الحكم بأنهما صــفتان ذاتيتان أو حالتان كما قاله أبو هاشم وميل الحسن البصري إلى ردهما إلى صفته واحدة وهو عين مذهب الفلاسفة .

القاعدة الثانية : القول بالقدر سلك في ذلك مسلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي وقرر واصل بن عطاء هذه القاعدة أكثر ما كان يقرر قــاعدة الصفات فقال إن الباري تعالى حكيم عادلا لا يجوز أن يضاف إلــيه شرور وظلم ولا يجوز أن يريد من العواد خلاف ما يأمر ويحكم علــيهم شــيئا ثم يجازيهم عليه فالعبد هو الفاعل للخير والشر والإيمان والفكر والطاعة والمعصية وهو المجازي على فعله والرب تعالى أقدر على ذلك وأفعال العباد محصورة في الحركات والسكنات والاعتمادات والنظر والعلم قال ويستحيل أن يخاطب العبد بأفعل وهو لا يستطيع أن

يفعل وهو يحس من نفسه الاقتدار والفعل ومن أنكره فقد أنكر الضرورة .

وقد استدل على ذلك بآيات القرآن الكريم .

القاعدة الثالثة : القول بالمنزلة بين المنزلتين : والسبب فيه أنه دخل واحد على الحسن البصري فقال يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا فتفكر الحسين في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر ، ثم قال واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن أعتزل عنا واصل في شو وأصحابه معتزلة .

القاعدة الرابعة : قوله في الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين أن أحدهما مخطئ لا بعينه وكذلك كقوله في عثمان وقاتليه وخاذليه أن أحد الفريقين فاسق لا محالة كما أن أحد المتلاعنين فاسق لا بعينه .

٢ – الهذيليـــة : أصـــحاب أبـــي الهذيل حمدان بن أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة ومقدم الطائفة ومقرر الطريقة والمناظر عليها أخذ الاعـــتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء ،ويقال أخ واصـــل عـــن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ويقال أخذه عن الحسن بن أبي الحسن البصري . وقد انفرد عن أصحابه بعشر قواعد .

الأولـــى : أن الباري عالم بعلم وعلمه ذاته قادر بقدرة وقدرته ذاتـــه حتى بحياة وحياته ذاته ، وقد اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لأكثرة فيها .

الثانـــية : أنـــه قد أثبت إرادات لا محل لها يكون الباري تعالى مريد بها وهو أول من أحداث هذه المقالة وتابعة عليها المتأخرون .

الثالثة : قال في كلام الباري تعالى أن بعضه لا في محل وهو قوله كن وبعضه في محل كالأمر والنهي والخبر والاستخبار وكان أمر التكوين عنده غير أمر التكليف .

الـــرابعة : قولـــه فـــي القدر مثل ما قاله أصحابه إلا أنه قدري الأولى جبري الأخرة ، فإن مذهبه في حركات أهل الخلدين في الأخرة إنهـــا كلها ضرورية لا قدرة للعبد عليها وكلها مخلوقة للباري تعالى إذا لو كانت مكتسبة للعباد لكانوا مكلفين بها .

الخامسة : قوله إن حركات أهل الخلدين تقطع وأنهم يصيرون إلـــى سكون دائم وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة ، وتجتمع

الآلام فـــي ذلك السكون لأهل النار وهذا قريب من مذهب جهم إذ حكم بفناء الجنة والنار .

السادســة : قولـــــه في الاستطاعة أنها عرض من الأعراض وفرق بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح فقال لا يصـــح وجـــود أفعال القلوب تمنه مع عدم القدرة والاستطاعة في حال الفعل وجوز ذلك في أفعال الجوارح وقال بتقديمها فيفعل بها في الحال الأول وإن لم يوجد الفعل إلا في الحالة الثانية قال فمحال يفعل غير حال فعل ثم ما تولد من فعل العبد فهو فعله غير اللون والطعم والرائحة وكل مـــالا يعـــرف كيفيـــته وقال في الإدراك والعلم الحادثين في غير عند استماعه وتعليمه إن الله تعالى يبدعها فيه وليا من أفعال العباد .

الســـابعة : قولـــه في الفكر قبل ورود السمع أنه يجب عليه أن يعرف الله تعالى بالدليل من غير خاطر وإن قصر في المعرفة استوجب العقوبـــة أبدا ويعلم أيضا حسن الحسن وقبح القبيح ، فيجب عليه الإقدام على الحسن كالصدق والعدل والأعراض عن القبيح كالكذب والجور .

الثامنة : قوله في الأجال والأرزاق أن الرجل إن لم يقتل مات فـــي ذلـــك الوقت ولا يجوز أن يزاد في العمر أو ينقص الأرزاق على وجهيـــن : أحدهما : ما خلق الله تعالى من الأمور المنتفع بها يجوز أن يقـــال خلقها رزقا للعباد ، فعلى هذا من قال أن أحد آكل وانتفع بما لم يخلقـــه الله رزقا فقد أخطأ لما فيه في الأجسام ما لم يخلقه الله والثاني : ما حكم الله به من هذه الأرزاق للعباد فما أصل منها فهو رزق وما حرم

فليس رزقا أي ليس مأمورا بتناوله .

التاسعة : حكى الكعبي عن إنه قال إرادة الله غير المواد فإرادته لما خلق هي خلقة له وخلقه للشيء عند غير الشيء بل الخلق عنده قوله لا في محل وقال إنه تعالى لم يزل سميعا بصيرا وكذلك لم يزل غفورا رحيما محسنا خالقا رازقا مشيا معاقبا مواليا معاديا آمرا ناهيا .

العاشرة : حكى عنه جماعة أنه قال الحجة لا تقوم فيما غاب إلا بخبر عشرين فيهم واحد من أهل الجنة أو أكثر ولا تخلو الأرض من جماعة هم أولياء الله معصومين لا يكذبون ولا يرتكبون الكبائر فهم الحجة .

٣ – النظامية : أصحاب إبراهيم بن سيار بن هاني قد طالع كثير من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة وانفرد عن أصحاب بمائل .

الأولى : منها إنه زاد على القول بالقدر خيره وشه منا وقوله إن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصر وليست هي مقدوره للباري تعالى خلافا لأصحابه .

الثانية : قوله في الإرادة أن الباري تعالى ليس موصوفا بها على الحقيقة فإذا وصف بها شرعا في أفعاله فالمراد بذلك أنه خالقها ومنشئها على حسب ما علم وإذا وصف بكونه مريدا لأفعال العباد ،

فالمعنى به أنه أمر تبها وناه عنها وعنه أخذ الكعبي مذهبه في الإرادة .

الثالثة : قوله أن أفعال العباد كلها محركات فحسب ، والسكون حـــركة اعتماد والعلوم والإرادات حركات النفس ولم يرد بهذه الحركة حركة النقلة ، وإنما الحركة عنده مبدأ تغير ما ، كما قالت الفلاسفة من إثبات حركات في الكيف والكم والوضع والاين والمتى إلى أحوالها .

الـــرابعة : ووافقهم أيضاً في قولهم أن الإنسان في الحقيقة هو النفس والروح والبدن آلتها وقالبها وهذه بعينها مقالة الفلاسفة .

الخامســـة : حكـــى الكعبي عنه أنه قال إن كل ما جاوز محل القدرة من الفعل فهو من فعل الله تعالى بإيجاب الخليفة أي أن الله تعالى طـــبع الحجـــر طبعاً وخلقه إذا دفعته اندفع وإذا بلغ قوة الدفع مبلغا عاد الحجر إلى مكانه طبعاً وله في الجواهر وأحكامها ضبط مذهب يخالف المتكلمين والفلاسفة .

السادسة : وافق الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزأ وأحداث القـــول بالطفرة لما ألزمه شي نملة على صخرة من طرف إلى طرف أنهـــا قطعت مالا يتناهى وكيف يقطع ما يتناهى ما لا يتناهى قال يقطع بعضـــها بالمشـــي وبعضـــها بالطفرة وشبه ذلك بحبل شد على خشبة معترضـــة وســـط البئر طوله خمسون ذراعاً وعليه ولو معلق وحبل طوـــله وخمسون ذراعا معلق عليه متلاق فيجربه الحبل المتوسط فإن الدلـــو يصل إلى رأس البئر ، وقد قطع مائة ذراع بحبل طوله خمسون ذراعاً في زمان واحد ولي ذلك إلا أن بعض القطع بالطفرة ولم يعلم أن

الطفـــرة قطع مسافة أيضاً موازية لمسافة فالإلزام ولا يندفع عنه وإنما الفرق بين المشي والطفرة يرجع إلى سرعة الزمان وبطئه .

الســـابعة : قال إن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت ووافق هشـــام بن الحكم في قوله إن الألوان والطعوم والروائح أجسام ، فتارة يقضي بكون الأجسام وأعراضاً وتارة يقضي بكون الأعراض أجساماً .

٤ – الثمامية : أصحاب ثمامة بن أشرس النميري . كان جامعاً بيـــن سخافة الدين وخلاعة النفس مع اعتقاده بأن الفاسق مخلد في النار إذا مـــات علـــى فسقه من غير توبه وهو في حال حياته في منزلة بين المنزلتين وانفرد عن أصحابه بمسائل (منها) قوله بأن الأفعال المتولدة لا فاعل لها إذ لم يمكنه إضافتها إلى فاعل أسبابها حتى يلزم أن يضيف القول حيث مثل ما إذا فعل السبب ومات ووجد المتولدات أفعال لا فاعل لها (ومنها) قوله في الكفار والمشركين والمجوس واليهود والنصارى والـــزنادقة يصـــيرون في القيامة تراباً وكذلك قوله في البهائم والطيور وأطفال المؤمنين ، ومنها قوله الاستطاعة هي السلامة وصحة الجوارح وتخليـــتها من الأفات وهي قبل الفعل (ومنها) قوله أن المعرفة متولدة مـــن الـــنظر وهو فعل لا فاعل له كسائر المتولدات (ومنها) قوله في تجســـين العقل وتقبيحه وإيجاب المعرفة قبل ورود السمع مثل أصحابه غـــير أنه زاد عليهم ، فقال من الكفار من لا يعلم خالقه وهو معذور ، وقال أن المعارف ضرورية ، وإن من لم يضطر إلى معرفة الله تعالى فهو مسخر للعباد كالحيوان و (منها) قوله لا فعل للإنسان إلا الإرادة

وما عداها فهو حدث لا محدث له (وحكى ابن الراوندي عنه) .

أنه قال العالم فعل الله تعالى بطباعه ولعله أراد بذلك ما تريده الفلاسفة من الإيجاب بالذات ومن الإيجاد العقلي على مقتضى الإرادة . لكن لا يلزمه على اعتقاده ذلك ما لزم الفلاسفة من القول بقدم العالم إذ الموجب لا ينفك عن الموجب وكان ثمامة في أيام المأمون وعنده بمكان .

٥ – **الهشامية** : أصحاب همام بن عمرو الفوطي ومبالغته في القدر أشد فأكثر من مبالغة أصحابه وكان يمتنع من إطلاق اضافات أفعال إلى الباري تعالى وإن ورد بها التنزيل (منها وله) إن الله لا يؤلف بين قلوب المؤمنين بل هم المؤتلفون باختيارهم وقد ورد في التنزيل ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم و (منها) قوله إن الله تعالى ، يحبب الإيمان إلى المؤمنين ويزينه في قلوبهم وقد قال تعالى حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ومبالغته في نفس إضافة الطبع والختم والسد ، وأمثالها أشد وأصعب وقدوره جميعها في التنزيل قال الله تعالى **(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم)** وقال بل طبع الله عليها بكفرهم وقال وجعلنا من بين أيديهم هذا وليست شعري ما يعتقده الرجل من أفكار ألفاظ التنزيل وحيا من الله تعالى فيكون تصريحا بالكفر وإنكار ظواهرها من نسبتها إلى الباري تعالى ووجوب تأويلها وذلك غير مذهب أصحابه (ومن يدعه) في الدلالة على الباري تعالى قوله أن الأعراض لا تدل على كونه خالقاً ولا تصلح الأعراض دلالات

بـل الأجسام تدل على كونه خالقا وهذا أيضا عجب (ومن بدعة) في الإمامـة قولـه إنها لا تنعقد في أيام الفتنة واختلاف الناس وإنما يجوز عقدها في حاله الاتفاق والسلامة ، وكذلك أبو بكر الأصم من أصحابهم كـأن يقول الإمامة لا تنعقد إلا بإجماع الأمة عن بكرة أبيهم وإنما أراد بذلـك الطعن في إمامه عليّ ﷺ إذا كانت البيعة في أيام الفتنة من غير اتفـاق مـن جميـع الصحابة إذ بقى في كل طرف طائفة على خلاف (ومـن بدعـه) أن الجـنة والنار ليستا مخلوقتين الآن إذ لا فائدة من وجودهـا وهمـا جميعا خاليتان ممن ينتفع ويتضرروا بها وبقيت هذه المسئلة منه اعتقادا للمعتزلة وكان يقول بالموافاة وأن الإيمان هو الذي يوافـي المـوت وقال من أطاع الله جميع عمره وقد علم أنه يأتـي بما يحـبط أعمـال ولو بكبيرة لم يكن مستحقاً للوعد ، وكذلك على العكس وصاحبه عباد من المعتزلة .

وكـان يمتـنع من إطلاق القول بأن الله تعالى خلق الكافر لأن الكافـر كفـروا إنسان والله لا يخلق الكفر وقال النبوة جزاء على عمل وإنهـا باقية ما بقيت الدنيا ، وحكى الأشعري عن عباد أنه زعم أنه لا يقال أن الله لم يزل قائلاً ، ولا غير قائل ووافقه الأشكافي على ذلك قالا ولا يسـمى متكلما وكان الفوطي يقول أن الأشياء قبل كونها معدومة ليسـت أشياء ، وهي بعد أن تعدم عدم وجود تسمى أشياء ولهذا المعنى كان يمنع القول بأن الله تعالى قد كان لم يزل عالماً بالأشياء قبل ركونها فإنهـا لا تسـمى أشـياء قال وكان يجوز القتل والغيلة على المخالفين

لمذهبه وأخذ أموالهم غصباً وسرقة لاعتقاده كفرهم واستباحة دمائهم .

٦ – **الجاحظية** : أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ كان من فضلاء المعتزلة والمصنف لهم وقد صالح كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط روج بعبارته البليغة وحسن براعته اللطيفة وكان في أيام المعتصم والمتوكل وانفرد عن أصحابه بمسائل (منها) قوله إن المعارف كلها ضرورية طباع وليس شيء عن ذلك من أفعال العباد وليس للعباد كسب سوى الإرادة ويحصل أفعاله منه طباعا كما قال ثمامة ونقل عنه أيضا أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنسا من الأعراض فقال إذا انتهى السهو عن الفاعل وكان عالما بما يفعله فهو المزيد على التحقيق وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النص إليه وزاد على ذلك بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة وأثبت لها أفعالاً مخصوصة بها وقال باستحالة عدم الجواهر فالأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن يغني (ومنها) ما قوله في أهل النار إنهم لا يخلدون فيها عذابا ، بل يصيرون إلى طبيعة النار وكان يقول النار تجذب إلى نفسها دون أن يدخل أحد فيها ومذهبه مذهب الفلاسفة في نفي الصفات وإثبات القدر وخيرة وثمرة من العبد مذهب المعتزلة (وحكى الكعبي) عنه في نفي الصفات أنه قال يوصف الاري تعالى بأنه مريد بمعنى أنه لا يصح عليه السهو في أفعاله ولا الجهل ولا يجوز أن يغلب ويقهر وقال أن الخلق كلهم من العقلاء عالمون بأن الله تعالى خلهم وعارفوا بأنهم محتاجون إلى النبي ﷺ وهم محجوجون بمعرفتهم ثم هم

صـــنفان عـــالم بالتوحد وجاهل به فالجاهل معذور العالم محجوج ومن انـــتحل دين الإسلام فإن اعتقد أن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا يرى المعاصي وبعد الاعتقاد والتبيين أقر بذلك كله ، فهو مسلم حقا وأن عرف ذلك كله ثم جحده وأنكره وأدان بالتشبيه والجبر فهو مشرك كافر حقا وإن لم ينظر في شيء من ذلك واعتقد أن الله ربه وأن محمد رسول الله فهـــو مؤمـــن لا لـــوم عليه ولا تكليف عليه غير ذلك (وحكى ابن الراوندي عنه) أن القرآن جمد يجوز أن يقلب مرة رجلا ومرة حيوانا وهذا مثل ما يحكي عن أبي بكر الأصم أنه زعم أن القرآن جسم مخلوق وأنكر الأعراض أصلا وأنكر صفات الباري تعالى ومذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفة إلا أن الميل منه ومن أصحابه إلى الطبيعيين منهم أكثر من إلى الإلهيين (الخياطية) أصحاب أبي الحسين ابن أبي عمرو الخـــياط أستاذ أبي القاسم ابن محمد الكعبي وهما من معتزلة بغداد علي مذهب واحد إلا أن الخياط غال في إثبات المعدوم شيئا وقال الشيء ما يعلـــم ويخـــبر عنه والجوهر جوهر في القدم والعرض عرض وكذلك أطلق جميع أسماء الأجناس والأصناف حتى قال السواد سواد في القدم فلـــم يبق إلا صفة الوجود والصفات التي تلتزم الوجود الحدوث وأطلق علـــى المعـــدوم لفـــظ الثبوت وقال في نفي صفات الباري مثل ما قاله أصحابه وكذلك القول في القدر والسمع العقل وانفرد الكعبي عن أستاذه بمسائل (منها) قوله أن إرادة الباري تعالى ليست صفة قائمة بذاته ولا هو لذاته ولا إرادته حادثة في محل أولا في محل بل إذا أطلق عليه أنه مـــريد معناه أنه عالم قادر غير مكره في فعله ولا كاره ثم إذا قيل أنه

مـــريد لأفعاله فالمراد أنه خالق لها على وفق علمه وإذا قيل هو مريد لأفعال عباده فالمراد به أنه أمر بها راضي عنها وقوله في كونه سميعا بصيرا راجع إلى ذلك ، وقوله في الرؤية كقوله أصحابه نفيا وأحله غير أنّ أصـــحابه قـــالوا يـــرى الباري تعالى ذاته ، ويرى المرئيات وكونه مدركا لذلك زايد على كونه عالما ، وقد أنكر الكعبي ذلـــك قـــال معنى قولنا يرى ذاته ، ويرى المرئيات أنه عالم بها فقط .

الباب الخامس
الشيعة الاثناعشرية وعقائدهم

الفصل الأول
الرجعة

من الأفكار اليهودية المدسوسة بين المسلمين والتي تولى كبر إثمها ابن اليهودية . البار بها عبد الله بن سبأ . . فكرة الرجعة ، أي رجوع الأموات قبل البعث والنشور عند ظهور القائم الشيعي المعدوم المزعوم ، من أئمتهم وأتباعهم . مع أعدائهم ومخالفيهم لينتقموا منهم ويشفوا صدورهم كما ذكر المجلسي خاتمة محدثي الشيعة :

ويرجع للدنيا يوم ظهور حضرة القائم عليه السلام مَنْ مَحَضَ الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً . فيرجع أعداؤه لينتقم منهم في هذا العالم ويشاهدون من ظهور كلمة الحق وعلو كلمة أهل البيت ما أنكروه عليهم ، فتكون رجعة الكفار لينالهم عقاب شديد »(١) .

وهذا الاعتقاد كاد أن يكون من المجمع عليه عند الشيعة . لا خلاف بينهم في ذلك . ولم يشذ فيه أحد ممن يعتد به ويعتمد على قوله كما ذكر الحر العاملي مستدلا على صحة الرجعة وإمكانها ووقوعها . بإجماع جميع الشيعة الإمامية وإطباق الشيعة الاثنى عشرية على صحة اعتقاد الرجعة فلا يظهر منهم مخالف يعتد به من العلماء السابقين ولا اللاحقين ، وقد علم دخول المعصوم في هذا الإجماع بورود الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم وآله وعن الأئمة عليهم السلام ، الدالة على اعتقادهم بصحة

---

(١) حياة القلوب للمجلسي ج ٣ فصل ٢٥ ص ٣٠٣ نقلا عن (عقيدة الشيعة) لدونالدس طعربي .

الرجعة حتى إنه قد ورد ذلك عن صاحب الزمان محمد بن الحسن المهدى عليه السلام فى التوقيعات الواردة عنه وغيرها مع قلة ما ورد عنه فى مثل ذلك من نسبة ما ورد عن آبائه عليهم السلام »(١).

ومثل ذلك ذكره أيضاً مفسر الشيعة القديم أبو على الطبرسى فى تفسيره تحت قول الله عز وجل : « ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون » واستدل بهذه الآية على صحة الرجعة من ذهب إلى ذلك من الإمامية بأن قال : إن دخول من فى الكلام يوجب التبعيض . فدل ذلك على أن اليوم المشار إليه فى الآية يحشر فيه قوم دون قوم . وليس ذلك صفة يوم القيامة . الذى يقول فيه سبحانه : « ... وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً »

« وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى أن الله سيعيد عند قيام المهدى قوماً ممن تقدم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ويبتهجوا بظهور دولته . ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض ما يستحقونه من العذاب فى القتل على أيدى شيعته والذل والخزى بما يشاهدون من علو كلمته . . . على أن جماعة من الإمامية تأولوا ما ورد من الأخبار فى الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهى دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات . وأولوا الأخبار الواردة فى ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافى التكليف . وليس ذلك ، لأنه ليس فيها ما يلجئ إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح والتكليف يصح معها كما يصح مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وقلب العصا ثعباناً وما أشبه ذلك . ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرق التأويل عليها . وإنما المعول فى ذلك على إجماع الشيعة الإمامية وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيده »(٢).

وقبله قال بهذا القول الشريف المرتضى الملقب عند الشيعة بعلم الهدى فى جواب أسئلة سئل بها عن حقيقة الرجعة فأجاب :

---

(١) الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة لحر العامل صاحب (وسائل الشيعة) ص ٣٤ ط المطبعة العلمية – قم – إيران .

(٢) تفسير مجمع البيان لأبى على الطبرسى ج ٤ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

«بأن الذى تذهب إليه الشيعة الإمامية أن الله تعالى يعيد عند ظهور المهدى قوماً ممن تقدم موته من شيعته وقوماً من أعدائه»(١).

وقبله شيخ المرتضى وإمام متكلمى الشيعة وفقهائها . محمد بن النعمان الملقب بالمفيد قال :

اتفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة»(٢).

وقال فى موضع آخر فى مقالاته تحت عنوان (القول فى الرجعة) :

أقول : إن الله تعالى يرد قوماً من الأموات إلى الدنيا فى صورهم التى كانوا عليها ، فيعز منهم فريقاً ويذل فريقاً ويديل المحقين من المبطلين والمظلومين منهم من الظالمين . وذلك عند قيام مهدى آل محمد عليهم السلام وعليه السلام .

وأقول : إن الراجعين إلى الدنيا فريقان : أحدهما من علت درجته فى الإيمان وكثرت أعماله الصالحات وخرج من الدنيا على اجتناب الكبائر والموبقات . فيريه الله عز وجل دولة الحق ويعزه بها ويعطيه من الدنيا ما كان يتمناه . والآخر من بلغ الغاية فى الفساد وانتهى فى خلاف المحقين إلى أقصى الغايات وكثر ظلمه لأولياء الله واقترافه السيئات ، فينتصر الله تعالى لمن تعدى قبل الممات ويشفى غيظهم منه بما يحله من النقمات ، ثم يصير الفريقان من بعد ذلك إلى الموت ومن بعده إلى النشور وما يستحقونه من دوام الثواب والعقاب ، وقد جاء القرآن بصحة ذلك . تظاهرت به الأخبار ، والإمامية بأجمعها عليه إلا شذاذ منهم تأولوا ما ورد فيه مما ذكرناه على وجه يخالف ما وصفناه»(٣).

ونقف هنا برهة يسيرة لنلقى نظرة على مغالطة الدكتور وإن سواء وقع فيها أو أراد إيقاع الناس فيها حيث كتب تحت عنوان الرجعة :

---

(١) انظر أعيان الشيعة جـ ١ الجزء الأول ص ١٣٢ الطبعة الأولى دمشق .
(٢) انظر أوائل المقالات ص ٥٢ .
(٣) أوائل المقالات ص ٩٠ .

«للرجعة فى عقيدة الشيعة الجعفرية مظهران :

النوع الأول : من الرجعة فى عقائدهم وهو رجوع الإمام المهدى بـ ظهوره من مخبئه وهو موضع اتفاق عندهم . بل هو عماد مذهبهم .

وأما النوع الثانى : وهو رجعة الأبرار والأشرار رجعة موقتة فليس من العقائد المتفق عليها عندهم . بل إن كثيراً منهم لينكر هذا النوع من الرجعة»(١).

ثم كتب فى الهامش : انظر أوائل المقالات وتصحيح الاعتقادات للشيخ المفيد . وهو من كبار شيوخهم »(٢).

ويتلخص ردنا فى النقاط التالية :

أولا : إن السيد الدكتور لا يدرى إطلاقاً مذهب الشيعة الجعفرية فى الرجعة حيث قال : « إن رجعة الأبرار والأشرار رجعة موقتة فليس من العقائد المتفق عليها عندهم . بل إن كثيراً منهم لينكر هذا النوع من الرجعة » لأننا كما ذكرنا سابقاً وكما نحن بصدد ذكره أن الشيعة الجعفرية أو الإمامية أو الإثنى عشرية كلهم تقريباً متفقون على هذه العقيدة من أعيانهم وكبرائهم ومشائخهم من المحدثين والمفسرين والفقهاء والكلاميين .

وعلى ذلك قال الحر العاملى :

« فلا يظهر منهم مخالف يعتد به من العلماء السابقين واللاحقين . وقد علم دخول المعصوم فى هذا الإجماع »(٣).

وبذلك قال صدوق الشيعة ورئيس محدثيهم ابن بابويه القمى فى كتابه الكلامى تحت عنوان (باب الاعتقاد فى الرجعة) :

«اعتقادنا يعنى معشر الإمامية فى الرجعة أنها حق »(٤).

وقال الملا باقر المجلسى صاحب (بحار الأنوار) بعد سرد الأخبار الكثيرة عن الرجعة :

إعلم يا أخى أنى لا أظن أنك قد ترتاب بعد ما مهدت وأوضحت لك بالقول فى الرجعة التى أجمعت عليه الشيعة فى جميع الأعصار واشتهرت

---

(١) بين الشيعة وأهل السنة ص ٥٧ .
(٢) الهامش رقم ٤٧ .
(٣) انظر الإيقاظ من الهجعة ص ٣٤ .
(٤) نقلا عن كتاب الهجعة ص ٣٩ ، ٤٠ .

بينهم كالشمس في رابعات النهار . . . وكيف يشك مؤمن بأحقية الأئمة الأطهار فيما تواترت عنهم من مائتي حديث رواها نيف وأربعون من الثقات العظام والعلماء الأعلام في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم »(١).

ومثل ذلك قال الحر العاملي :

« ومما يدل على ثبوت الإجماع اتفاقهم على أحاديث الرجعة حتى إنه لا يكاد يخلو منه كتاب من كتب الشيعة ، ولا تراهم يضعفون حديثاً واحداً منها . ولايتعرضون لتأويل شيء منها . فعلم أنهم يعتقدون مضمونها لأنهم يضعفون كل حديث يخالف اعتقادهم أو يصرحون بتأويله وصرفه عن ظاهره »(٢).

وقال أيضاً :

« ومما يدل على ذلك أيضاً كثرة النصوص الصريحة الموجودة في الكتب الأربعة وغيرها من الكتب المعتمدة . . . ما يزيد على سبعين كتاباً قد صنفها عظماء الإمامية »(٣).

وهذا يدل على أن السيد الدكتور مع ادعائه معرفة مذهب الشيعة لا يعرف عنه شيئاً .

أو . . . وإن بعض الظن إثم !!!

ثانياً : إن الدكتور وافي كتب على هامش الكلام : أوائل المقالات للشيخ المفيد وهو من كبار شيوخهم : كأنه يريد أن يفهم القارئ بأن هذا الكلام منقول عن المفيد الذي له مرتبته وشأنه لدى الشيعة .

ولا أدري كيف أبرر له موقفه هذا ، وأجدله المعاذير ؟ .

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج ١٣ ص ٢٢٥ الطبعة الأولى المنقول من كتابنا (الشيعة والتشيع) ص ٣٦٠ .

(٢) الإيقاظ من الهجعة للحر العاملي المتوفى عام ١١٠٤ (الباب الثاني في الاستدلال على صحة الرجعة) ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) ص ٤٣ ومابعدها .

مع العبارة الصريحة التى نقلناها عن المفيد التى لا غموض فيها ولا إشكال.

هل السيد الدكتور عجز عن فهم كلام المفيد. الذى يفهمه الصغير والكبير، بلا صعوبة أو مشقة؟

أم أن السيد الدكتور لم يعرف عن كتاب المفيد إلا اسمه.. وذكر كتابه دون أن يراجعه أو ينظر ما فيه؟

أم علم وقرأ ولكنه... معاذ الله أن يذهب بى الخيال إلى ما يريد أن يذهب إليه!.

وكلام المفيد واضح جلى كما ذكرناه آنفاً والذى قال فى آخره:

«وقد جاء القرآن بصحة ذلك وتظاهرت به الأخبار. والإمامية بأجمعها عليه. إلا شذاذ منهم تأولوا ما ورد فيه مما ذكرناه على وجه يخالف ما وصفناه»(١).

وبعد هذا لا أستطيع أن أعلل كلام الدكتور الذى قال فيه: «إن رجعة الأبرار والأشرار رجعة موقتة. فليس من العقائد المتفق عليها عندهم، بل إن كثيراً منهم لينكر هذا النوع من الرجعة: ثم ينسب الكلام إلى (أوائل المقالات) للمفيد.

وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن السيد الدكتور ومن حذا حذوه ممن تأثروا بدعوة التقريب فى مصر يجهلون مذهب الشيعة وعقائدهم، ولا يعلمون عنه وعنها شيئاً مع ادعائهم العلم والمعرفة. ولا يرددون إلا كلمات ألقيت فى مسامعهم مزورة مموهة من قبل المخادعين الماكرين(٢) من الشيعة

---

(١) أوائل المقالات للمفيد ص ٨٩، ٩٠.

(٢) ويزيد ذلك أيضاً ما سمعته من شريط أرسل إلى قريباً لأحد كبار الكتاب فى مصر والدعاة إلى الإسلام، الذى نحسن الظن فيه حيث أنه ردد فيه مثل تلك الكلمات وبرأ ساحة الشيعة من كثير من المعتقدات التى يعتقدونها هم، وخطأ ناساً يتهمونهم باعتقاد التحريف فى القرآن وعدم الاعتماد على السنة، وتكفير صحابة النبى وإتيان الفواحش باسم المتعة، وقال: إنها تهم باطلة يتهمهم بها جاهل غير عالم: مع أن حضرته نفسه جاهل فى هذا عالم فى غيره.

وما أقبح أن يدافع عالم من علماء السنة وعلم من أعلامها، ويبيح الصلاة خلفهم، وهم الذين يكفرون أبا بكر وعمر وعثمان وأمهات المؤمنين. ويغلظون فيهم القول - كما سيأتى بيانه - وكما بيناه مفصلا فى كتابنا (الشيعة وأهل البيت) ولا يؤمنون بالقرآن ولا بالسنة النبوية، -

الذين ترددوا على مصر وعلى البلاد السنية الأخرى التي لم تبتل بالتشيع ، ولم تحتج علماؤها ومفكروها إلى معرفة هذه الديانة التي لم تؤسس إلا على أفكار وآراء تعارض الآراء الإسلامية وأفكارها الصحيحة المستقاة من كتاب الله وسنة رسول الله . والمبنية عليهما تماماً .

ومعلوم أن نصوص الكتاب والسنة تخالف هذه العقيدة السخيفة أيضاً حيث أن لا ثواب ولا عقاب ولا جزاء ولا عطاء . ولا حساب ولا كتاب إلا يوم القيامة ، وهو يوم الفصل ويوم الدين ، يوم البعث ويوم النشور ، ويوم الحشر ، والآيات القرآنية الناطقة بهذه الحقائق الناصعة أكثر من أن تعد أو تحصى ، ومنها ما ذكر فيها حكاية عن المذنبين :

« حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون . فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون »(١) .

وهذه الآية صريحة في معناها لا تحتمل التأويل أنه ليس بعد الموت إلا البرزخ إلى يوم البعث . ويوم البعث هو اليوم الذي يفصل فيه بين الصالحين وغير الصالحين . ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

وقال الله عز وجل مبيناً خلقة الإنسان وما إليه يصير في كلامه المحكم :

ص وينكرون العقائد الإسلامية الصحيحة ويؤمنون بالأفكار التي أسسها ووضعها لهم اليهودية الأثيمة .
فإنا لله وإنا إليه راجعون . وإلى الله المشتكى .

ألا يدرى هذا العالم ومن يحذو حذوه أنه لا يوجد في الشيعة رجل واحد ، نعم رجل واحد يدافع عن السنة وأسلافهم هذا الدفاع الميت في بلادهم ، بل لا يوجد أحد منهم يقول لهم : لا تسبوا أصحاب رسول الله فإن قوماً من المسلمين يتألمون من فعلكم هذا : بل يوجد فيهم من يقول وهو محدثهم الكبير :

« وهؤلاء (أي أصحاب رسول الله) نتقرب إلى الله تعالى ورسوله ببغضهم ، وسبهم ، وبغض من أحبهم » (وصول الأخيار إلى أصول الأخبار) لمحدث الشيعة حسين العاملي المتوفى سنة ٩٨٤ ص ١٦٤ .

(١) سورة المؤمنون الآية ٩٩ وما بعدها .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »(١) .

وقال الله عز وجل حكاية عن الكفار وأهل النار :

« وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون . قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم »(٢) .

وقال تعالى :

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير . فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير »(٣) .

أى لا يكون البعث إلا يوم الجمع للحساب والكتاب ويوم دخول الجنة والنار . لا قبله .

ومثل ذلك قول الله عز وجل :

« وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »(٤) .

أى لا يكون بعث من فى القبور إلا يوم القيامة .

والآيات فى هذا المعنى كثيرة جداً . وكذلك الأحاديث الشريفة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإنما أى مسألة البعث فى الدنيا تنافى العقل أيضاً كما فصل القول فيها فى الكتب الكلامية .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٢ وما بعدها .
(٢) سورة الواقعة الآية ٤٧ وما بعدها .
(٣) سورة التغابن الآية ٧ وما بعدها .
(٤) سورة الحج الآية ٧ .

ولكن الشيعة يعتقدون عكس ذلك ويقولون :

إذا آن قيام القائم ومطر الناس فى جمادى الآخرة وعشرة أيام من رجب مطراً لم ير الناس مثله ، فينبت الله به لحوم المؤمنين فى أبدانهم فى قبورهم ، فكأنى أنظر إليهم مقبلين من قبل جهينة ينفضون رءوسهم من التراب(١) .

ويقولون :

إن الحسين عليه السلام يرجع إلى الدنيا مع خمسة وسبعين ألفاً من الرجال(٢) .

وأيضاً ما رووه عن جعفر أنه قال :

إن أمير المؤمنين عليه السلام يرجع مع ابنه الحسين عليه السلام رجعة ، وترجع معه بنو أمية ، معاوية وآل معاوية ، وكل من قاتله ، فيعذبهم بالقتل وغيره ، ويرجع الله من أهل الكوفة ثلاثين ألفاً ، ومن سائر الناس سبعين ألفاً ، ويتلاقون فى الحرب مع معاوية فى ذلك المكان ، ثم يحييهم الله سبحانه مرة فيعذبهم مع فرعون وآل فرعون أشد العذاب ، ثم يرجع أمير المؤمنين عليه السلام مرة أخرى مع النبى صلى الله عليه وآله وجميع الأنبياء عليهم السلام »(٣) .

وأكثر من ذلك أنهم قالوا :

لا يبعث الله نبياً ولا رسولا إلا رد إلى الدنيا من آدم فهلم جرا حتى يقاتل بين يدى على بن أبى طالب عليه السلام »(٤) .

هذا ولقد سردنا روايات كثيرة فى هذا المعنى فى كتابنا (الشيعة والتشيع فرق وتاريخ) ، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى ذلك .

وهذا يدل على أن عقيدة الرجعة عند الشيعة من العقائد المتفق عليها عندهم ، ويعدونها من ضروريات المذهب كما صرح بذلك الحر العاملى(٥) .

---

(١) الإرشاد للمفيد ص ٣٦٣ ، إعلام الورى للطبرسى ص ٤٦٢ ، بحار الأنوار للمجلسى ج ١٣ ص ٢٢٣ ، الصراط المستقيم للنباطى ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) الأنوار النعمانية للجزائرى ج ٢ ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) أيضاً ص ١٠٣ .

(٤) تفسير العياشى ج ١ ص ٢٨١ ، البرهان ج ١ ص ٢٩٥ ، وبحار الأنوار وغيره .

(٥) انظر : الإيقاظ من الهجعة ص ٦٧ ، وتاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة لعبد الله فياض ص ١٧٠ – ط بيروت .

ونقلوا عن جعفر بن محمد الباقر أنه قال :

« ليس منا من لم يؤمن بكرتنا – رجعتنا – ويستحل متعتنا »(١).

وقد ألفوا لإثبات هذه العقيدة كتباً كثيرة ، منها :

(إثبات الرجعة) للملا باقر المجلسي المتوفى عام ١١١١ هـ ، و (إثبات الرجعة) لجمال الخوانساري المتوفى سنة ١١٢٥ هـ ، و (إثبات الرجعة) لحسن الحلي من علماء الشيعة في القرن السابع . و (إثبات الرجعة) لابن المطهر الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ هـ . و (إثبات الرجعة) لمير محمد عباس التستري الهندي المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ . و (إثبات الرجعة) لملا سلطان محمود من تلامذة المجلسي . و (إثبات الرجعة) لسليمان القطيفي المتوفى سنة ١٢٦٦ هـ ، و (إثبات الرجعة) للفضل بن شاذان النيسابوري المتوفى سنة ٢٦٠ هـ و (إثبات الرجعة) ليحيي البحراني . و (إثبات الرجعة) للميرزا حسن القمي . و (إثبات الرجعة) لمحمد رضا الطبسي . و (الإمامية والرجعة) لعبد الله رزاق الهمداني . و (الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة) للحر العاملي . و (بشارة الفرج) للملا فرج بن عاشور . و (تفريج الكربة عن المنتقم لهم في الرجعة) لمحمود فتح الله الكاظمي المتوفى سنة ١٠٥٨ هـ . و (الجوهر المنضود في إثبات رجعة الموعود) لأحمد بيان الأصفهاني . و (حياة الأموات بعد الموت) لأحمد البحراني المتوفى سنة ١١٣١ هـ ؛ و (دحض البدعة من إنكار الرجعة) لمحمد علي السنقري . و (دلائل الرجعة) لغلام علي العقيقي . و (الرجعة أحاديثها المنقولة عن آل العصمة) لأحمد بن المحسن . و (الرجعة وظهور الحجة) للميرزا محمد مؤمن الاسترا آبادي المتوفى سنة ١٠٨٨ هـ . و (كتاب الرجعة) لمحمد بن مسعود العياشي صاحب تفسير العياشي المشهور ؛ و (كتاب الرجعة) لابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١ هـ . و (الرجعة) للملا حبيب الله الكاشاني المتوفى سنة ١٣٤٠ هـ ؛ و (النجعة في إثبات الرجعة) لعلي النقي الهندي .

والجدير بالذكر أن هذه العقيدة أعني الرجعة مأخوذة من اليهودية أيضاً كما صرح بذلك جولدزيهر :

(١) من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمي ج ٣ ص ٤٥٨ ، وتفسير الصافي للكاشاني ج ١ ص ٣٤٧ .

« إن فكرة الرجعة ذاتها ليست من وضع الشيعة أو من عقائدهم التي اختصوا بها . ويحتمل أن تكون قد تسربت إلى الإسلام عن طريق المؤثرات اليهودية والمسيحية »(١) .

وبمثل ذلك قال أحمد أمين :

« اليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة »(٢) .

وهذا ظاهر لا يحتاج في إثباته إلى دليل حيث أن المؤرخين والكتاب في الفرق ، والأديان صرحوا أن مؤسس الديانة الشيعية عبد الله بن سبأ هو الذي روج فيهم فكرة الرجعة . وهو أول من قال بها كما نقل الطبري :

« كان عبدالله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء فأسلم زمان عثمان . ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم . فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول :

العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع ؟ وقد قال الله عز وجل : إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد .

فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . قال : فقبل ذلك عنه . ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها »(٣) .

ويوافق الطبري في هذا غيره من المؤرخين .

وبعد هذا لا يبقى مجال للشك على يهودية الفكرة .

وقبل أن ننتقل إلى موضع آخر نقرر هنا أن القوم لا يعتقدون بالرجعة فحسب . بل يتجاوزونها إلى التناسخ حيث أوردوا روايات كثيرة عن أئمتهم المعصومين حسب زعمهم في ذلك المعنى . منها ما رووا أن أبا جعفر الملقب بمؤمن الطاق عند الشيعة ، وشيطان الطاق عند الآخرين

---

(١) العقيدة والشريعة ص ٢١٥ .
(٢) فجر الإسلام ص ٢٧٦ .
(٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٩٨ ، ومثل ذلك في (مقالات الإسلاميين) للأشعري – ج ١ ص ٥٠ الهامش – ط مصر .

لقي يوماً من الأيام أبا حنيفة نعمان بن ثابت الإمام رحمه الله . فسأله أبو حنيفة :

إنكم تقولون بالرجعة ؟

قال : نعم .

قال أبو حنيفة : فأعطني الآن ألف درهم حتى أعطيك ألف دينار إذا رجعنا .

قال الطاق لأبي حنيفة : فأعطني كفيلا بأنك ترجع إنساناً ولا ترجع خنزيراً »(١) .

وقد روى النجاشي أنه قال له :

أريد ضميناً يضمن لي أنك تعود إنساناً ، فإني أخاف أن تعود قرداً فلا أتمكن من استرجاع ما أخذت مني »(٢) .

ومثل هذا كثير .

أما محاولة الدكتور علي عبد الواحد وافي وضع هذه العقيدة السخيفة ، يهودية الأصل بجانب عقيدة أهل السنة بالمهدي المنتظر فليس إلا عبثاً محضاً .

وكذلك حكمه على الأحاديث الكثيرة عن ذلك المهدي بأن كثيراً منها موضوع . وما بقي منها ضعيف كل الضعف فليس إلا حكماً جائراً غير صحيح لدى المحققين والنقاد المهرة من أهل السنة .

• • •

(١) الاحتجاج للطبرسي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ ج ٢ ص ١٤٨ ، أيضاً الايقاظ من الهجعة لحر العاملي ص ٦٦ .

(٢) رجال النجاشي ص ٢٨٨ ، الايقاظ ص ٦٧ .

الفصل الثاني

أعمال العباد

إن الشيعة الإثنى عشرية يقولون : إن أفعال العباد غير مخلوقة لله . . . .

وقد روى عن أبي الحسن الثالث عليه السلام أنه سئل عن أفعال العباد : هل هي مخلوقة ؟

فقال عليه السلام : لو كان خالقاً لها لما تبرأ منها وقد قال سبحانه وتعالى : إن الله برىء من المشركين ورسوله ، ولم يرد البراءة من خلق ذواتهم ، وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم »(١) .

وقد قال الحر العاملي في كتابه تحت باب : (إن الله سبحانه خالق كل شيء إلا أفعال العباد) :

أقـــول :

« مذهب الإمامية والمعتزلة أن أفعال العباد صادرة عنهم وهم خالقون لها »(٢) .

ولكن شيخهم المفيد كره إطلاق لفظ خالق على أحد من العباد حيث قال تحت عنوان (إن الخلق يفعلون ويحدثون ويخترعون ويصنعون ويكتسبون ولا أطلق عليهم القول بأنهم يخلقون ولا لهم خالقون) »(٣) .

وهذا مخالف لصريح القرآن حيث ذكر فيه :

« والله خلقكم وما تعملون »(٤) .

---

(١) (شرح اعتقادات الصدوق) للمفيد : الملحق بكتاب (أوائل المقالات) ص ١٨٧ ، ١٨٨
(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة ص ٨١ .
(٣) أوائل المقالات ص ٦٤ .
(٤) سورة الصافات الآية ٩٦ .

و « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو . . . »(١) .
و « . . . وخلق كل شيء فقدره تقديراً »(٢) .
و « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه . . . »(٣) .
وأيضاً « . . . قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار »(٤) .
وأيضاً « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل »(٥) .
وغير ذلك من الآيات الكثيرة .
ومعروف أن أفعال العباد داخلة في « كل شيء » .
وقد أقر بذلك الباقر حيث قال :

« إن الله خلو من خلقه ، وخلقه خلو منه ، وكل ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله فهو مخلوق ، والله خالق كل شيء »(٦) .

وأما « نفي نسبة أفعال العباد إلى الله لأن فيها قبيحاً لا يصح أن ينسب إليه » فليس إلا لغواً محضاً ، لأن الخالق المتعالي خلق كل شيء ثم أخبر الإنسان عن الحسن والقبيح وأمرهم بإتيان الأول واجتناب الثاني وخيرهم في ذلك . وأنار لهم السبل ، وأرسل لهم الرسل لبيان الخير والشر ، والحق والباطل ، والحسن والقبيح ، وأعطى لهم عقولا ليتفكروا بها ويعقلوا ، وقلوباً ليتدبروا بها ويتبصروا ، قال جل وعلا : « وهديناه النجدين »(٧) .
و « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني . . . »(٨) .

---

(١) سورة غافر الآية ٦٢ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٢ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٢ .
(٤) سورة الرعد الآية ١٦ .
(٥) سورة الزمر الآية ٦٢ .
(٦) الفصول المهمة ص ٨١ .
(٧) سورة البلد الآية ١٠ .
(٨) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

و « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »(١) .

وقال :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »(٢).

وقال :

« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى »(٣) .

أى أن الإنسان ليس مجبوراً محضاً ، ولا مختاراً مطلقاً . بل هو بين الجبر والاختيار . إن الله خلق الإنسان . وإن الله يعلم ما سيعمل فى حياته ويفعل فى مستقبله فخلق أفعاله على علمه ذاك . ويسر له السبل بعد تفويضه الاختيار أن يعمل هذا أو ذاك ، وبعد إرشاده أن هذا حسن وذاك قبيح ، قال سبحانه وتعالى :

« فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى »(٤) .

ولم يجبرهم على هذا أو ذاك . قال تعالى :

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً . . . »(٥) .

وقال :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . . . »(٦) .

ومعنى هذا كله أن الله خلق أفعال العباد حسب علمه الذى أحاط بكل شىء .

« . . . وكان الله بكل شىء محيطاً » .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .
(٢) سورة الزلزلة الآية ٧ ، ٨ .
(٣) سورة النجم الآية ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .
(٤) سورة الليل الآية ٥ — ١١ .
(٥) سورة يونس الآية ٩٩ .
(٦) سورة هود الآية ١١٨ .
(٧) سورة النساء الآية ١٢٦ .

و « وأن الله قد أحاط بكل شيء علما »(١) .

و « . . . والله بكل شيء عليم »(٢) .

و « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء »(٣) .

و « . . . وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون »(٤) .

و « . . . وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء »(٥) .

وأما عقاب العبد وثوابه . فلا يكون إلا على اكتساب العبد ذلك الفعل والعمل به بعد اختياره على كسب ذلك أو تركه . فإن كان شراً فشر ، وإن كان خيراً فخير . لا دخل فيه لقدرة العباد على خلق الأفعال أو على عدم الخلق ، وهذا ما صرح الله عز وجل في كتابه بقوله :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »(٦) .

وقوله عز وجل :

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون »(٧) .

وقوله تبارك وتعالى :

« . . . وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٨) .

فالثواب والعقاب على الاكتساب لا على الخلق وعدم الخلق ، وهذه المسألة قد تاهت فيها عقول الشيعة الإمامية فلم يفهموها ، لا في ضوء الكتاب ولا السنة — وهم يعتقدون فيهما ما يعتقدون — ولا في ضوء روايات أئمتهم المعصومين حسب زعمهم . كما روى الكليني وغيره عن أبي بصير أنه قال :

---

(١) سورة الطلاق الآية ١٢ .

(٢) سورة النساء الآية ١٧٦ ، وسورة البقرة الآية ٢٨٢ ، وسورة النور الآية ٣٥ ، وسورة الحجرات الآية ١٦ ، سورة التغابن الآية ١١ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٨٠ .

(٥) سورة إبراهيم الآية ٣٨ .

(٦) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٧) سورة الروم الآية ٤١ .

(٨) سورة النحل الآية ١١٨ .

« كنت بين يدى أبى عبد الله عليه السلام جالساً فسأله سائل، فقال : جعلت فداك يا ابن رسول الله من أين لحق الشقاء بأهل المعصية حتى حكم لهم بالعذاب على عملهم فى علمه ؟

فقال أبو عبد الله : أيها السائل علم الله عز وجل لا يقوم له أحد من خلقه بحقه ، فلما حكم بذلك وهب لأهل محبته القوة على طاعته ووضع عنهم ثقل العمل بحقيقة ما هم أهله . ووهب لأهل المعصية القوة على معصيتهم لسبق علمه فيهم ومنعهم إطاعة القبول منهم ، فوافقوا ماسبق لهم فى علمه تعالى ولم يقدروا أن يأتوا حالا تنجيهم من عذابه ، لأن علمه أولى بحقيقة التصديق ، وهو معنى شاء ما شاء وهو سره »(١) .

وأيضاً ما رواه الكليني عن أبى عبد الله جعفر بن الباقر أنه قال :

لا جبر ولا تفويض ولكنه أمر بين أمرين »(٢) .

ومثل ذلك روى عن على بن موسى الرضا – الإمام الثامن لدى الشيعة – وقد رواه زيد بن عمير أنه قال :

دخلت على على بن موسى الرضا وقلت له :

يا ابن رسول الله روى لنا عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال : لا جبر ولا تفويض ولكنه أمر بين أمرين . فما معناه ؟

فقال : وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به وترك ما نهوا عنه .

فقلت : فهل لله عز وجل مشيئة وإرادة فى ذلك ؟

فقال : أما الطاعة فإرادة الله ومشيئته فيها الأمر بها والرضا لها والمعاونة عليها . وإرادته ومشيئته فى المعاصى النهى عنها والسخط لها والخذلان عليها .

قلت : فلله عز وجل فيها القضاء ؟

قال : نعم ما من فعل يفعله العباد من خير وشر إلا وفيه قضاء »(٣) .

---

(١) الأصول من الكافى باب السعادة والشقاء ، ج ١ ص ١٥٢ ط طهران .
(٢) الأصول من الكافى ج ١ ص ١٥٥
(٣) الفصول المهمة فى معرفة أصول الأئمة ص ٤٧ .

ومثل ذلك روى أيضاً عن جعفر أنه سئل عن الجبر والقدر ؟ فقال : لا جبر ولا قدر ، ولكن منزلة بينهما »(١) .

وروى حريز عن جعفر بن محمد أنه قال :

« الناس في القدر على ثلاثة أوجه : رجل يزعم أن الله أجبر العبد على المعاصي فهذا قد ظلم الله في حكمه فهو كافر ، ورجل يزعم أن الله فوض الأمور إليهم فهذا وهن الله في سلطانه فهو كافر ، ورجل يقول : إن الله كلف العباد بما يطيقون ، ولم يكلفهم بما لا يطيقون ، فإذا أحسن حمد الله ، وإذا أساء استغفر الله فهذا مسلم بالغ »(٢) .

فحاصل الكلام : أن العبد ليس بمجبور محض ولا بمختار مطلق ، لا كما زعمه الشيعة :

« أن أفعال العباد صادرة عنهم وهم خالقون لها »(٣) .

لأن العقاب والثواب لا يكون على خلق الأفعال ، بل على كسب الأفعال .

وأما قولهم : إن نسبة أفعال العباد إلى الله بأنها مخلوقة له ، وفيها قبيح لا تصح ، فقول يخالف روايات أئمتهم أيضاً حيث أن أئمتهم قالوا كما ذكر محدثوهم أن الله خلق الشر كما خلق الخير ، والشر قبيح بلا شك ، فكيف ينسبونه — وهم المعصومون حسب زعمهم — إلى الله ؟ وهذه هي رواياتهم :

روى الكليني عن جعفر بن محمد الباقر أنه قال :

« إن الله كتب في كتبه : إني أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن أجريت على يده الخير ، وويل لمن أجريت على يده الشر »(٤) .

ومثل ذلك رواه عن معاوية عن أبي عبد الله أنه كان يقول :

« مما أوحى الله تعالى على موسى وأنزل عليه التوراة : اني أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الخلق وخلقت الخير ، وأجريته على يد من أحب ، فطوبى لمن أجريته على يديه ، وأنا الله لا إله إلا أنا خلقت الخلق وخلقت الشر وأجريته على يد من أريد ، وويل لمن أجريت على يده الشر »(٥) .

---

(١) الفصول المهمة في معرفة أصول الأئمة ص ٧٢ .
(٢) الفصول المهمة للحر العاملي ص ٧١ ، ٧٢ .
(٣) أيضاً ص ٨١ .
(٤) الأصول من الكافي للكليني ج ١ ص ١٥٤ .
(٥) الكافي للكليني ج ١ ص ١٥٤ .

ومثل ذلك ذكر القمي في تفسيره عنه أنه قال :

قال الله عز وجل : أنا الله لا إله إلا أنا خالق الخير والشر »(١) .

فهل من مجيب : الشر قبيح أم لا ؟

فكيف نسبه أئمتهم المعصومون – حسب زعمهم – إلى الله عز وجل ؟

وهم رووا أيضاً في كتبهم عن جعفر بن محمد الباقر أنه نسب خلق الشقاوة إلى الله أيضاً ولا شك في قبحها كما رواه الكليني عن منصور بن حازم أنه قال :

قال أبو عبد الله عليه السلام : إن الله خلق السعادة والشقاوة قبل أن يخلق الخلق »(٢) .

ثم وما معنى قول السيد الدكتور عبد الواحد وافي :

« يذهب الشيعة الجعفرية إلى أن العبد يحدث أعماله ولكن بقدرة أودعها الله فيه »(٣) .

فمن يكون الموجود الحقيقي إذاً ؟ هل الذى أوجد قدرة الفعل في خلقه أم الذى خلقت فيه هذه القدرة على ذلك الفعل ؟

لأن العبد محروم من قدرة الإيجاد والإبداع ، وقدرة الفعل والاكتساب .

وما دام الله هو المبدع وهو الخالق فيه هذه القدرة فلا تنسب ثمرته ونتيجته إلا إليه . ولا دخل للإنسان فيه .

فليتدبر الشيعة في جوابه .

وأما كون الرب خالقاً لأفعال العباد فهل يقال إنه فعل ما هو قبيح منه وظلم أم لا ؟ فيجيب على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الرد على ابن المطهر الحلي بقوله :

فأهل السنة المثبتون للقدرة يقولون : ليس هو بذلك ظالماً ولا فاعلا قبيحاً . والقدرية يقولون : لو كان خالقاً لأفعال العباد كان ظالماً فاعلا لما هو قبيح منه . وأما كون الفعل قبيحاً من فاعله فلا يقتضى أن يكون قبيحاً

---

(١) الكافي للكليني ج ١ ص ١٥٤ . (٢) الكافي للكليني ج ١ ص ١٥٤ .
(٣) بين الشيعة وأهل السنة ص ٥٧ .

من خالقه . كما أن كونه أكلا وشرباً لفاعله لا يقتضي أن يكون كذلك لخالقه لأن الخالق خلقه في غيره ولم يقم بذاته . فالمتصف به من قام به الفعل لا من خلقه في غيره كما أنه إذا خلق لغيره لوناً وريحاً وحركة وقدرة كان ذلك الغير هو المتصف بذلك اللون والريح والحركة والقدرة والعلم . فهو المتحرك بتلك الحركة . والمتلون بذلك اللون . والعالم بذلك العلم . والقادر بتلك القدرة . فكذلك إذا خلق في غيره كلاماً أو صلاة أو صياماً أو طوافاً لأن ذلك الغير هو المتكلم بذلك الكلام وهو المصلي وهو الصائم وهو الطائف ولكن من قال : إن الفعل هو المفعول يقول : إن أفعال العباد هي فعل الله ، فإن قال : وهو أيضاً فعل لهم لزمه أن يكون الفعل الواحد لفاعلين كما يحكي عن أبي إسحاق الأسفرائيني .

وإن لم يقل : هي فعل لهم لزمه أن تكون أفعال العباد فعلا لله لا لعباده كما يقوله الأشعري ومن وافقه من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم الذين يقولون : إن الخلق هو المخلوق ، وإن أفعال العباد خلق لله . فتكون هي لله وهي مفعول لله كما أنها خلقه وهي مخلوقه . وهذا الذي ينكره جمهور العقلاء ويقولون : إنه مكابرة للحس ومخالفة للشرع والعقل .

وأما جمهور أهل السنة فيقولون : إن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله ومفعول لله . لا يقولون : هو نفس فعل الله . ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول(١) .

وبعد بيان هذا كله نلقي نظرة عابرة على أخطاء الدكتور وافي في هذا الفصل القصير أيضاً كما عهدناها في جميع الفصول والأبواب ، وعلى محاولاته تبرئة الشيعة من كثير من الانحرافات والزيغ والضلال ، وتصويبهم في آرائهم ومعتقداتهم . فيقول :

إن الشيعة الجعفرية يتفقون في بعض نواحي هذه العقيدة مع المعتزلة والقدرية ولكنهم يتقون انحراف المعتزلة بعدم موافقتهم لهم على القول بأن العباد

(١) منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١ ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

خالقون لأعمالهم . وهو القول الذى انحرف به المعتزلة عن الاعتقاد السليم »(١) .

ومن المؤسف حقاً أن الشيخ لا يعلم وهو فى هذه المنزلة من العلم وتلك المرحلة من العمر . وبهذه الجرأة فى الإقدام على الكتابة لتبرئة الشيعة مما لزمهم من العار والشنار . والقول بالباطل : إن الشيعة اتقوا انحراف المعتزلة بأن العباد خالقون لأعمالهم ذلك القول الذى انحرف به المعتزلة عن الاعتقاد السليم . بل وقعوا فى عين ذلك الانحراف كما نقلنا عن الحر العاملى صاحب موسوعة حديثية شيعية كبرى (وسائل الشيعة) حيث يقول :

مذهب الإمامية هو عين مذهب المعتزلة فى أفعال العباد . وهذا هو نص عبارته فى كتابه (الفصول المهمة فى معرفة أصول الأئمة) تحت الباب السابع والأربعين :

إن الله خالق كل شىء إلا أفعال العباد : أقول : مذهب الإمامية والمعتزلة أن أفعال العباد صادرة عنهم وهم خالقون لها »(٢) .

وقد أقر بذلك شيخ الشيعة المفيد فى كتابه (أوائل المقالات) تحت باب : القول فى العدل والخلق . بعد نفى خلق الأفعال عن الله تعالى :

وعلى هذا القول جمهور أهل الإمامة . وبه تواترت الآثار عن آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وإليه يذهب المعتزلة بأسرها إلا ضراراً منها وأتباعهم وخالف فيه جمهور العامة (أى أهل السنة) وبقايا من عددناهم(٣) .

ونقل هذه العقيدة عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية والشاه عبد العزيز الدهلوى فى (التحفة الإثنى عشرية) وغيرهم من علماء أهل السنة والجماعة الذين كتبوا فى الرد على الشيعة .

وهذه هى العقيدة المنقولة المتوارثة عن الشيعة قديماً وحديثاً . وقد تجاهلها الدكتور وافى .

---

(١) بين الشيعة وأهل السنة ص ٥٩ .
(٢) الفصول المهمة ص ٨٠ ، ٨١ .
(٣) أوائل المقالات فى المذاهب والمختارات ص ٦٣ ، ٦٤ .

وأما تبرئة الدكتور وافي الشيعة وتقريره بأنهم لا يسمون غير الله خالقاً قد انفرد بالخلق والتكوين فليست إلا تبرئة قائمة على حسن الظن وعدم المعرفة بكلام القوم لأن الشيعة ينسبون الخلق إلى غير الله كما مر سابقاً في أفعال العباد ، وأيضاً وقد رووه عن فتح بن يزيد الجرجاني أنه قال :

قلت لأبي الحسن عليه السلام : هل غير الخالق الجليل خالق ؟

قال : إن الله تبارك وتعالى يقول :

« . . . فتبارك الله أحسن الخالقين » .

إن في العباد خالقين وغير خالقين . منهم عيسى عليه السلام خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله . والسامري خلق لهم عجلا جسداً له خوار »(١).

وهناك روايات أخرى عن أبي جعفر وغيره تدل على أن الخلق ينسب إلى الملك :

« هو الذي خلق سبع سموات وسبع أرضين وأشياء » .

وكذلك ما رواه الكليني أن ملكين خلاقين يخلقان بإذن الله من ذكر وأنثى وشقي وسعيد »(٢) .

وغير ذلك من الروايات .

ولا أدري مع ذلك كيف أباح الدكتور لنفسه أن يدعي هذا الادعاء ؟ وأن يلقن الشيعة ويلقي في أفواههم ما لا يقولونه أنفسهم ؟

• • •

(١) الفصول المهمة ص ٨١ .
(٢) الكافي الكليني ج ١ ص ١٥٢ .

الفصل الثالث

التقية

ذكر الدكتور وافى فيما من معتقدات الشيعة التقية موافقاً إياهم فى جوازها ، مستنداً على القرآن والسنة حيث يقول :

إننا نتفق معهم فى جواز التقية فى المواطن التى يشيرون إليها . والتى أجازها القرآن وأجازتها السنة النبوية الشريفة »(١).

ولا يعلم الدكتور أن التقية الشيعية مخالفة للقرآن والسنة كل المخالفة ، حيث أن معناها الكذب المحض والنفاق الخالص ، ولم ترد آية فى القرآن تبيح الكذب والنفاق ، ولا رواية عن رسول الله تجيزهما ، بل على العكس من ذلك وردت آيات كثيرة فى القرآن وأحاديث عديدة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحرم هذا وذاك . ولقد صرح بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاجه حيث قال :

النفاق والزندقة فى الروافض أكثر من سائر الطوائف ، بل لابد لكل منهم من شعبة نفاق فإن أساس النفاق الذى بنى عليه الكذب أن يقول الرجل بلسانه ما ليس فى قلبه كما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) والرافضة تجعل هذا من أصول دينها وتسميه التقية ، وتحكى هذا عن أئمة أهل البيت الذين برأهم الله عن ذلك ، بل كانوا من أعظم الناس صدقاً وتحقيقاً للإيمان وكان دينهم التقوى ، لا التقية .

وقول الله تعالى : **« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة »**(٢) : إنما هو الأمر بالاتقاء من الكفار ، لا الأمر بالنفاق والكذب . والله تعالى قد أباح

---

(١) بين الشيعة وأهل السنة ص ٦٣ .
(٢) سورة آل عمران : ٢٨ .

لمن أكره على كلمة الكفر أن يتكلم بها إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان لكن لم يكره أحداً من أهل البيت على شيء من ذلك حتى أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكره أحداً لا منهم ولا من غيرهم على متابعته . فضلا أن يكرههم على مدحه والثناء عليه . بل كان علي وغيره من أهل البيت يظهرون ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم والترحم عليهم والدعاء لهم . ولم يكن أحد يكرههم على شيء منه باتفاق الناس .

وقد كان في زمن بني أمية وبني العباس خلق عظيم دون علي وغيره في الإيمان والتقوى يكرهون منهم أشياء ولا يمدحونهم . ولا يثنون عليهم ، ولا يقربونهم ، ومع هذا لم يكن هؤلاء يخافونهم ولم يكن أولئك يكرهونهم مع أن الخلفاء الراشدين كانوا باتفاق الخلق أبعد عن قهر الناس وعقوبتهم على طاعتهم من هؤلاء . فإذا لم يكن الناس مع هؤلاء مكرهين على أن يقولوا بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم . فكيف يكونون مكرهين مع الخلفاء على ذلك ، بل على الكذب وشهادة الزور وإظهار الكفر كما تقوله الرافضة من غير أن يكرههم أحد على ذلك . فعلم أن ما تتظاهر به الرافضة هو من باب الكذب والنفاق ، وأن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . لا من باب ما يكره المؤمن عليه من التكلم بالكفر »(١) .

وهو كما قاله شيخ الإسلام لأن الشيعة لم يؤسسوا دينهم إلا على الكذب والنفاق ، ولم يروجوا دياناتهم إلا بإظهار ما لم يعتقدوه في السر وإعلان ما يبطنون خلافه دون أن يجبرهم على ذلك أحد أو يكرههم . وخير مثال لذلك ما رواه الكشي في كتابه عن أبان بن تغلب أنه قال :

قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إني أقعد في المسجد فيجيء الناس ، فيسألوني ، فإن لم أجبهم لم يقبلوا مني . وأكره أن أجيبهم بقولكم ، وما جاء منكم ؟

فقال لي : انظر ما علمت أنه من قولهم فأخبرهم بذلك »(٢) .

---

(١) منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١ ص ١٥٩ ، ١٦٠ ط باكستان .

(٢) رجال الكشي ص ٢٨٠ – ط مؤسسة الأعلى كربلاء – العراق ، ومثل ذلك في الأصول الأصلية والقواعد الشرعية ص ٣٢٧ – ط مكتبة المفيد قم – إيران .

ومثل ذلك رواه معاذ بن مسلم النحوي قال :

« قال لي أبو عبدالله عليه السلام : بلغني أنك تقعد في الجامع فتفتي الناس ؟ قال : قلت : نعم . وقد أردت أن أسألك عن ذلك قبل أن أخرج ، إني أقعد في الجامع فيجيء الرجل فيسألني عن الشيء . فإذا عرفته بالخلاف لكم أخبرته بما يقولون . ويجيء الرجل أعرفه بحبكم أو مودتكم فأخبره بما جاء عنكم . . . قال : فقال لي (أي أبو جعفر) : اصنع كذا فإني أصنع كذا ! »(١).

ومثل ذلك روى أبو بصير عن محمد الباقر قال :

« خالطوهم بالبرانية (أي ظاهراً) وخالفوهم بالجوانية (أي باطناً) »(٢).

وهذه الروايات الثلاثة صريحة في معناها لا تحتاج إلى تشريح وتوضيح لبيان أن التقية الشيعية ليست إلا النفاق بعينها . وهذا هو المعبر عن المنافقين في القرآن الحكيم :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون »(٣).

وذكره الله في أوصافهم وخصائصهم :

« . . . يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون »(٤).

وإن الروايات الشيعية عن أئمتهم المعصومين – حسب زعمهم – التي تدل وتخبر أن التقية الشيعية ليست إلا نفاقاً محضاً ، كثيرة جداً ، وقد أوردنا الكثير منها في كتابنا (الشيعة والسنة) تحت باب (الشيعة والكذب) ، وما لم نوردها فيه نذكر بعضاً منها ههنا زيادة للفائدة والمعرفة . فيروي الكليني في كافيه عن هشام الكندي أنه قال :

سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :

---

(١) رجال الكشي ص ٢١٨ تحت ترجمة معاذ بن مسلم الهراء النحوي .
(٢) الكافي في الأصول للكليني ج ٢ ص ٢٢٠ ط إيران .
(٣) سورة البقرة الآية ١٤ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٧ .

«إياكم أن تعملوا عملا يعيرونا به ؛ فإن ولد السوء يعير والده بعمله، كونوا لمن انقطعتم إليه زيناً، ولا تكونوا عليه شيناً، صلوا في عشائرهم، وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، ولا يسبقونكم إلى شيء من الخير فأنتم أولى به منهم. والله، ما عبد الله بشيء أحب إليه من الخبء. قلت: وما الخبء؟

قال: التقية»(١).

وروى ابن بابويه القمي عن المدرك بن هزهاز أنه قال:

«قال أبو عبد الله عليه السلام: يا مدرك. رحم الله عبداً اجتر مودة الناس إلى نفسه فحدثهم بما يعرفون، وترك ما ينكرون»(٢).

وكذبوا على أصحاب الكهف حيث اتهموهم بالنفاق وخداع الناس بإظهارهم خلاف ما يبطنون في قلوبهم حيث نقلوا عن جعفر أنه قال:

«ما بلغ التقية أحد تقية أصحاب الكهف إن كانوا ليشهدون الأعياد ويشدون الزنانير فأعطاهم الله أجرهم مرتين»(٣).

مع أن الرب تبارك وتعالى أخبر عكس ذلك حيث ذكر في كلامه المحكم:

«... إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً. هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً. وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً»(٤).

ولكن القوم يقولون عكس ذلك. ويأمرون الناس بالكذب، وأن يصيروا من المنافقين، الذين قال الله عنهم:

«إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً»(٥).

---

(١) الأصول من الكافي ج ٢ ص ٢١٨ ط إيران.
(٢) كتاب الخصال لابن بابويه القمي ١ ص ٢٥ ط إيران
(٣) الأصول من الكافي للكليني ج ٢ ص ٢١٨.
(٤) سورة الكهف الآية ١٣ - ١٦.
(٥) سورة النساء الآية ١٤٥.

ومعروف أن الإنسان إذا كان فى بلدة يخاف على دينه وعرضه وماله من تعرض المخالفين وجبرهم وظلمهم وقهرهم على عدم إظهار دينه والعمل بأحكامه وتعاليمه . وجب عليه أن يهاجر إلى محل يقدر فيه على إظهار دينه والعمل به كما قال الله عز وجل :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً . ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً »(١) .

فأمرهم الرب تبارك وتعالى بالهجرة . إلا المستضعفين منهم . فإنه يجوز لهم المكث مع المخالفة والموافقة بقدر الضرورة . ووجب عليهم أيضاً أن يسعوا فى الحيلة للخروج والفرار بدينهم .

نعم . ان وقع شخص فى أيدى الكفار . وأجبروه على كلمة الكفر بالتخويف والتهديد والحبس والفتك والقتل . جاز له أن ينطق بتلك الكلمة وقلبه مطمئن بالإيمان . وفى تلك الصورة . . . فإن التفوه بهذه الكلمة رخصة وعدم التفوه بها عزيمة . ولو قتل دون ذلك فهو شهيد كما يدل على ذلك ما قاله الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين من أصحابه أخذهما مسيلمة الكذاب . فقال لأحدهما :

أتشهد أن محمداً رسول الله ؟

قال : نعم . فقال : أتشهد أنى رسول الله ؟

قال : نعم . ثم دعا الآخر فقال له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟

قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟

---

(١) سورة النساء الآية ٩٧ وما بعدها .

قال : إنى أصم . قالها ثلاثاً : وفى كل يجيبه : إنى أصم ، فضرب عنقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه وأخذ بفضله . فهنيئاً له . وأما الآخر فقد رحمه الله تعالى فلا تبعة عليه »(١).

ولكن الشيعة جُعلوا النفاق والكذب عزيمة ، والصدق والمجاهرة بالحق رخصة . ولا رخصة أيضاً حيث نقلوا عن أئمتهم المعصومين حسب زعمهم — وهم يكذبون عليهم — أنهم قالوا كما رواه الكليني عن جعفر :

يا سليمان ، إنكم على دين من كتمه أعزه الله . ومن أذاعه أذله الله»(٢).

وكما رواه الكليني أيضاً عن جعفر أنه قال لأحد أصحابه معلى بن خنيس :

يا معلى . اكتم أمرنا ولا تذعه . فإنه من كتم أمرنا ولم يذعه أعزه الله به فى الدنيا . وجعله نوراً بين عينيه فى الآخرة . يقوده فى الجنة .

يا معلى ، من أذاع أمرنا ولم يكتمه أذله الله به فى الدنيا ونزع النور من بين عينيه فى الآخرة ، وجعله ظلمة تقوده إلى النار .

يا معلى . إن التقية من دينى ودين آبائى . ولا دين لمن لا تقية له»(٣).

« روى الكليني أيضاً عن جعفر عن أبيه محمد الباقر أنه قال :

لا والله ما على وجه الأرض شىء أحب إلى من التقية . يا حبيب . إنه من كانت له تقية رفعه الله . ياحبيب . من لم تكن له تقية وضعه الله »(٤).

وعنه أيضاً عن أبى عمر الأعجمى أنه قال :

قال لى أبو عبد الله عليه السلام : يا أبا عمر . إن تسعة أعشار الدين فى التقية . ولا دين لمن لا تقية له . والتقية فى كل شىء إلا النبيذ والمسح على الخفين »(٥).

---

(١) مشكاة المصابيح .
(٢) الكافى الكلينى ج ٢ ص ٢٢٢ ، كتاب الإيمان والكفر .
(٣) الأصول من الكافى ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٤) الكافى فى الأصول ج ٢ ص ٢١٧ كتاب الإيمان والكفر باب التقية .
(٥) الكافى : ٢ / ٢١٧ .

كما روى أيضاً عن جعفر أنه قال :

كان أبي عليه السلام يقول : وأى شيء أقر لعيني من التقية . وإن التقية جنة المؤمن »(١) .

هذا وقد أورد عالم شيعي كبير هو عبد الله شبر في كتابه (الأصول الأصلية والقواعد الشرعية) روايات كثيرة في وجوب التقية . منها ما رواه عن الحسين بن علي أنه قال :

لولا التقية ما عرف ولينا من عدونا .

وعن محمد الباقر أنه قال :

أشرف أخلاق الأئمة والفاضلين من شيعتنا استعمال التقية .

وعن أبيه علي بن الحسين أنه قال :

يغفر الله للمؤمن كل ذنب ويطهره منه في الدنيا والآخرة ما خلا ذنبين ، ترك التقية وتضييع حقوق الإخوان .

وعن موسى بن جعفر أنه قال لرجل :

لو جعل إليك التمني في الدنيا ما كنت تتمنى ؟

قال : كنت أتمنى أن أرزق التقية في ديني وقضاء حقوق إخواني .

فقال : أحسنت . اعطوه ألفي درهم .

وعن علي بن محمد – الإمام العاشر للشيعة – أنه سئل : من أكمل الناس ؟ قال : أعلمهم بالتقية وأقضاهم لحقوق إخوانه إلى أن قال :

فأعظم فرائض الله عليكم بعد فرض موالاتنا ومعاداة أعدائكم استعمال التقية على أنفسكم وأموالكم ومعارفكم ، وقضاء حقوق إخوانكم . وإن الله يغفر كل ذنب بعد ذلك ولا يستقصي . فأما هذان فقل من ينجو منهما إلا بعد مس عذاب شديد »(٢) .

ورووا أيضاً عن أبي الحسن – إمامهم المعصوم المزعوم – أنه قال :

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) الأصول الأصلية والقواعد الشرعية لعبد الله شبر المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ ص ٣٢٣، ٣٢٤ ط قم – إيران .

إن أكرمكم عند الله أتقاكم . قال : أشدكم تقية »(١) .

وعن داود الصرمى أنه قال :

قال لى مولانا على بن محمد عليه السلام : يا داود . لو قلت : إن تارك التقية كتارك الصلاة لكنت صادقاً »(٢) .

وروى الطوسى فى أماليه عن جعفر أنه قال :

ليس منا من لم يلزم التقية »(٣) .

فهذه هى التقية الشيعية . وهذه هى مكانتها وشأنها عندهم . يقول السيد محب الدين الخطيب المصرى فى رسالته (الخطوط العريضة للأسس التى قام عليها مذهب الشيعة الاثنى عشرية) :

« وأول موانع التجاوب الصادق بإخلاص بيننا وبينهم ما يسمونه التقية ؛ فإنها عقيدة دينية تبيح لهم التظاهر لنا بغير ما يبطنون . فينخدع سليم القلب منا بما يتظاهرون له به من رغبتهم فى التعاون والتقارب . وهم لا يريدون ذلك . ولا يرضون به . ولا يعملون له »(٤) .

وأضف إلى قول السيد الخطيب : إن الشيعة لا يظهرون بغير ما يبطنون لنا أهل السنة خاصة . بل إنهم يعودون على الكذب حتى مع أهل مذهبهم كى يصير الكذب والنفاق سجيتهم وطبيعتهم كما روى الطوسى فى أماليه أنه قال جعفر لشيعته :

عليكم بالتقية . فإنه ليس منا من لم يجعلها شعاره ودثاره مع من يأمنه ليكون سجيته مع من يحذره »(٥) .

فمن يك هذا دينهم . أيقال عنهم : إننا نتفق معهم فى جواز التقية فى المواطن التى أشير إليها . والتى أجازها القرآن الكريم وأجازته السنة النبوية الشريفة » .

---

(١) المحاسن للبرقى ص ٢٥٨ باب التقية ط قم – إيران .
(٢) كتاب السرائر نقلا عن (الأصول الأصلية) لعبد الله الشبر ص ٣٢٠ ط قم – إيران .
(٣) الأمالى للطوسى نقلا عن الأصول الأصلية والقواعد الشرعية لعبد الله الشبر .
(٤) الخطوط العريضة ص ٨ ، ٩ الطبعة السادسة .
(٥) الأمالى للطوسى نقلا عن الأصول الأصلية ص ٣٢٠ .

ولقد أخطأ السيد الدكتور حيث قال :

وقد أجازها الشيعة الجعفرية »(١) .

لأن الشيعة لا يجيزونها فحسب ؛ بل يوجبونها كما نقلنا عنهم روايات كثيرة في ذلك . وكما صرح به صدوقهم ابن بابويه القمي في اعتقاداته :

« التقية واجبة لا يجوز رفعها إلى أن يقوم القائم ، ومن تركها قبل خروجه فقد خرج عن دين الإمامية ، وخالف الله ورسوله والأئمة »(٢) .

وقال مفيدهم :

« التقية كتمان الحق وستر الاعتقاد فيه ، ومكاتمة المخالفين وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين أو الدنيا ، وفرض ذلك إذا علم بالضرورة أو قوى في الظن »(٣) .

وقال في (أوائل المقالات) :

إنها قد تجب أحياناً ويكون فرضاً ، وتجوز أحياناً من غير وجوب(٤) .

ولقد فصلنا القول في ذلك في كتابنا (الشيعة والسنة) وبحثنا فيه عن الأسباب التي ألجأت الشيعة وأرغمتهم على اعتقادها ، كما أوردنا فيه روايات كثيرة ونصوصاً عديدة من كتبهم المعتمدة ورجالاتهم الموثوقين . أعرضنا عن إيرادها ههنا تجنباً للتكرار والإطالة . وعلى كل من يريد أن يعرف حقيقة هذه العقيدة فليرجع إليه ، فإنه لا غنى عنه .

ونختم الكلام في هذا المبحث برواية رويها بخاريهم الكليني عن عبد الله ابن يعفور أنه قال :

قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إني أخالط الناس فيكثر عجبي من أقوام لا يتولونكم ويتولون فلاناً وفلاناً ، لهم أمانة وصدق ووفاء ، وأقوام يتولونكم ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء ولا الصدق . قال :

---

(١) بين الشيعة وأهل السنة ص ٦١ .
(٢) الاعتقادات لابن بابويه القمي .
(٣) شرح اعتقادات الصدوق فصل التقية ص ٢٤١ .
(٤) أوائل المقالات ص ١٣٥ .

فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالساً . فأقبل على كالغضبان ، ثم قال :

لا دين لمن دان الله بولاية إمام ليس من الله »(١).

فكيف يكون الصدق والوفاء لقوم أمروا بالكذب والنفاق ؟

يقول عالم شيعي هندي هو السيد إمام :

« إن مذهب الإمامية وأهل السنة عينان تجريان إلى مختلف الجهات . وإلى القيامة تجريان هكذا متباعدتين ؛ لا يمكن اجتماعهما أبداً »(٢).

• • •

---

(١) الكافي في الأصول ج ١ ص ٢٣٧ – ط الهند .

(٢) مصباح الظلم للسيد امداد إمام ص ١٤٠٢٤ .

الفصل الرابع

البداء

هنالك عقيدة شيعية أخرى لا تقل شناعة عن العقائد الأخرى التي يختص بها القوم . وهي عقيدة البداء في الله .

ومعنى البداء الظهور بعد الخفاء كما ذكر ذلك السيد محسن الأمين في كتابه (الشيعة بين الحقائق والأوهام) تحت عنوان البداء :

البداء مصدر بدا يبدو بداء أي ظهر ، ويستعمل في العرف بمعنى الظهور بعد الخفاء . فيقال : فلان كان عازماً على كذا ثم بدا له فعدل عنه »(١) .

وبمثل ذلك نقل ابن منظور الأفريقي عن اللغويين حيث قالوا :

البداء استصواب شيء بعد أن لم يعلم . . . وقال الفراء : بدا لي بداء أي ظهر لي رأي آخر وأنشد :

لو على العهد لم يخنه لدمنا ثم لم يبد لي سواه بداء

قال الجوهري : وبدا له في الأمر بداء أي نشأ له فيه رأي — وذكر أيضاً — : بدا لي بداء أي تغير لي رأي على ما كان عليه »(٢) .

وفي هذا المعنى استعمل هذا اللفظ في القرآن الكريم :

« . . . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »(٣) .

« وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون »(٤) :

(١) الشيعة بين الحقائق والأوهام ص ٤٥ ، ٤٦ الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٧ م بيروت .
(٢) لسان العرب ج ١٤ ص ٦٦ ط مصر وبيروت .
(٣) سورة الزمر الآية ٤٧ .
(٤) سورة الزمر الآية ٤٨ .

« وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون »(١).

: « . . . قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر »(٢).

وأيضاً : « . . . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما . . . »(٣).

ففي كل الآيات استعمل هذا اللفظ بمعنى الظهور بعد الخفاء.

وتجيز الشيعة هذا البداء لله ، أي يظهر له أمر بعد ما كان خافياً عليه — تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً — كما تنص على ذلك روايات شيعية كثيرة في أمهات كتبهم ، المعتمدة الموثوقة ، منها ما رووه عن جعفر أنه كان يقول بإمامة ابنه إسماعيل بعده ، ثم مات إسماعيل في حياته فقال :

ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل ابني »(٤).

ومثل ذلك ما رواه الكليني في كافيه عن إمامهم العاشر علي بن محمد المكنى بأبي الحسن أنه لما مات ابنه الأكبر محمد المكنى بأبي جعفر وبقي له ابنه الأصغر الحسن المكنى بأبي محمد قال كما روى أبو هاشم الجعفري :

كنت عند أبي الحسن عليه السلام بعد ما مضى ابنه جعفر وإني لأفكر في نفسي أريد أن أقول : كأنهما أعني أبا جعفر وأبا محمد في هذا الوقت كأبي الحسن موسى وإسماعيل ابني جعفر بن محمد عليهم السلام وأن قصتهما كقصتهما ، إذ كان أبو محمد المرجى بعد أبي جعفر عليه السلام فأقبل علي أبو الحسن قبل أن أنطق فقال :

نعم يا أبا هاشم ، بدا لله في أبي محمد بعد أبي جعفر عليه السلام ما لم يكن يعرف له ، كما بدا له في موسى بعد مضى إسماعيل ما كشف به عن حاله

---

(١) سورة الجاثية الآية ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٢ .

(٤) كمال الدين وتمام النعمة لابن بابويه القمي ج ١ ص ٦٩ — ط طهران سنة ١٣٩٥ هـ ، وفرق الشيعة للنوبختي ص ٦٤ ، وكتاب المقالات والفرق لسعد بن عبد الله القمي ص ٧٨ ط طهران سنة ١٩٦٣ م ، والأنوار النعمانية ج ١ ص ٣٥٩ ط إيران .

وهو كما حدثتك نفسك وإن كره المبطلون . وأبو محمد ابني الخلف — من بعدي(١) .

وكما رواه أيضاً عن محمد بن عبد الله الأنباري أنه قال :

كنت حاضراً أبا الحسن عليه السلام لما توفى ابنه محمد فقال للحسن :

يا بني أحدث لله شكراً فقد أحدث فيك أمراً(٢) .

وهذه الروايات الثلاثة صريحة في معناها بأن الله لم يكن يعلم بأن كلا من إسماعيل بن جعفر . ومحمد بن علي لا يصلحان للإمامة . وخفي الأمر عليه . ثم ظهر له عدم صلاحيتهما لتلك المنزلة وذلك المنصب فأحدث الإمامة في موسى بن جعفر وحسن بن علي .

هذا وروى محدثو الشيعة روايات كثيرة في هذا المعنى . منها ما رواه ابن بابويه القمي الملقب بالصدوق عن علي بن موسى الملقب بالرضا — الإمام الثامن لدى الشيعة — :

لقد أخبرني أبي عن آبائي عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« إن الله أوحى إلى نبي من أنبيائه أن أخبر فلاناً الملك : أني متوفيه إلى كذا وكذا .

فأتاه ذلك النبي فأخبره . فدعا الله الملك وهو على سريره حتى سقط من السرير ، وقال : يارب . عجلني حتى يشب طفلي ويقضي أمري .

فأوحى الله عز وجل إلى ذلك النبي أن ائت الملك فأعلم أني قد أنسيت في أجله وزدت في عمره إلى خمس عشرة سنة . فقال ذلك النبي عليه السلام : يارب . إنك لتعلم أني لم أكذب قط . فأوحى الله عز وجل إليه : إنك عبد مأمور فأبلغه ذلك . والله لا يسأل عما يفعل(٣) .

ورووا مثل ذلك عن نبي الله عيسى الناطق بالوحي أنه مر بقوم مجلبين كما نقله القمي عن جعفر بن محمد فقال عيسى عليه السلام :

---

(١) الأصول من الكافي ج ١ ص ٣٢٧ .
(٢) أيضاً ص ٣٢٦ .
(٣) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ تحت عنوان (البداء وما يتعلق به) .

ما هؤلاء ؟

قيل : يا روح الله إن فلانة بنت فلان تهدى إلى فلان بن فلان فى ليلتها هذه قال : يجلبون اليوم ويبكون غداً . فقال قائل منهم : ولم يا رسول الله ؟

قال : لأن صاحبتهم ميتة فى ليلتها هذه . فقال القائلون بمقالته : صدق الله وصدق رسوله . وقال أهل النفاق : ما أقرب غداً . فلما أصبحوا جاءوا فوجدوها على حالها لم يحدث بها شىء . فقالوا : يا روح الله إن التى أخبرتنا أمس أنها ميتة لم تمت . فقال عيسى عليه السلام : يفعل الله ما يشاء . فاذهبوا بنا إليها ، فذهبوا يتسابقون حتى قرعوا الباب فخرج زوجها ، فقال له عيسى عليه السلام : استأذن لى إلى صاحبتك . قال : فدخل عليها فأخبرها أن روح الله وكلمته بالباب مع عدة . قال : فتخدرت . فدخل عليها فقال لها : ما صنعت ليلتك هذه ؟

قالت : لم أصنع شيئاً إلا وقد كنت أصنعه فيما مضى إنه كان يعترينا سائل فى كل ليلة جمعة فننيله ما يقوته إلى مثلها . وأنه جاءنى فى ليلتى هذه وأنا مشغولة بأمرى وأهلى فى مشاغيل . فهتف فلم يجبه أحد ، ثم هتف فلم يجبه أحد حتى هتف مراراً . فلما سمعت مقالته قمت متنكرة حتى أنلته كما كنا ننيله . فقال لها : تنحى عن مجلسك . فإذا تحت ثيابها أفعى مثل جذعة عاض على ذنبه . فقال عليه السلام : بما صنعت صرف الله عنك هذا (١) .

وكذبوا على نبى الله محمد صلوات الله وسلامه عليه نقلا عن جعفر أيضاً أنه قال :

مر يهودى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : السلام عليك . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : عليك . فقال أصحابه : إنما سلم عليك بالموت . قال : الموت عليك . قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : كذلك رددت . ثم قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : إن هذا اليهودى يعضه أسود فى قفاه فيقتله . قال : فذهب اليهودى فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله .

---

(١) أمالى الصدوق المجلس الخامس والسبعون ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

ثم لم يلبث أن انصرف فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ضعه فوضع الحطب فإذا أسود فى جوف الحطب عاض على عود ، فقال : يا يهودى ما عملت اليوم ؟ قال : ما عملت عملا إلا حطبى هذا احتملته فجئت به وكان معى كعكتان فأكلت واحدة وتصدقت بواحدة على مسكين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

بها دفع الله عنه . وقال : إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان »(١) .

ومعنى الروايتين واضح جلى أن نبى الله عيسى عليه السلام أخبر بموت العروسة بإخبار من الله عز وجل وبوحى منه وخفى على الله — عياذاً بالله — بأن العروسة واليهودى لا يموتان فى وقتهما الذى حدد لموتهما العارضة تعرض ، وسبب يحدث . كما لم يظهر له — تعالى الله عما يقولونه علواً كبيراً — أن رسوليه يكذبان من قبل المعاندين . ويهزأ بهما من قبل المنافقين ، ويتكلم الناس فى أمرهما ما يتكلمون . ويكون فى أيديهم حجة لتكذيبهم إياهم وللرد على مقولاتهم وأنبائهم فلا يبقى إذاً معنى النبوة والنبوءة .

وعلى ذلك اضطرب القوم فى أمر هذه العقيدة الخبيثة . المتفق عليها عند جميع الشيعة كما قال شيخهم المفيد : واتفقت الإمامية على إطلاق لفظ البداء فى وصف الله تعالى وإن كان ذلك من جهة السمع دون القياس(٢) .

فهذه العقيدة المتفقة عندهم جعلتهم يضطربون عند الإيرادات والإشكالات ولا يجدون عنها مخلصاً إلا بالتأويلات الركيكة والتوجيهات الضعيفة الرخيصة ، منها ما التجأ إليه كاتب شيعى دعائى فى كتابه الدعائى (المشهور أصل الشيعة وأصولها) . وضعف قوته وفتور همته وقلة حيلته وعدم ثقته بكلامه تتدفق من عبارته وهو يقول :

أما البداء الذى تقول به الشيعة الذى هو من أسرار آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وغامض علومهم حتى ورد فى أخبارهم الشريفة أنه : ما عبد الله بشىء مثل القول بالبداء . وأنه : ما عرف الله حق معرفته ولم يعرف

---

(١) الكافى للكلينى ج ٤ ص ٥ — كتاب الزكاة .
(٢) أوائل المقالات ص ٥٢ .

بالبداء . إلى كثير من أمثال ذلك . فهو عبارة عن إظهار الله جل شأنه أمراً يرسم في ألواح المحو والإثبات وربما يطلع عليه بعض الملائكة المقربين أو أحد الأنبياء والمرسلين فيخبر الملك به النبي . والنبي يخبر به أمته ، ثم يقع بعد ذلك خلافه لأنه محاه وأوجد في الخارج غيره وكل ذلك كان جلت عظمته يعلمه حق العلم ولكن في علمه المخزون المصون الذي لم يطلع عليه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي ممتحن . وهذا المقام من العلم هو المعبر عنه القرآن الكريم بأم الكتاب المشار إليه . وإلى المقام الأول بقوله تعالى : « يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . ولايتوهم الضعيف أن هذا الإخفاء والإبداء يكون من قبيل الإغراء بالجهل وبيان خلاف الواقع . فإن في ذلك حكماً ومصالح تقصر عنها العقول وتقف عندها الألباب(١) .

ثم إن القوم لم يقفوا في سرد الروايات لدعم عقيدتهم هذه إلى هذا الحد بل قالوا : إن نبي الله لوطاً عليه السلام كان يخاف من البداء لله إلى حد أنه طالب ملائكة العذاب أن يعجلوا بقومه العذاب كي لا تتغير إرادة الله فيهم بسبب من الأسباب التي خفيت عليه وتظهر فيما بعد .

وهذه هي عبارة القوم نقلا عن محمد الباقر بعد ذكر رسل الله الذين أرسلوا إلى قوم لوط :

قال لهم لوط : يا رسل ربي فما أمركم ربي فيهم ؟

قالوا : أمرنا أن نأخذهم بالسحر .

قال : فلي إليكم حاجة .

قالوا : وما حاجتك ؟

قال : تأخذونهم الساعة . فإني أخاف أن يبدو لربي فيهم .

فقالوا : يا لوط . إن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب(٢) .

وقد بالغوا هذا حتى قالوا نقلا عن محمد الباقر : أنه قال :

---

(١) أصل الشيعة وأصولها لمحمد الحسين آل كاشف الغطاء ص ١٤٨ .

(٢) الكافي في الفروع للكليني ج ٥ ص ٤٦ ، كتاب النكاح باب اللواط .

إن الله عز وجل إذا أراد أن يخلق النطفة التي مما أخذ عليها الميثاق في صلب آدم أو ما يبدو له فيه ويجعلها في الرحم حرك الرجل للجماع وأوحى إلى الرحم – أن افتحى بابك حتى يلج فيك خلقى وقضائى النافذ وقدرى . فتفتح الرحم بابها فتصل النطفة إلى الرحم . فتردد فيه أربعين يوماً . ثم تصير علقة أربعين يوماً . ثم تصير مضغة أربعين يوماً . ثم تصير لحماً تجرى فيه عروق مشتبكة . ثم يبعث الله ملكين خلاقين يخلقان في الأرحام ما يشاء الله فيقتحمان في بطن المرأة من فم المرأة فيصلان إلى الرحم وفيها الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء فينفخان فيها روح الحياة والبقاء ويشقان له السمع والبصر وجميع الجوارح وجميع ما في البطن بإذن الله . ثم يوحى الله إلى الملكين : اكتبا عليه قضائى وقدرى ونافذ أمرى . واشترطا لى البداء فيما تكتبان . . . فيملى أحدهما على صاحبه فيكتبان جميع ما في اللوح ويشترطان البداء فيما يكتبان(١) .

وقد عظموا هذه العقيدة حتى نقلوا عن أئمتهم أنهم قالوا :

« ما عبد الله بشيء مثل البداء » قاله محمد الباقر(٢) .

وعن جعفر أنه قال :

« ما عظم الله بمثل البداء »(٣) .

وعنه أيضاً ما نقله مالك الجهني أنه قال :

« لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا من الكلام فيه(٤) .

وعن مرازم بن حكيم أنه قال :

سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :

« ما تنبأ نبي قط حتى يقر لله بخمس خصال : بالبداء ، والمشيئة ، والسجود والعبودية ، والطاعة(٥) .

---

(١) الكافي في الفروع ج ٦ ص ١٣ ، ١٤ ؛ كتاب العقيقة باب بدء خلق الإنسان .

(٢) الكافي في الأصول ج ١ ص ١٤٦ ، كتاب التوحيد باب البداء .

(٣) " "

(٤) الأصول من الكافي : ١ / ١٤٨ .

(٥) " "

وأخيراً ما رواه الريان بن صلت أنه قال:

«سمعت الرضا عليه السلام يقول: ما بعث الله نبياً قط إلا بتحريم الخمر وأن يقر لله بالبداء»(١).

هذا ما يقوله الشيعة عن الله ويعتقدونه فيه وراثة عن اليهودية البغيضة، وناقلة أفكارها الخبيثة من قول اليهود:

«رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب: امحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنت أني عملتهم(٢).

ومثل هذه الفقرات كثيرة في التوراة واضحة تشير إلى أن الله عمل شيئاً ولم يكن ليفعل لو علم في حينه أن نتيجته خلاف ما أراده. وخفي عليه ما ظهر فيما بعد – سبحانه عما يصفون.

وأما ما يقوله الرب جل وعلا في كتابه المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو مخالف تمام المخالفة لما يعتقده اليهود والشيعة. يقول الرب عز وجل عن نفسه:

«... عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين»(٣).

وقال:

«وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء...»(٤)

وقال:

«وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين»(٥).

---

(١) الكافي في الأصول: ١/ ١٤٨.
(٢) سفر التكوين من التوراة الإصحاح السادس الفقرة ٥ - ٦ - ٧.
(٣) سورة سبأ الآية ٣.
(٤) سورة يونس الآية ٦١.
(٥) سورة الأنعام الآية ٥٩.

وأمر ملائكته أن يقولوا :

« وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً »(١) .

وقال على لسان موسى عليه السلام :

« . . . لا يضل ربي ولا ينسى »(٢) .

وقال :

« . . . وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً »(٣) .

وقال : « . . . وكان الله بكل شيء محيطاً »(٤) .

وقال : « . . . ألا إنه بكل شيء محيط »(٥) .

والآيات في هذا المعنى كثيرة لا تعد ولا تحصى .

أما الشيعة فيعتقدون في الله عكس ما يقوله الرب عنه جل جلاله ، وعم نواله . مصرحين بأن الله تعالى ظهر له من الأمر ما لم يكن ظاهراً(٦) .

ولماذا قالوا بالبداء ؟

هؤلاء القوم لماذا يقولون بهذه المقالة الشنيعة ؟

يجيب على ذلك أقدم من كتب في فرق الشيعة من الشيعة ومن يليه أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي . وسعد بن عبد الله القمي في كتابيهما (فرق الشيعة) . وكتاب (المقالات والفرق) نقلا عن سليمان بن جرير :

« إن أئمة الرافضة وضعوا لشيعتهم مقالتين لا يظهرون معهما من أئمتهم على كذبهم أبداً . وهما القول بالبداء . وإجازة التقية .

---

(١) سورة مريم الآية ٦٤ .
(٢) سورة طه الآية ٥٢ .
(٣) سورة الطلاق الآية ١٢ .
(٤) سورة النساء الآية ١٢٦ .
(٥) سورة فصلت الآية ٥٤ .
(٦) رسالة أعلام الهدى في تحقيق البداء لقضاء الدين الجيلاني الشيعي نقلا عن تحفه اثنى عشرية ص ٢٣٣ .

فأما البداء فإن أئمتهم لما أحلوا أنفسهم من شيعتهم محل الأنبياء من رعيتها في العلم فيما كان ويكون . والإخبار بما يكون في الغد . وقالوا لشيعتهم : إنه سيكون في غد وفي غابر الأيام كذا وكذا . فإن جاء ذلك الشيء على ما قالوه قالوا لهم :

ألم نعلمكم أن هذا يكون . فنحن نعلم من قبل الله عز وجل ما علمته الأنبياء عن الله ما علمت . وإن لم يكن ذلك الشيء الذي اخبروا به على ما قالوا . اعتذروا لشيعتهم بقولهم : بدا لله في ذلك بكونه .

فما أصدقه وأحسن به .

هذا ولم يقولوا بهذه المقالة . ولم يعتقدوا بهذا الاعتقاد إلا لمخالفتهم المسلمين أهل السنة حيث أنهم أسسوا قواعد مذهبهم على مخالفة العقائد الإسلامية الخالصة المستقاة من كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كما بيناه فيما مضى .

وليس الأمر كما تصوره السيد الدكتور ومن يحذو حذوه ويسلك مسلكه دون علم أو برهان .

. . .

(١) فرق الشيعة للنوبختي ص ٦٤ – ط النجف واللفظ له ، أيضاً كتاب المقالات والفرق لسعد بن عبد الله القمي ص ٧٨ .

الفصل الخامس

الجفر

وأما الجفر الذي تعرض لذكره الدكتور وافي وحين قال :

« هذا الكتاب لم تتصل روايته ، ولا عرف عينه ولا صحة نسبته إلى الإمام جعفر ، ومع تردد ذكره في الكتب المعتمدة عند الشيعة الجعفرية ، فإن معظمهم لا يعرض لتأييده »(١) . فإنه ثابت موجود لدى الشيعة الاثني عشرية ، مقرر عندهم . ولم يعرض أحد لرده خلاف الدكتور . وقد صحت نسبته إلى جعفر بن الباقر حسب زعم القوم واتصلت روايته . فإن محمد ابن الحسن الصفار مثلا الذي يعد من أصحاب الحسن العسكري — الإمام الحادي عشر المعصوم المزعوم — ومن أساتذة أئمة الحديث الشيعي كالكليني ووالد صدوق الشيعة علي بن الحسين ، وغيرهم ، ذكر في كتابه (بصائر الدرجات) أربعاً وثلاثين رواية موصولة متصلة . منها واحدة وثلاثون عن جعفر بن محمد ، وواحدة منها عن أبيه محمد الباقر ، وأخرى عن أبيه ابن الحسين ، والثالثة منها عن أبي الحسن .

وكذلك أورد الكليني إمام محدثي الشيعة ثماني روايات في ذكر الجفر ، كلها عن جعفر بن محمد ، روايات متصلة صحيحة الإسناد حسب قواعد الشيعة وأصول القوم .

ولا أدري على أي أساس قال ما قاله سيادته في ذلك ، تبرئة لساحة الشيعة مما يلزمهم من الشناعة والسخرية بسبب عقائدهم الغريبة .

ونود أن نورد ههنا روايات كي يعرف القارئ الجفر الشيعي الذي يؤهل أئمة الشيعة أن يساووا الأنبياء والمرسلين ، بل وأكثر من ذلك أن

---

(١) بين الشيعة وأهل السنة ص ٧١ تحت عنوان (الجفر) .